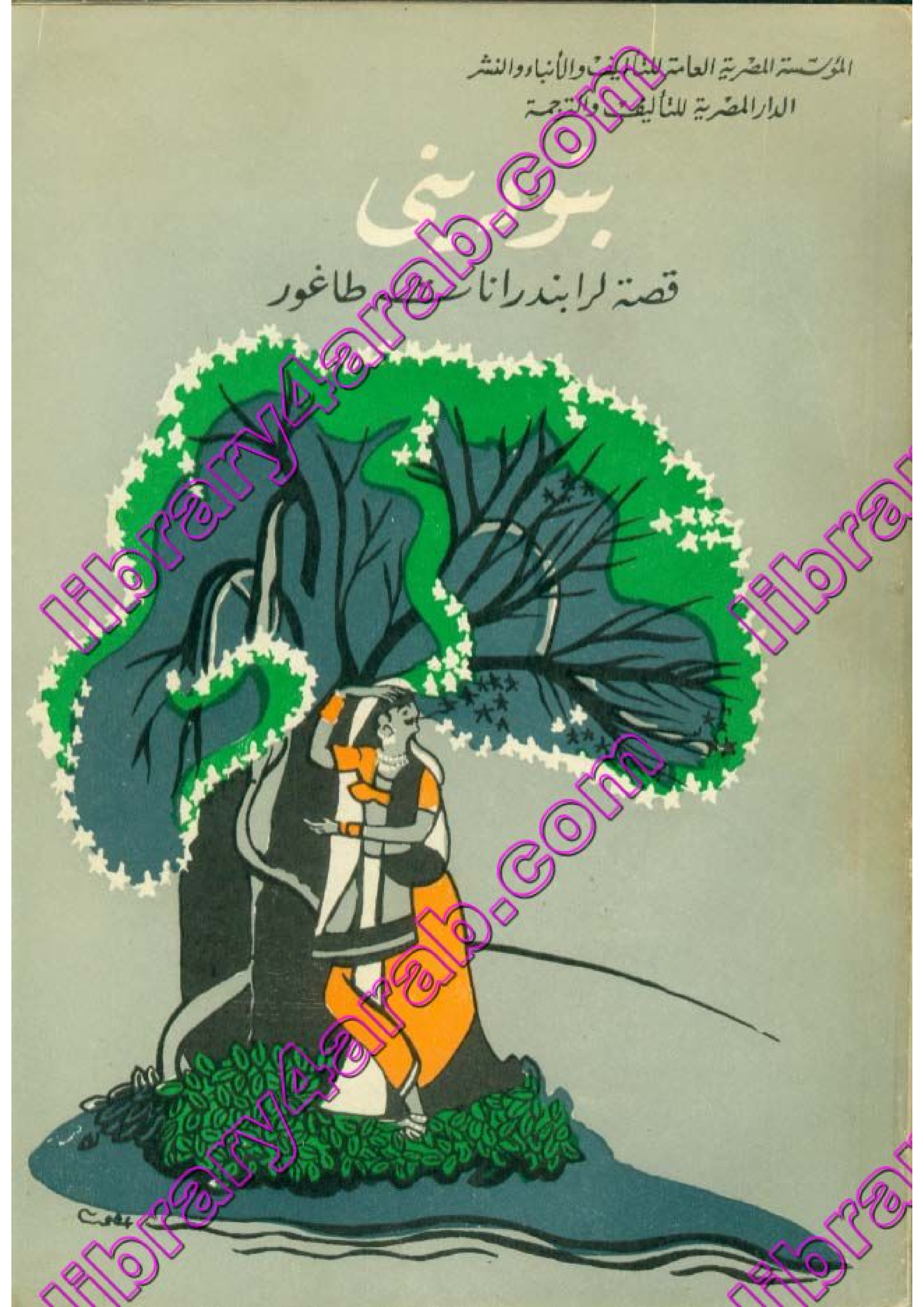


المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

قصة لرابندرانات طاغور

بنو دسّينى

ترجمة

سامى على الجمّال

مراجعة

محمد سامى عاشور

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

مقدمة المترجم

الى اللغة الانجليزية

(١)

نشرت هذه القصة المعروفة فى أصلها البنغالى باسم Chokher Bali (اى رمداء العين) لأول مرة فى عام ١٩٠٢ ، وهى أول قصة حديثة باللغة البنغالية ، بل لعلها أول قصة حديثة فى الأدب الهندى — وليس معنى هذا أنه لم تكتب قصص باللغة البنغالية أو أية لغة هندية أخرى قبلها . ويرجع الفضل فى أن طاغور أول قصصى عظيم فى الأدب الهندى الحديث الى سلفه بانكين تشاندرا تشاترجى الذى وضعت قصصه أساس هـذا النوع من الأدب فى الهند الحديثة . وقد كتب طاغور نفسه قصتين قبل ذلك فى حوالى العقـد الثامن من القرن السابق ظهر فيهما أثر بانكين المميز بوضوح . ولكننا لا نستطيع أن نقول : ان هذه القصص — سواء أكانت قصص طاغور أم قصص بانكين — قصص حديثة بكل ما فى الكلمة من معنى ، انها قصص خيالية أو مشجاة اجتماعية أو خليط منهما ، وعلاقتها بالحيـاة العادية فى الهنـد المعاصرة علاقة ضئيلة ولو أنه يمكن قراءتها حتى الآن بمتعة .

ومع أن رابندراناث طاغور كان فى المرتبة الأولى شاعرا فهو الذى مهد الطريق الى القصة الحديثة فى الهنـد فعلا سـواء أكانت واقعية

(١) بقلم السيد / ك . ر . كريبالانى الذى قام بترجمة هذه الرواية الى الانجليزية عن أصلها البنغالى .

أم سيكولوجية أم متعلقة بمشكلات اجتماعية ، وقد بدأها بقصة « رمداء العين » .

والقصة بسيطة فى ذاتها ، بسيطة فى سردها ، وهى تتركز حول مشكلة العلاقة الانسانية وتقص علينا ما يحدث وراء الواجهة الهادئة لبيت بنغالى غنى من الطبقة المتوسطة فى تلك الحقبة حيث تعيش أم أرملة مع ابنها الوحيد الذى تهيم به حبا ، وقد يتخيل الانسان أنه لا يمكن أن يحدث شىء كثير فى مثل هذا البيت ، بل الواقع أنه لا يحدث فيه ما لا يحدث فى أى بيت هندى آخر ، ومع ذلك فان الانفعالات المتسمة بالبطولة والقسوة قد تثار فى القلوب التى تبدو وضيعة وقد تضطرم المعارك حتى ليكاد البيت يحترق رمادا دون لهيب أو دخان يبدو للعين الظاهرة .

ولا يوجد فى القصة الا ست شخصيات — الأم المغرمة وهى مخلصة غيور ، والابن المدلل ، وهو مغرور أنانى ، والزوجة البسيطة الجاهلة التى لا يمكن أن يحولها الى امرأة الا الألم الشديد وحده ، والعمة المتدينة التى تجد ملاذها فى الدين ، والصديق المخلص الذى بلغ من الفضل والنبل حدا جعله يبدو أحمق الى حد ما ، ثم الأرملة الجميلة الطروب التى تعطينا اسم الكتاب ، وبين جميع الشخصيات النسائية التى خلقها طاغور فى قصصه العديدة نجد بنودينى أكثرها واقعية واقناعا وحيوية ، ويلخص لنا فشلها وألمها تقبل الكاتب الساخر للمجتمع الهندوسى التقليدى فى تلك الأيام .

فتاة جميلة موهوبة نالت من التعليم حظا كبيرا لا تستطيع أن تجد زوجا لأن والديها صرفا ما كان عندهما من مال قليل على تعليمها وتهذيبها ولم يستطيعا أن يدخرا شيئا لمهرها ، ولما كانت البنت التى لا تتزوج بعد

الثانية عشرة تعتبر عارا اجتماعيا لأسرة هندوسية محترمة فى تلك الأيام ، فقد تزوجت من شدة هلعها من شخص تافه فقير مريض يموت بعد ذلك بقليل تاركا اياها وحيدة فى قرية لا تعطف عليها فتثور — وهى تشعر بجمالها وذكائها — على الحرمان الظالم الذى فرضته عليها حياة ذليلة تافهة مدى الحياة ؛ لا لشيء سوى أنها أرملة ؛ وتحاول أن تثبت حقها فى الحب والسعادة فتحرق أصابعها وتكاد تحرق بيتا بأكمله حتى اذا انسحبت أخيرا من القصة لم يكن مرد ذلك أنها قد هزمت وانما لأنها تحتقر نصرا تحرزه بثمن خسيس ، لقد كانت مأساتها عارا أبديا للضمير الهندوسى .

ولقد كتب طاغور قصصا أخرى كثيرة بعضها معروف أكثر من قصة « رمداء العين » ويفضلها بكثير كروائع فى الأدب ، ففيها وجد خيـاله الشاعرى وذكاؤه الشديد وفهمه البدهى للطبيعة البشرية ودقة تمييزه التى لا تبارى فى الأسلوب مجالا أكثر نضجا ، ولكننا لا نجده قصصيا ساحرا فى أية قصة من قصصه — ما عدا القصص الصغيرة — كما نجده فى هذه القصة ، ولا نراه فى أية قصة أخرى يرقب الدراما الانسانية بمثل هذه السخرية الهادئة الرقيقة دون تطفل من مختارات شاعرية أو بحوث عقلية أو يتقبل العلاقة بين الحب والجنس بمثل هذه المشاركة الوجدانية الصريحة — زهرة من زهرات اللوتس الأبيض التى يتمثل فيها الحب وقد نبتت فى عار الرغبة .

ولا حاجة بنا الى القول أن جانبا كبيرا من النكهة الأدبية التى نجدها فى الكتاب الأصلى قد ضاعت فى الترجمة ، أو كما قال طاغور نفسه مرة ان الفيتامينات — مهما كانت الترجمة — تضيع لا محالة فى هذه العملية ، وهذا صحيح بصفة خاصة فى حالة قصة تتعلق بالعلاقات الداخلية الدقيقة فى أسرة هندوسية عادية بأسلوبها المعقد من القيم والعواطف التى لا مثيل

لها فى مصطلحات اللغة الانجليزية . وقد وجـد المترجم أمامه طريقين : فاما التحرر من الأصل البنغالى حتى تسهل القراءة على القارىء الانجليزى ، أو الترجمة بدقة وأمانة مع ما ينطوى على ذلك من المجازفة ببعض الابهام والغموض والتعرض الى الاتهـام بأن الترجمة فى بعض الأماكن غـير انجليزية ، وقد اختار المترجم الطريق الثانى على أمل أن القارىء الذكى يفضل التمسك بالأصل الدقيق على التسلية بشىء مقلد .

وقد تغتفر حرية المترجم فى تغيير عنوان الكتاب اذا تذكرنا أن المؤلف نفسه كان قد أسماه « بنودينى » فى الخلاصة التى دبجها بيده فى كراسته .

والمترجم يسـجل اعترافه بالفضل لمسـتر نورمان ويليامز بالمجلس البريطانى على مراجعته مسودة الترجمة وكذلك على اقتراحاته الكثيرة القيمـة .

الشخصيات الرئيسية فى القصة

راچلاكشمى : أرملة غنية تركز كل مشاعرها على ابنها الوحيد ماهندرا وتنجح فى افساده .

أنا برنا : أخت زوج راچلاكشمى وعمة ماهندرا — تعيش فى نفس البيت مصابرة — سيدة طيبة تقية .

ماهندرا : شخص دللته أمه الحمقاء — الشخصية الرئيسية فى القصة ولو أنه ليس بطلها .

بيهارى :صديق ماهندرا منذ الطفولة ، صديق مخلص قادر أمين كريم ولكنه كمعظم الناس الطيبين يبالغ فى تقديم فضائل نفسه .

آشـا : ابنة أخت انا برنا ، تزوجت بماهندرا ، أمية ساذجة ، لا تصلح للصراعات المختلفة فى مجتمع ما زال فى دور الانتقال ، براءتها وجمال أخلاقها العالية هما عونها ومعوقها فى وقت واحد .

بِنودينى :أرملة شابة جذابة تثور فى وجه الظلم الاجتماعى الذى يحرمها حقها كامرأة فى الحب والسعادة — وما يرتكب ضدها من اثم أكثر مما ترتكبه هى ، وهى البطلة الحقيقية للقصة ، ومن أعظم الشخصيات الأصيلة فى قصص طاغور الخيالية .



٢

ألحت هاريماتى أم بِنوديني على راچلاكشمى أم ماهندرا تطلب منها يد ابنها ، فقد كانت السيدتان قد نشأتا معا فى نفس القرية ولعبتا معا وهما طفلتان ، وهكذا توسلت راچلاكشمى الى ماهندرا تقول :

— ماهن ، يا بنى ، لابد أن تساعد المرأة المسكينة ، فانى أسمع أن البنت جميلة وقد أدبتها سيدة انجليزية ، وهى ما يطمع الشبان فيها كعروس .

— ولكن هناك شبانا كثيرين غيرى يا أمى .

— هذه هى مشكلتك يا ماهن ، لا تصغى حتى الى مجرد اقتراح .

— ليست هذه جريمة كبيرة يا أماه ، هناك موضوعات كثيرة أخرى يمكن أن تتحدث فيها .

لقد كان لموت والد ماهندرا — وهو طفل — أثر كبير فى أسلوبه مع والدته ، ذلك الأسلوب الذى لا يتوقعه انسان مع شخص بلغ الثانية والعشرين من عمره وحصل على درجة الماچستير وكان يدرس الآن الطب ، فقد كان مشاكسا عنيدا ، وكان على أمه أن تمازجه وأن تبالغ فى رعايتها له ، فسواء أكان يأكل أم يستريح ، وسواء أكان يعمل أم كان فى وقت الفراغ كان دائما فى حاجة الى أمه تحوم حوله ، وكان أشبه بصغير الكانجرو ، يظل فى كيس أمه بعد أن خرج من رحمها .

وعندما اشتد الحاحها عليه ، أذعن ماهندرا أخيرا وقال :

— دعينا اذن نلقى نظرة على الفتاة .

ولكن ما جاء اليوم الذى اتفقا فيه على الزيارة حتى أعلن فجأة أنه

لا داعى الى رؤيتها ،، فاذا كان لابد أن يتزوجها لمجرد ارضاء أمه فليس ثمة ما يدعو الى أن ينظر الى موطىء قدمه قبل أن يقفز .

وكانت تشوب كلماته نغمة فيها تبرم واستياء ، ولكن الأم لم تعر ذلك اهتماما فقد كانت تعلم أن هذا التبرم سوف يتحول الى رقة وحنان عندما يرى العروس لأول مرة فى يوم الزفاف ، وسوف يقر اختيار أمه من صميم قلبه .

وهكذا حدد يوم الزفاف وهى سعيدة مغتبطة ولكن عصبية ماهندرا كانت تزداد كلما اقترب اليوم الموعود حتى أعلن صراحة قبـل الزفاف بيومين أو ثلاثة قائلا :

— لا يا أماه .. لا أستطيع أن أتم هذا الزواج .

ولما كان قد ولد وفى فمه ملعقة من فضة وكان مدللا منذ طفولته فقد اعتاد ماهندرا أن يفرض رأيه ، ومن ثم فان الفكرة التى كانت تختمر فى رأسه وهى أنه مسير لتنفيذ رغبة شخص آخر ، أخذت تستبد به حتى أصبح لا يحتملها .

وكان بيهارى أوفى أصدقاء ماهندرا وأخلصهم له حتى كان يناديه بكلمة دادا أى الأخ الأكبر كما كان ينادى راچلاكشمى بيا أمى ، وكانت الأم تعده رفيقا مفيدا لابنها لا غنى عنه ، وتنظر اليه كما لو كان « صندلا » لنقل البضائع يشد الى باخرة ابنها ، فقد كان شديد التعلق به .

وقد ذهبت اليه فى ورطتها وقالت له « يا بنى ، ان عليك الآن أن تتزوج الفتاة والا فان الفتاة المسكينة .. » .

ولكن بيهارى قاطعها ويداه معقودتان قائلا : « عفوا ، فان هذا أكثر مما أستطيع أن أقوم به ، لقد تركتك فى معظم الأحيان تطعميننى الحلوى التى كان ماهندرا لا يعنى بلمسها ، ولكنى اذا كنت لا أبالى بأن أكون

مستودعا للحلوى التى يتركها غيرى فان الأمر اذا تعلق بفتاة كان مختلفا .. لا .. ان ذلك أكثر مما أحتمل » .

وقد طربت راچلاكشمى واعتقدت أن بيهارى كان عازفا عن الزواج لأن عالمه كان يتركز فى ماهندرا وليس فيه مكان لعروس .. وقد مسها هذا الاخلاص وزاد حبها لبيهارى ، حبا يتسم فى جوهره بالعطف .

ومع أن والد بنودينى لم يكن غنيا فلم يقف ذلك عائقا عندما كان الأمر يتعلق بتعليم ابنته الوحيدة وقد استعان باحدى المبشرات لتكون مربية خاصة لها ، ويبدو أنه لم يتنبه الى أن ابنته يتقدم بها العمر الى ما بعد سن الزواج وقتئذ ، فلما مات وجدت أرملته أنها تركت فى الحياة بابنة يافعة وليس معها مال يكفى لمهرها ، فخرجت عن اتزانها وأخذت تبحث فى عصبية وجنون عن عريس لابنتها ، وأخيرا نجحت راچلاكشمى فى تزويج بنودينى من ابن عم بعيد يعيش فى القرية التى نشأت بها واسمه براشات ، ولكن سرعان ما ترملت الفتاة . وضحك ماهندرا وهو يقول : « لحسن الحظ أننى لم أكن العريس ، والا فأين كنت أكون الآن بعد أن ترملت زوجتى » ؟

ومرت سنوات ثلاث واستأنفت راچلاكشمى وابنها الحديث فى الموضوع القديم فى أحد الأيام . فشكت الأم لابنها قائلة « ان الألسنة تلوك اسمى دون داع يا بنى » .

— ولماذا يا أماه ؟ وأى خراب كنت السبب فيه ؟

— انهم يقولون اننى لا أدعك تتزوج عن عمد خشية أن أفقدك وأن تأخذك منى العروس .

فقال ماهندرا : انه لخوف مشروع ، ولو كنت أنا أما ما كنت أخاطر بزواج ابنى ، دعى الناس يقولون ما يريدون .

فضحكت راچلاكشمى وقالت : يا له من قول !

واستطرد ماهندرا يقول : ان العروس سوف تحتكر الابن ؛ وعندئذ ماذا يكون من أمر الأم العزيزة المخلصة ؟ ربما كنت أنت لا تهتمين ولكنى أنا شخصيا أكره ما أتوقع أن يحدث .

وشعرت راچلاكشمى بسعادة فى قرارة نفسها ، واتجهت الى أخت زوجها الأرملة التى دخلت الحجرة عند هذا الكلام وقالت لها : هل سمعت ما قال ماهن ؟ انه لن يتزوج خوفا من أن تأخذ عروسه مكانى ، هل سمعت مثل هذا السخف ؟

فالتفتت اليه عمته وقالت : ان هذا الأمر سىء يا بنى ؛ ان ما قد يكون جذابا فى سن معينة قد يبدو سخيفا فى سن أخرى ؛ وقد حان الوقت لتخرج عن ظل أمك وتقيم لنفسك بيتا ، ان من المخجل أن أراك تسلك سلوك الولد الصغير .

لم تسر راچلاكشمى من هذه الكلمات ؛ فجاء ردها دفعا واضحا أكثر منه كلاما لينا ، اذ قالت : ان كان ابنى يحب أمه أكثر مما يحب الأبناء أمهاتهم عادة فلم يكون ذلك مخجلا ؟ ولو كان لك ابن لعرفت معنى ذلك .

ودار بخلد راچلاكشمى فى تلك اللحظة أن تلك الأرمل التى حرمت الذرية تغار من حظها السعيد .

وقالت أخت زوجها : انك أنت يا أختاه التى أقحمت موضوع العروس فى البيت .. والا فما دخلى أنا ؟

— ولكن لماذا تستائين هكذا اذا كان ابنى لا يريد عروسا ؟ واذا كنت قد استطعت أن أربى ابنى طوال هذه السنين فانى لازلت أستطيع أن أعنى به بنفسى ، ولست فى حاجة الى مساعدة انسان آخر .

فأسرعت أخت زوجها من الحجرة والدموع فى عينيها دون أن تنبس ببنت شفه .

وقد آلم المنظر ماهندرا وأثقل عليه ؛ ولذلك لما عاد مبكرا من كليته اتجه مباشرة الى حجرة عمته فقد كان يعلم علم اليقين أنه لم يكن هناك دافع لما قالته الا اهتمامها بأمره اهتماما يتسم بالحب . وكان يعرف كذلك أن لها ابنة أخت صغيرة ويتيمة تحب أن يتزوجها حتى تستطيع أن تبقيها بالقرب منها وتراها سعيدة ، وقد بدت له هذه العاطفة من جانب عمته عاطفة طبيعية أثرت فيه رغم انصرافه عن الزواج .

دخل ماهندرا حجرة عمته عندما كان آخر شعاع من أشعة الشمس قد اختفى ، فوجدها جالسة بالقرب من النافذة متكئة برأسها الى قضبانها وقد شحب وجهها واسترعى انتباهه وجود طبق الأرز مغطى لم تمسسه .

كان ماهندرا سريع التأثر تسرع الدموع الى مقلتيه ، فما أن رأى عمته على هذا النحو حتى اقترب منها وقد امتلأت عيناه بالدموع وقال بحنان « عمتى » .

وتصنعت أنا برنا ابتسامة شاحبة وتمتمت « تعال واجلس يا ماهن » .

فقال ماهندرا : اننى جائع ؛ ألا تدعينى أتناول بعض البراساد ؟ [1] .

وفطنت أنا برنا الى ما يقصده ماهندرا ؛ فتغلبت على دموعها وتناولت معه بعض الطعام . فلما انتهيا من طعامهما كانت العاطفة قد طغت على ماهندرا طغيانا جعله يقول دون وعى : عمتى ، ألا تدعيننى أرى ابنة أختك ؛ تلك التى طالما تحدثت عنها ؟ .

وما أن بدرت منه هذه الكلمات حتى قالت له : « ماذا تقول يا ماهن ؟ هل تفكر فى الزواج » ؟ .

---

(۱) طعام تقدس بتقديمه لمعبود أو لشخص مقدس ، والمقصود هنا أن أنا برنا يجب أن تأكل منه أولا قبل أن يأكل ماهندرا .

فأسرع يشرح وجهة نظره قائلا : لا .. لا ، اننى لا أفكر فى نفسى وانما أفكر فى بيهارى . فلم لا تحددين موعدا » ؟ .

فتمتمت أنا برنا وهى تفكر : بيهارى . أيمكن أن تكون الفتاة باسمة الحظ فتصبح زوجة لرجل مثل بيهارى » ؟ .

وعندما خرج ماهندرا من الحجرة وجد أمه عند الباب فسألته : أهو أنت يا ماهندرا ؟ فيم كنتما أنتما الاثنان تتحادثان » ؟ .

فأجاب ماهندرا « لا شىء على وجه الخصوص . لقد دخلت لأتناول مضيغة [1] من ورق البان » .

— ولكن مضائغك فى حجرتك .

فأسرع ماهندرا دون أن يجيب ، ودخلت راچلاكشمى الحجرة ورأت عينى أنا برنا متورمتين من الدموع فأخذت تتبين الموقف من مظاهره ، وقالت فى صوت أشبه بالفحيح : « حسنا يا أخت زوجى ، لقد أخذت تزعجين الولد » فلما قالت ذلك خرجت من الحجرة مسرعة لا تنتظر اجابة .

٣

كاد ماهندرا أن ينسى التاريخ ، ولكن أنا برنا لم تنسه ، اذ كانت قد كتبت الى الوصى على ابنة أختها ، وكان عمها ، وحددت التاريخ الذى يرى فيه الشابان الفتاة .

وقد احتج ماهندرا عندما سمع بذلك وقال : لم هذه العجلة التى لا مبرر لها يا عمتى ؟ اننى لم أتحدث مع بيهارى بعد .

فأجابت أنا برنا : لقد انتهى الأمر الآن ، ماذا يظنون اذا لم نذهب لنرى الفتاة ؟

(١) ضرب من النبات يمضغ فى الهند .

فأرسل ماهندرا الى بيهارى وأخبره بكل شيء ثم أضاف :

— على أى حال دعنا نرى الفتاة فاذا لم ترق لك فلن يستطيع أن يجبرك انسان على زواجها .

ولكن بيهارى أجاب : ولكن قلبى لن يطاوعنى على أن أقول ان ابنة أخت عمتى لا تلائمنى .

فأجاب ماهندرا : هذا شعور جميل .

ولكن بيهارى استمر يقول : ولكنك أخطأت يا ماهندا (*) فى أن تدس على الناس واجبات ثم تتنحى أنت عن واجباتك ، ان الموقف عسير بالنسبة الىّ الآن فكيف أستطيع أن أوذى عمتى فى شعورها ؟

وارتبك ماهندرا وسأل ببرود : ماذا تقترح اذن أن نعمله ؟

فأجاب بيهارى : مادمت قد أكدت لها الأمر بالنيابة عنى فسأتزوج الفتاة ولا داعى لمسرحية الذهاب لرؤيتها .

لقد كان بيهارى شديد الاخلاص لأنا برنا وكان تقديره لها يصل الى حد التبجيل فلما سمعت أنا برنا بما قاله بيهارى أرسلت اليه وتوسلت اليه قائلة :

— كيف يمكن أن يكون هذا يا بنى ؟ أنا لا أستطيع أن أدعك تتزوج فتاة لم ترها ، فاذا رأيتها ولم تعجبك فانى أقسم انى لن أدعك توافق على مثل هذا الزواج .

وفى اليوم المحدد للزيارة طلب ماهندرا من أمه بمجرد عودته من الكلية أن تعطيه الكرتا الحريرية والدؤطى (١) الموسلين الجميل من صنع اقليم داكا .

(*) دا أى الأخ الأكبر اختصارا لدادا .

(١) لباس فضفاض يلبسه بعض الهنود .

فسألته أمه : لماذا ؟ الى أين أنت ذاهب ؟

فأجابها ماهندرا : سأخبرك فيما بعد ، أما الآن فأرجوك أن تعطيني ما طلبت .

ولم يستطع ماهندرا أن يقاوم الاغــراء فى ارتداء أحسن ما عنــده — غريزة الشباب فى التظاهر حتى ولو لم تكن الفتاة التى سوف يراها له .

ثم سار الاثنان فى طريقهما . وكان عم الفتاة السيد أنوكول يعيش فى منزل من ثلاثة طوابق يعلو على مبانى المنطقة كلها ، وقد تعهد الابنة اليتيمة بالرعاية بعد أن مات أخوه الذى صرعه الفقر ، وكانت أنا برنا قد طلبت أن تأخذ الفتاة معها لتقوم بنفسها على تربيتها ولكن هذا العرض وان أرضى كيس نقوده لم يرض كبرياءه ، والواقع أن شدة حساسيته لمركزه الاجتماعى كانت من القوة بحيث لم يسمح للفتاة بأن تزور بيت خالتها ولو مرة واحدة . وقد شبت الفتاة ووصلت الى سن الزواج ، ولكن من سوء الحظ أن المثل السنسكريتى [1] السائر الذى يقول : ان ثمرة النجاح تعتمد على قوة الايمان والجدية لم تعد له قيمة فيما يختص بزواج البنات ، فقد أصبح الزواج يعتمد الآن على المال الوفير الى جانب الايمان والجدية ، وكان كلما أثير موضوع تدبير مهر للفتاة كان أنوكول يقول : ان له من بناته ما يكفيه ولا ينبغى أن يتوقع أحد منه أن يتحمل عبئا آخر . وهكذا مرت الأيام وبقيت الفتاة دون زواج .. وهكذا كانت الأحوال عندما وصـــل ماهندرا متأنقا متعطرا مع صديقه .

كان يوما من أيام أبريل وكانت الشمس على وشك المغيب على الشرفة الجنوبية من الطابق الثانى المبلطة بآجر متلألىء بديع حيث صعد الصديقان

---

(١) لغة هنــدية ايرانية وهى الآرية القديمة وأقدم اللغات الهندية وأكثرها أدبا .

وجلسا فى أحـد أطرافها ، وقد وضعت أمامهما الأطباق الفضية ممتلئة بالفاكهة والحلوى ، ووضع الماء المثلج فى أكواب من الفضة تكثف الندى على سطحها . وأخذ ماهندرا وبيهارى يتناولان المرطبات وقد طغا عليهما الخجل والارتباك ، وفى الحديقة كان البستانى يرش الماء فوق الزرع وكان النسيم يهب من الجنوب محملا برائحة الأرض الرطبة المنداة فيصدر حفيفا حين يلتقى بأطراف وشاح ماهندرا السائبة المصنوعة من الموسلين وقد فاحت منها رائحة العطر ، وكانت الهمسات المكتومة والقهقة ورنين الحلى يسمع صوتها من خلال الشدوخ فى الأبواب والنوافذ .

وبعد الانتهاء من تناول المرطبات التفت السيد أنوكول تجاه الحجرات الداخلية ونادى : تشونى يا عزيزتى ، احضرى الينا المضائغ من فضلك . وبعد برهة وجيزة فتح أحد الأبواب الخلفية على استحياء وجاءت فتاة غمرتها حمرة الخجل ووقفت بجوار عمها تحمل صندوق المضائغ فى يدها . وقال العم : لم هذا الخجل أيتها الأم الصغيرة [1] ؟ ضعى المضائغ أمام السيدين . وانحنت الفتاة وبيد ترتجف وضعت الصندوق عـلى الأرض بالقرب من الضيفين . وكان ضوء الشمس الغاربة يلقى بوهجه على وجهها الحيى من الطرف الغربى للشرفة عندما رفع ماهندرا بصره ورأى وجه الفتاة الحنون الحلو وهى تكاد ترتد استحياء .

وعندما كانت الفتاة على وشك مغادرة الشرفة قال السيد أنوكول « انتظرى لحظة يا تشونى » ثم التفت الى ضيفيه وتابع حديثه قائلا : « يا سيد بيهارى هذه هى ابنة أخى الأصغر أبو ربا ؛ لقد مات وليس لها الآن من أحد سواى » ثم زفر زفرة عميقة شعر ماهندرا معها بالشفقة ونظر الى الفتاة اليتيمة مرة ثانية وأخذ يتساءل فى نفسه عن عمرها فلم تكن خالتها

---

(١) طريقة لتدليل الفتاة عند مخاطبتها .

قد ذكرت شيئا عن ذلك الا عبارات غامضة من حين الى آخر « لابد وان عمرها اثنتا عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة » . ومعنى هذا أنها قد تكون بلغت الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، ولكن الجو الذى نشئت فيه والألم الذى تحملته جعلها تبدو أكبر سنا .

وتأثر ماهندرا وسأل : « ما اسم الفتاة ؟ » فسجل السيد أنوكول اهتمام الضيف بحماسة وقال للفتاة « أذكرى اسمك أيتها الأم الصغيرة » وتمتمت الفتاة التى جبلت على طاعة أوامر عمها تقول وقد أخفضت رأسها « آشا لاتا » [1] .

آشا ! يا له من اسم رقيق مؤثر ، وما أجمل الصوت الذى نطق به ! آشا اليتيمة ! لقد تأثر ماهندرا تأثرا عميقا . وعندما خرج الصديقان وركبا العربة قال ماهندرا « بيهارى . لا تترك هذه الفتاة » .

فقال بيهارى دون أن يجيب عن السؤال اجابة مباشرة « انها تذكر الانسان بخالتها ، ولابد أن لها نفس طبيعتها ونفس سجيتها الحلوة » .

فقال ماهندرا « أرجو ألا يكون الحمل الذى ألقيته على كتفيك ثقيلا عليك » .

فقال — « قطعا لا ، وانى لأعترف بأننى أستطيع حمله » .

— « ولكن لماذا تجهد نفسك ؟ ما رأيك فى أن أتحمل العبء عنك » ؟

ونظر بيهارى الى ماهندرا ثم قال له بصوت جدى :

— هل أنت جاد يا أخى ؟ أرجو أن تنتهى الى قرار فلا زال أمامنا متسع من الوقت فاذا تزوجتها فان عمتك ستكون أكثر سرورا اذ تستطيع أن تجعل الفتاة بالقرب منها دائما :

---

(١) آشا معناها الحرفى الأمل ولاتا معناها المتسلق أو المتعلق .

فضحك ماهندرا وقال : « هل جننت ؟ لو أننى كنت أريدها لتم لى ذلك من أمد بعيد » .

فسكت بيهارى ولم يتكلم بعد ذلك ثم استأذن منه وانصرف . أما ماهندرا فلم يتجه الى بيته مباشرة وانما تجول طويلا ثم اتجه الى بيته ببطء فوصل اليه فى ساعة متأخرة . وكانت أمه لا تزال مشغولة فى المطبخ ولم تعد عمته من منزل ابنة أختها بعد . واتجه ماهندرا الى الشرفة المهجورة فى أعلى المنزل ونشر حصيرة رقد عليها . كان الليل ساكنا وأشعة القمر الواجلة تنتشر فوق أعالى منازل المدينة وجاءت الأم لتعلن أن العشاء قد أعد ، ولكن ماهندرا أجاب فى كسل « اننى مستريح ولا أريد القيام يا أماه » .

فقالت له الأم : دعنى أحضر لك عشاءك هنا .

فقال : « انى لا أشعر برغبة فى الطعام ، فلقد أكلت ما يكفينى » .

فسألته الأم : أين أكلت ؟

فقال : « انها قصة طويلة ، وسأخبرك بها فيما بعد » .

وشعرت راجلاكشمى بأنها جرحت من سلوك ابنها غير العادى ، واستدارت لتتركه دون كلمة ، ولكن ماهندرا ، وقد أفاق لوعيه وأحس بالذنب ، ناداها : « حسنا يا أماه ، دعينى أتناول الطعام هنا » .

— « وما الفائدة ان لم تكن عندك رغبة فيه » ؟

وبعد كلمات تبادلتها الأم المجروحة وطفلها المدلل المتحفظ اضطر ماهندرا الى أن يتناول وجبة أخرى .

٤

لم يستطع ماهندرا أن ينام جيدا تلك الليلة ، وفى الصباح الباكر اتجه الى بيت بيهارى وقال له : « لقد كنت أفكر أيها الصديق ، ان عمتى تريدنى أن أتزوج ابنة أختها » فأجاب بيهارى : لا يحتاج اكتشاف هذه الحقيقة الى تفكير ، انها قد عبرت عن هذه الرغبة بمائة طريقة وطريقة .

— « ولهذا فانى أقول : اننى اذا لم أتزوج آشا فان عمتى ستصاب بخيبة أمل لا نهاية لها » .

— « من الجائز » .

وكان يبدو فى صوت بيهارى دفء مكره عندما قال فجأة :

— « حسنا ، لن يكون هناك أفضل من أن توافق على هذا الزواج ! وانما كان الأفضل لو أن ضميرك كان قد استيقظ لواجبه قبل الآن » .

— « ان تأخير يوم ليس بذى شأن » .

ولم يستطع ماهندرا بعد أن أرخى العنان لخياله عن مستقبل هــذا الزواج أن يستقر ويهدأ فقد أصبح قلقا يريد أن ينهى الموضوع بأسرع ما يمكن ، ولذلك فقد قال لأمه بمجرد عودته « حسنا يا أماه ، سأحقق رغبتك فانى موافق على الزواج » .

وعندئذ فهمت راجلاكشمى السبب الذى جعل ماهندرا يهتم بارتداء أحسن ما عنده فى اليوم السابق ، وتذكرت أن أخت زوجها كانت قد ذهبت هى الأخرى ذلك المساء لترى ابنة أختها ، وهكذا نجحت خطة أنا برنا بينما فشلت محاولاتها فى اقناعه بالزواج ! لقد تآمر العالم كله ضدها . وعندما استطاعت أن تتغلب على تبرمها واستيائها قالت « حسنا ، سوف أبحث لك عن فتاة مناسبة » .

— « بل ان الفتاة موجودة » .

— « انها لا تصلح يا بنى ، دعنى أقول لك ذلك صراحة » .

فقال ماهندرا وقد كظم هو أيضا غضبه .

— « ولمَ يا أماه ؟ ماذا يعيبها ؟ » .

— « حقا لمَ ؟ يتيمة لا أقارب لها ! ما هى السعادة التى يمكن أن يجلبها مثل هذ الزواج على أسرتك ؟ » .

— أنا لا يهمنى أن يكون لها أقارب ، انى أحب الفتاة .

لقد أضاف تصميم ماهندرا الى النار وقودا ، فذهبت راجلاكشمى الى أنا برنا مباشرة وقد استشاطت غضبا وصاحت بها « أيتها الشيطانة ! كيف تجرئين على أن تتآمرى لكى تسرقى ابنى الوحيد منى لتزوجيه من تلك البائسة اليتيمة التعسة ! » .

فانفجرت أنا برنا باكية قالت « صدقينى ، انى لم أتكلم كلمة واحدة لماهندرا عن الزواج ، بل انى لا أعرف ماذا كان يقول لك » .

ورفضت راجلاكشمى أن تصدق كلمة واحدة مما قالته فأرسلت أنا برنا الى بيهارى وقالت له والدموع تملأ عينيها « لقد كان الاتفاق كله معك أنت فلماذا اذن قلبت كل شيء رأسا على عقب ؟ أرجوك ألا تنكص على عقبيك ، فأنت اذا لم تقف بجانبى فسوف أكون فى مأزق حرج جدا . انى أؤكد لك بأن الفتاة طيبة من جميع النواحى ولن تندم على هذا الزواج » .

— ان تأكيداتك يا عمتى لا ضرورة لها ، ولا يوجد ما يمنعنى من الزواج مادام الأمر يتعلق بابنة أختك ، ولكن أخى ماهندرا ..

— لا يا بنى ، انها لا يمكن أن تكون عروس ماهن ، صدقنى عندما أقول

اننى سأكون راضية كل الرضا لو أنها صارت عروسك أنت . بل فى الحق أنى لا أوافق على زواجها من ماهن .

فقال بيهارى : « اذا كان الأمر كذلك فلن تكون هناك مشكلة » .

وهكذا اتجه بيهارى الى راچلاكشمى مباشرة وقال لها :

— « لقد تمت خطبتى على ابنة أخت عمتى ، وأنا آسف وخجل اذ أنقل هذا الخبر اليك بنفسى فليس لى لسوء الحظ قريبات فى المدينة » .

فأجابت راچلاكشمى بحماسة « يا للخبر السار يا بيهارى ! اننى سعيدة جدا — انها فتاة طيبة وجديرة بك من كل ناحية فلا تتركها » .

— ولماذا أتركها ؟ لقد اختارها لى أخى ماهندرا وأعد كل شىء .

واكتأب ماهندرا فما كان لهذه العقبة الجديدة الا أن تزيد الجرح ألما . لقد غضب من أمه وعمته وترك البيت واستأجر حجرة فى فندق قذر من فنادق الطلبة . فأخذت راچلاكشمى تهذى من الخوف وذهبت الى حجرة أنا برنا وقالت لها باكية :

— انقذى ابنى أيتها الأخت العزيزة — انى أخاف أن يهجرنا الى الأبد وينقلب ناسكا .

فطمأنتها أنا برنا تقول « خففى عنك يا أختاه ، فسوف يذهب عنه الغضب بعد يومين » .

فولولت راچلاكشمى : « انك لا تعرفينه ، فهو اذا لم يحصل على ما يريد فانه قادر على أن يذهب الى أبعد مدى ، ويجب أن ترتبى القران بطريقة ما » .

فقالت أنا برنا : « وكيف يتأتى ذلك يا أختاه ؟ لقد أصبح القران مع بيهارى أمرا مؤكدا » .

فقالت راچلاكشمى : « لن يحتاج الأمر الى وقت طويل لفصمه » .

ثم أرسلت الى بيهارى وقالت له : « يا بنى ، سأبحث لك بنفسى عن عروس . أما هذه الفتاة يجب أن تتركها فهى لا تصلح لك »

— « أرجوك يا والدتى ، ان هذا مستحيل ، فلقد أعطيت كلمتى »

واتجهت راچلاكشمى الى أنا برنا وهى فى حيرة من أمرها وتضرعت اليها قائلة :

— « أرجوك يا أختاه ، ارسلى فى طلب بيهارى وحدثيه بصراحة . انك أنت الوحيدة التى تستطيعين أن تتغلبى عليه »

وهكذا استدعت أنا برنا بيهارى وقالت له :

— « لا أعرف كيف أصف لك الموقف يا بيهارى ، ولكن ماذا عساى أن أفعل ؟ اننى شخصيا لا أفضل شيئا أكثر من أن أرى آشا وقد صارت زوجة لك — ولكنك تعرف الموقف » .

فأجاب بيهارى : « انى أفهم يا عمتى ، وسأنفذ كل ما تريدينه ، ولكن لا تكلمينى بعد ذلك اطلاقا عن الزواج »

ثم تركها وخرج وامتلأت عينا أنا برنا بالدموع ، ولكنها سرعان ما مسحتها حتى لا تحمل الدموع فألا سيئا لماهندرا ، وانطلقت تخفف عن نفسها تقول ، وتعيد ما تقول المرة بعد الأخرى : ان كل شىء سيتحول الى ما هو أفضل .

وهكذا حدد يوم الزفاف ، ولكن التوتر الصامت المنبعث من الكبرياء المجروحة استمر ، وقد ضاعفته نظرات التأنيب المتبادلة بين راچلاكشمى وأنا برنا وماهندرا ولكنهم جميعا حافظوا على المظاهر الخارجية من السرور والأبهة وأضىء ألف مصباح وعزفت الموسيقى الحلوة البسيطة ووزعت الحلوى بسخاء .

وخطت آشا الى عالمها الجديد ، قوام رشيق تكسوه حلة جميلة ،

ووجه حلو خضبه اشعاع الخفر ، وروح بريئة هيابة لا توجس خوفا بما فى الطريق الممتد أمامها من أشواك ، ذلك أن الأمل فى ذهابها الى منزل تكون فيه بالقرب من خالتها الحبيبة ملأها فرحا وثقة فلم يكن هناك مكان للخوف اطلاقا .

ولم تمض الا فترة قصيرة على الزفاف حتى نادت راچلاكشمى ماهندرا وقالت له : « أظن أنه يحسن بعروس ابنى أن تمكث فى بيت عمها بضعة أيام » .

فسألها ماهندرا : « ولكن لمَ ذلك يا أماه ؟ » .

— « نعم ، فان امتحانك يقترب ، وقد تلهيك عن دراستك » .

فغضب ماهندرا وقال : « وهل أنا طفل لا يوثق بقدرتى على الاهتمام بشئون نفسى ؟ » .

ولكن الأم استمرت تقول « وماذا يكلفك ذلك ؟ انها مسألة سـنة

— « قد يكون ذلك ولكن لو كان والداها على قيد الحياة لربما قبلت أن تمكث معهما بعض الوقت ، ولكنى أخشى ألا أستطيع أن أرسلها الى بيت عمها ثانية » .

وقالت راچلاكشمى لنفسـها : « فليساعدنى الله ! لقد بدأ يسلك كما لو كان صاحب البيت .. وأنا ؟.. لا شىء .. يا له من شوق للعروس .. التى جاءت بالأمس فقط ! لقـد كنا عرائس جددا فى يوم ما .. ولكن أزواجنا لم يسلكوا قط هـذه الطريقة المشينة التى تنم عن الاستكانة لزوجاتهم » .

وقد حاول ماهندرا أن يخفف عنها بما كان يتصور أنه أمر مؤكد فقال لها : « لا تقلقى يا أماه ، ان دراستى لن تتأثر اطلاقا » .

أظهرت راچلاكشمى حماسة غير عادية فى تدريب زوجة ابنها على مشكلات الاقتصاد المنزلى ، وكان يوم آشا مقسما بين حجرة « الكرار » والمطبخ وواجبات أخرى لا نهاية لها ، وفى الليل كانت حماتها تدعوها لتنام بجوارها وكانت هذه ايماءة أموية لتعوضها عن فقدان والديها ، اما أنا برنا فقد ابتعدت بحكمة .

وكان ماهندرا أشبه بالطفل الجائع الذى يرقب فى يأس عاجز وصيا جبارا يقضم عود القصب كله ويمتص آخر قطرة من عصيره أمامه . فقد كان جمال عروسه الشابة يستنزف فى خدمة المنزل أمام عينيه ، وكان هذا أكثر مما يستطيع أن يحتمله فذهب الى أنا برنا وشكا اليها قائلا : « ان الطريقة التى تقود بها أمى الفتاة المسكينة الى حتفها أمر مشين .. غير محتمل » .

ومع أن أنا برنا كانت تعرف أن راچلاكشمى تبالغ فى ذلك فقد أجابت : « ولماذا يا ماهندرا ؟ ما الخطأ فى تعليم العروس كيف تصير ربة بيت ممتازة ؟ هل تفضل أن تكون آشا كاحدى هؤلاء البنات الحديثات اللائى يتلكأن متكاسلات طوال اليوم ، يقرأن الروايات أو يطرزن بينما يقوم الآخرون على خدمتهن ؟ » .

فقال ماهندرا بحدة : « ان الفتاة الحديثة يجب أن تكون حديثة سواء أكان ذلك حسنا أم سيئا ، واذا كانت زوجتى تستمتع بقراءة الروايات كما أستمتع بها أنا فليس هناك ما يدعو الى الندم أو السخرية » .

ووصل صوته المرتفع الى أذنى راچلاكشمى فوضعت كل شىء جانبا

وأسرعت الى حجرة آنا برنا وقالت بحدة : « ما هذه المشاورات الدائرة هنا ؟ دعونى أسمع » .

فأجاب ماهندرا بتحد : « لا توجد مشاورات ، ان المسألة لا تعدو أننى لن أسمح لزوجتى بأن تعامل كما تعامل الخادمة » .

فسألته راچلاكشمى بسخرية بعد أن كظمت غيظها : « وكيف اذن تريد أن تعامل الأميرة ؟ » .

فأجاب ماهندرا : « سأعلمها القراءة والكتابة » .

وتركت راچلاكشمى الحجرة بسرعة دون أن تنبس بكلمة ثم عادت فى الحال وهى تجر آشا من يدها : « ها هى عروسك ، خذها ، علمها ما تشاء » .

ثم التفتت الى آنا برنا وأضافت ويداها معقودتان فوق صدرها : « اغفرى لى — يا أخت زوجى المبجلة — فشلى فى ادراك مقام ابنة أختك الكريمة وترك يديها الرقيقتين تتسخان بالكركم . خذيها الآن ونظفيها من كل لطخ الواجبات المنزلية ، وألبسيها كسيدة وضعى يدها فى يد ماهن ! دعيها تستلقى فى استرخاء بما يتناسب مع كبريائها ، وتلعب بالكتب ، أما أنا فسأقوم بعمل الخادمة » ثم أسرعت بعد أن قالت ذلك الى حجرتها وصفقت الباب خلفها .

واستمرت آنا برنا جالسة على أرضية الحجرة كشخص قد صعق ، أما آشا ، التى لم تستطع أن تفهم السبب فى هذه الأزمة العائلية الفجائية ، فقد شحب وجهها من الخوف والقلق . وأما ماهندرا فقد غضب وقال فى عزم وتصميم : « لا أريد سخفا بعد هذا ، ومن الآن فصاعدا سأكون مسئولا عن زوجتى فهذا من حقها على » .

وهكذا اجتمع الواجب والمتعة ، فكان لاجتماعهما الأثر الذى يحدث عندما تلهب الريح النار ، فقد نسى ماهندرا الكلية والامتحان الوشيك



والأصدقاء والواجبات وأدى به تحمسه لتهذيب عقل زوجته الى أن يعتزل هو وتلميذته فى حجرة النوم ، وكاد لا يهتم اطلاقا بما يحدث لدراسته أو بما يظنه فيه الآخرون .

وبقيت راجلاكشمى وحـــدها تمرض كبرياءها التى جرحت وقالت لنفسها : لو أن ماهن وعروسه جاءا وسقطا عند قدمى يطلبان العفو فلن أنظر اليهما ، وسوف أرى الى أى حد يستطيع أن يستمر على هذا الحال — دون أمه .

ومرت الأيام دون أن يكون هناك ما يدل على أن التائبين ينتظران عند بابها ، فقررت راجلاكشمى أنه لو جاء ماهندرا الآن وطلب الغفران فانها ستعفو عنه عن كرم والا فان قلب الولد المسكين سوف ينفطر . ومع ذلك فلم يصل الى أذنيها أى صوت يتوسل . وأخيرا قررت أن واجبها يقتضيها أن تعلن أنها قد غفرت لهما ، اذ كيف تستطيع أم أن تتحمل رؤية ابنها تعيسا محروما من الغفران !

وكانت هناك حجرة صغيرة فى نهاية الشرفة فى الطابق الثانى كان ماهندرا قد حولها الى حجرة نوم ومكتب . وقد أهملت الأم طيلة هذه الأيام القيام بواجبها الروتينى العادى فى ترتيب حجرة ابنها واعـداد سريره وكى ملابسه ، وكان ألمها من عدم ممارسة حنوها الدائم الذى تمليه عليها عاطفة الأمومة لا يقل عن ألم الأم عندما يحال بينها وبين ارضاع طفلها الرضيع وثدياها يكادان ينفجران من اللبن ، ولذلك فقد استقر رأيها عصر أحد الأيام ، عندما كان المفروض أن يكون ماهندرا فى كليته ، أن تصعد الى حجرته وترتبها ، وسوف يتعرف من نظرة واحدة عند رجوعه من الكلية على لمسات أمه فى كل شىء .. وصعدت السلم فوجدت باب حجرة ماهندرا مفتوحا ، فلما اقتربت من الباب وقفت فجأة وقد جفلت كما

لو كانت شوكة قد وخزتها ، اذ رأت ماهندرا نائما على فراشه على أرض الحجرة بينما كانت آشا ، وظهرها متجه الى الباب ، تدلك قدميه برقة . لقد صعقت راجلاكشمى عند رؤية هذا المنظر المخجل من الحنان الزوجى الذى يمارسانه فى وضح النهار ، فانطلقت تهبط السلم فى سكون وقد اكتسى وجهها بتجهم كله احتقار .

وكما تتحول السويقات الذابلة فى حقل القمح فجأة الى اخضرار عندما تنزل الأمطار بعد قحط مؤقت ، وتنبت بقوة وثقة فى شبه تحد كما لو كانت متشوقة الى تعويض أيام القحط الطويلة الباردة ، فقد تفتحت آشا وبدت عليها مظاهر الأنوثة الكاملة . ففى بيت عمها حيث أمضت فترة العذارة لم تكن لها تقريبا أية حقوق ، أما فى البيت الجديد الذى دخلته غريبة فقد وجدت نفسها حبيبة زوج مخلص ؛ وصارت اليتيمة المهملة تجلس فجأة على العرش كملكة على مملكة زوجها ، وبطريقة طبيعية رشيقة مارست دون تردد دورها الجديد المخصص لها ونحت جانبا خفر الخجل الذى تشعر به العروس الجديدة واحتلت مكانها الشرعى الى جانب زوجها فى عزة الزوجة المحبوبة .

لقد وجدت راجلاكشمى من العسير عليها أن تنسى المنظر الذى شاهدته عصر ذلك اليوم عندما صعدت الى حجرة ماهندرا ، ورأت هذه القادمة الجديدة من بيت غريب وقد جلست بجانب ابنها فى وضع يدل على الود الوثيق كما لو كانت تمارس حكرا قد استمتعت به طويلا . لقد تراجعت فى الحال وهى تحترق من الغضب لهذه الوقاحة المخجلة وأسرعت الى حجرة أخت زوجها وهى متلهفة الى أن تحرق أنا پرنا باللهيب الذى كان يلتهمها وقالت لها : « أرجو أن تصعدى وتلقى نظرة على ابنة أختك

العزيزة — لترى أساليب سموها التى تعلمتها فى منزل والديها العظيمين . لو كان أبو ماهندرا حيا .. » .

فأجابت أنا برنا فى نغمة رقيقة يشوبها الألم « انها زوجة ابنك ، ولك الحق فى أن ترشــديها وتوجهيها أو تعاقبيهــا ، فلماذا تدخليننى فى الموضوع ؟ » .

فصاحت راچلاكشمى : « زوجة ابنى ! لماذا تهتم بى وأنت هنا تقدمين لها النصح والارشاد والعون ؟ » .

فاندفعت أنا برنا وقد أهاجتها هذه الشماتة تصعد السلم وهى تحدث بقدميها صوتا كأنها تنبه ماهندرا وآشا الى اقترابها ، ودون أية مقدمة صاحت فى آشا : « الامَ يجب أن أخفض رأسى من سلوكك المشين ؟ تجلسين هنا بلا عمل دون خجل بينما أم زوجك العجوز تكدح فى أعمال المنزل كما لو كانت عبدة ! لقد كان يوم شؤم عندما أحضرتك الى هــذا المنزل » .

وانفجرت باكية وهى تتكلم . ووقفت أمامها آشا بكماء وقد أحنت رأسها وتساقطت الدموع من عينيها وأخذت أصابعها تعبث بطريقة آلية بطرف ساريها السيب . ويدخل ماهندرا يقول : « لماذا تحملين عليها دون سبب ؟ انما أنا المسئول عن وجودها هنا » .

فقالت أنا برنا : « وماذا أجبرك على ذلك ؟ ان هذه الطفلة المسكينة التى تركتها أمها يتيمة قبل أن تعلمها أى شىء لا تستطيع أن تفرق بين ما هو خير وما هو شر لها . وماذا تستطيع أنت أن تعلمها ؟ » .

— ألا ترين هذا اللوح الاردواز وهذه الكراسة وهذا الكتاب ؟ لقد أحضرت كل ذلك لدروسها ، ولسوف أعمل ما فى وسعى لكى تتعلم سواء أحببت ذلك أم لا ومهما قالت الأقاويل .

واحتجت أنا برنا تقول : « ولكن الدروس لا تحتاج الى اليوم كله ، ان ساعة واحدة فى المساء تكفى » .

— « ليس الأمر بهذه السهولة يا عمتى — التعليم يحتاج الى وقت »—

ثم تركت أنا برنا الحجرة فى اشمئزاز ، وكانت آشا على وشك أن تتبعها عندما أغلق ماهندرا الباب ووقف فى طريقها غير عابىء بتوسلاتها وبعينيها الباكيتين وقال لها : « انتظرى — فيجب أن نعوض الوقت الذى أضعناه فى النوم » .

وحتى لا يتخيل قارىء ساذج أن ماهندرا كان قد أضاع وقته فى النوم فعلا كان لابد من أن نذكر أن مبادىء ماهندرا التربوية وأسلوبه التعليمى كانت شاذة شذوذا يستحيل معه علـى مفتش من مفتشى وزارة التربية والتعليم أن يوافق عليها .

لقد كانت آشا تؤمن بزوجها ايمانا كاملا ، ومع أنها كانت تعلم أنه لن يكون من السهل عليها لأسباب مختلفة أن تتعلم القراءة والكتابة فى سنها ، فقد شعرت أن واجبها يفرض عليها أن تنفذ رغبات زوجها ، ومن ثم فقد بذلت جهدها لتنظم أفكارها القلقة الشاردة ، فكانت تنحنى فوق الكتاب وهى جالسة متحاشمة على أحد أطراف الحصيرة التى فرشت على أرضية الحجرة ورأسها يتحرك حركة منتظمة بطيئة ، وفى نهاية حجرة النوم كان المعلم يجلس الى منضدة وقد انتشرت أمامه الكتب الطبية وهو ينظـر من طرف عينه من حين الى آخر الى تلميذته ، ثم فجأة يقفل كتاب الطب وينادى « تشونى . » وهو اسم الدلال الذى كانت تعرف به آشا ، فترفع التلميذة الواجلة رأسها فيقول لها : « دعينى أرى الى أى حد وصلت ، اعطنى الكتاب من فضلك » .

وتخشى آشا أن يختبر ماهندرا مقدار تقدمها لأنها لم تتقدم اطلاقا

فقد كانت كلما انكبت على الكتاب بدت الكلمات كنمل أسود كثير العدد يزحف ويزحف أمامها فكانت تلتقط الكتاب بعصبية وتذهب اليه وتقف بالقرب من كرسيه ، فيضع ماهندرا ذراعه حول وسطها ويجذبها نحوه ويمسك الكتاب بيده الأخرى ويقول بجدية : « دعيني أرى الآن مقدار ما قرأتيه » فتشير آشا الى السطور القليلة التى استطاعت أن تقرأها فيصيح ماهندرا فى نغمة بها كدر : كل هـذا ! أتحبين أن ترى مقدار ما استطعت أن أقرأه فى هذه الفترة ؟ » ثم يشير الى عنوان فصل فى كتابه الطبى ، فتسأله آشا وقد اتسعت عيناها من الدهشة : « هذا فقط ؟ ماذا كنت تعمل اذن طول هذا الوقت ؟ »

فيجيب ماهندرا وهو يمسك ذقنها بيده : « كنت أفكر فى شخص ما ، ولكن ذلك الشخص كان من قسوة القلب بحيث لم يكن يهتم الا بالكتاب » .

وكان فى استطاعة آشا أن تجيب وهى صادقة بأن الأمر على غير ما يقول لولا أن حياءها جعلها تتقبل هزيمتها فى مسابقة الحب بهدوء : وكان واضحا من هذا المثل أن نظام ماهندرا فى التعليم لا يمكن أن ينجح فى أية مدرسة أخرى ، عامة كانت أم خاصة .

وقد يحدث يوما أن يكون ماهندرا خارج المنزل ، فتجلس آشا ومعها كتابها مصممة على أن تركز انتباهها على دروسها ، وفجأة تنطبق يدان على عينيها من الخلف وتسمع صوتا يغيظها فى أذنها : « يا لعدم المبالاة القاسى ! ألا يمكنك أن تفكرى فىّ عندما تكونين وحيدة بدلا من القراءة ؟ »

— وهل تحب أن أظل أمية ؟ » .

— « وماذا فعلت أنا ؟ هل تقدمت قيد أنملة فى دراساتى منذ أن قدمت الىّ ؟ » .

فتشعر آشا فجأة بالاثم وتسأل وهى على وشك مغادرته : « وكيف وقفت فى سبيل دراساتك ؟ » فيمسكها ماهندرا من يدها ويغيظها بقوله « كيف تستطيعين أن تفهمى ؟ انه لأمر يسير بالنسبة لك أن تفضلى الكتاب علىّ ، ولكن ليس من اليسير على أن أفكر فى أى شىء سواك » .

وتنفجر آشا باكية عند هذا الاتهام — ولكن دموعها كمطر الخريف ، سرعان ما تذوب ويبدو شروق شمس سعادتهما الزوجية أكثر صفاء وبهاء بعد المطر .

وهكذا ظلت آشا — ومدرسها هو مصدر انصرافها عن الدرس — تتسكع فى غياهب التعلم ، وكانت من حين الى آخر تتذكر توبيخ خالتها المرير واتهامها بأن الدروس لم تكن الا عذرا لمتع الحب التى لا تعرف الحياء ، فكانت تحمر خجلا كلما رأت حماتها صدفة . وقد امتنعت حماتها فى اصرار عن أن تكل اليها أى عمل من أعمال المنزل أو توجه اليها كلمة . وقد ذهبت اليها آشا ذات يوم من تلقاء نفسها وحاولت فى استحياء أن تساعدها ولكن حماتها صاحت فى هـلع ساخر ، أوه ! لا . من فضلك لا تضيعى وقتك الثمين هباء . ان عليك أن تدرسى بجد » .

وعادت أنا برنا تؤنب آشا مرة ثانية وهى لا تستطيع أن تضبط نفسها فتقول : « من السهل أن تتبين الى أى حد تعلمت ، ولكن ألا تدعين ماهن المسكين يجوز امتحانه ؟ »

وقد تأثرت آشا تأثرا عميقا وقالت لماهندرا : « ان دراساتك تتأثر بوجودى معك فدعنى أذهب لأقيم فى حجرة خالتى فى الطابق السفلى » وبللت الدموع عينيها وارتجفت شفتاها وهى تعلن عزمها الصارم .

وأجابها ماهندرا : « حسنا ، دعينا تنتقل الى حجرة عمتى اذا فضلت ذلك ، أو يمكنها أن تأتى الى حجرتنا » .

واستاءت آشا من الأثر المازح لعبارتها الجادة المنطوية علـى انكار الذات .

واستطرد ماهندرا يقول : « بل ان الأمر ليكون أكثر فاعلية لو أنك أخذت الأمر على عاتقك وراقبتينى جيدا ليلا ونهارا لترى أننى لا أهمل واجباتى » .

فوافقت آشا على الفور ، وقد تبين جليا فيما بعد كيف أحسنت فى أداء مسئوليتها عندما أعلنت نتائج الامتحان وظهر أن ماهندرا قد فشل فيه : أما تقدم آشا فى دراستها فكان يمكن أن يقاس من هذه الحقيقة : وهى أنها لم تكن تعرف بعد ما هى الصبادج (نوع من السمك) مع أن الكتاب البنغالى الذى كان من المفروض أنها تقرؤه كانت به قصة طويلة عن الأنواع المختلفة لهذه الأسماك .

ولم تكن عملية التثقيف المتبادل تسير مطردة على نحو ما كان يتمنى العاشقان ، فبين الحين والآخـر كان بيهارى يقابل ماهنـدرا صائحا : « ماهندا ! ماهندا ! » ثم يصر على اخراجه من حرمه المقدس ويؤنبه على اهماله دراساته ، كما كان يؤنب آشا قائلا : يا زوجة أخى ، لا فائدة من ابتلاع كمية كبيرة فى وقت واحد ، فذلك يسبب سوء الهضم » .

وكان ماهندرا يقاطعه : « لا تصغى اليه يا تشونى . انه يغار من سعادتنا » .

فيقول بيهارى : حسنا ، اذن لا تثر غيرتى ؛ واستمتع بسعادتك بوقار حتى لا تسبب الحسد » .

فيقول ماهندرا : « ولكن حسد الغير حلو فهو يزيد من استمتاعنا .

هـل تعلمين يا تشونى أننى كنت على وشك أن أتركك تقعين فى يدى بيهارى ؟ كم كنت سأكون غبيا ! » .

فيحمر وجه بيهارى ويهمس « صه » .

ولم تكن مثل هذه الحوادث الا لتثير آشا وتزيد من تحاملها على بيهارى ، أما أنها كانت فى وقت ما على وشك أن تكون مخطوبة لبيهارى فقد جعلها شديدة الشعور بذاتها فى حضوره مستاءة من صحبته ، مما كان يسر ماهندرا ويرضى كبرياءه ، أما بيهارى فقد كان يرى ويفهم ما يحدث .

وأرسلت راچلاكشمى الى بيهارى وأسرت اليه بكروبها فأبدى عطفه عليها وقال : « ان الدويدة لا تكون فى مأمن الا وهى فى فيلجتها فاذا خرجت منها فلا سبيل الى اغرائها على العودة اليها » .

وعندما وصل خبر رسوب ماهندرا فى امتحانه الى أذنى راچلاكشمى استشاطت غضبا وكانت أشـبه بنار اشتعلت فى غابة ، وكانت الفريسة الوحيدة التى أمامها لسوء الحظ أنا برنا التى تحملت حرارة هذه النار كاملة .

٦

كانت السماء ملبدة بالغيوم وقت المساء ، وكانت تباشير أمطار الفصل قد روت الأرض المتعطشة عندما دخل ماهندرا حجرة نومه على أطراف أصابع قدميه وقد أثاره ما كان يتوقعه بعد أن تأنق بأكليل غـزير من الياسمين المجدول حول عنقه ووضع دثارا من الموسلين الرقيق على كتفيه آملا أن يفاجىء آشا ، ولكنه عندما نظر داخل الغرفة وجد الظلام مخيما وكانت النافذة الشرقية مفتوحة على مصراعيها والرياح المحملة بالمطر تهب داخل الحجرة بشدة وقد انطفأ المصباح ، أما آشا فقد كانت ملقاة على

أرض الحجرة وجسمها يهتز من النشيج المكبوت . اندفع ماهندرا اليها وركع الى جوارها وهو يسأل : « ما الخبر يا تشونى ؟ » .

لم يسمع ماهندرا ردا ، وانما ازداد نحيبها شدة ، فأخذ يربت عليها ويداهنها حتى علم أن أنا برنا قد تركت البيت ورحلت الى بيت ابن عمها لأنها لم تعد تستطيع أن تتحمل الاذلال والتحقير . وغضب ماهندرا ، فلماذا لم تختر عمته يوما آخر لتترك فيه المنزل ؟ ولماذا تفسد أول يوم جميل من آيام فصل الأمطار ؟ وانتقل غضبه تدريجا الى أمه فقد كانت وراء كل هذه المتاعب فأعلن يقول : « سوف نذهب أيضا حيث ذهبت عمتى . دعينا نرى ماذا تعمل أمى الآن » .

وبدأ ينادى الخدم ويحزم ما سيأخذه معه فى ضجة وجلبة . وفهمت راجلاكشمى ما كان يحدث فجاءت الى ماهندرا تسأله بلطف : « أين أنت ذاهب ؟ » .

ورفض ماهندرا فى أول الأمر أن يجيب ، وبعد أن كررت السؤال عدة مرات قال : « الى عمتى » .

فقالت راجلاكشمى : « لا عليك من هذه المشقة ، فسأذهب وأحضرها لك هنا بنفسى » .

وأمرت أن تعد لها المحفة فى الحال وذهبت الى حيث انتقلت أنا برنا ورجتها قائلة وهى تمسك بأطراف ساريها عند كتفيها فى راحتيها المطويتين : « أرجو أن تغفرى لى يا أخت زوجى العزيزة .. » .

فانحنت أنا برنا بسرعة وقد تغلب عليها الارتباك ولمست قدمى راجلاكشمى : « لماذا تصرين على أن تخجلينى يا أختاه ؟ سوف أعمل ما تأمرينني به » .

فانفجرت راجلاكشمى تبكى وتذرف دموع الغضب والاذلال

والاشفاق على نفسها وهى تقول : « لأنك تركت البيت ، فقد هدد ابنى وزوجته أن يتبعاك » .

وعادت راچلاكشمى وأنا برنا الى البيت معا وكانت السماء ما زالت تمطر ، وعندما صعدت أنا برنا الى حجرة ماهندرا كانت دموع آشـا قد جفت وكان ماهندرا يبذل جهده لكى يجعلها تبتسم ، وقد وضح من هذا المنظر أن الامكانيات الروماتيكية لمساء ملبد لم تضع هباء بالمرة . فاتجهت أنا برنا الى آشا وقالت فى لهجة صارمة : « تشونى . لقد جعلت حياتى جحيما ، فلا أنا أستطيع أن أمكث هنا فى سلام ولا أنا أستطيع أن أرحل من هنا الى مكان آخر » . ودهشت آشا وظلت تحملق فى خالتها كغزال مطعون .

فسألها ماهندرا بمرارة : « لماذا يا عمتى ؟ ماذا فعلته تشونى ؟ » .

فأجابت أنا برنا : « لقد تركت المنزل لأننى لم أستطع أن أتحمل رؤية غبطتها المزرية ، والآن فانها تجعل حماتها تأتى باكية لتجرنى الى هنـا ثانية . أيتها المرأة الوقحة التى لا حياء فيها ! » .

وأخذ ماهندرا يفكر . ان هؤلاء العمات والأمهات مبعث مضايقة للأيام الحلوة فى الحياة .

وفى اليوم التالى أرسلت راچلاكشمى الى بيهارى وقالت له : « بيهارى يا بنى ! أرجوك أن تقنع ماهن بأن يتركنى أرحل الى بيتى الريفى لأمضى فيه بضعة أيام ، اننى لم أذهب اليه منذ سنوات » .

فأجابها بيهارى : « ما دمت قد استغنيت عن بيتك الريفى طوال هذه السنوات العديدة فأنت تستطيعين أن تظلى تستغنين عنه ، ومع ذلك فسوف أتحدث الى ماهن فى هذا الموضوع ولو أننى أشك كثيرا فى أنه سيوافق على أن يتركك تذهبين » .

ولكن ماهندرا سرعان ما وافق وقال : « انه لأمر طبيعى أن تحب أن تزور قريتها التى ولدت فيها ولكن يحسن ألا تمكث هناك طويلا ، فالمكان غير صحى أثناء الأمطار » .

وتبرم بيهارى من هذه الموافقة السريعة وقال : « كيف تستطيع أن تذهب بمفردها ؟ من سيعنى بها هنـاك ؟ » ثم أضاف وهو يبتسم : « لم لا تدع زوجة أخى (آشا) تذهب معها ؟ » .

وهكذا أصاب التأنيب هدفه فرد ماهندرا يقول : « أو تظننى غير قادر على أن أفعل ذلك ؟ » ولكن المناقشة لم تتقدم خطوة واحدة ، بل ان آشا تبرمت بهذا الفضول وزاد استياؤها من بيهارى . وأحس بيهارى بذلك وبدا وكأنه يثيرها عمدا كما لو كان يجنى من ذلك تسلية خفية .

ولا حاجة الى القول أن راچلاكشمى لم تكن شغوفة بزيارة القرية ، ولكن كما يغمس النوتى عصا المقياس فى الماء يتحسس بها عمقه عندما يصبح النهر ضحلا فى الصيف فكذلك راچلاكشمى كانت دائما تبتكر اختبارات جديدة لتتحسس بها الى أى حد ما زال ابنها يهتم بها ، فهى لم تكن تتوقع أن يوافق ماهندرا على اقتراحها بزيارة باراشات بمثل هذه السرعة والرغبة وقالت لنفسها متألمة وقد خاب أملها : « عنـدما تغادر أنا برنا المنزل يحدث كثير من الاضطراب والقلق ، أما اذا غـادرته أنا فلا يكاد يقام لذلك وزن ؛ هذا هو الفرق بين الساحرة ومجرد الأم ، لقد حان الوقت لكى أرحل » .

وأدركت أنا برنا أن الموقف دقيق فقالت لماهندرا « اذا ذهبت والدتك فأنا لن أستطيع أن أمكث هنا » فاتجه ماهندرا الى والدته وقال لها : « هل

سمعت يا أماه ؟ اذا ذهبت فان عمتى ستذهب كذلك ، ومن سيعنى بنا اذن ؟ » .

وضبطت راچلاكشمى غضبها وحقدها المتزايد والتفتت الى أنا برنا وقالت : « أرجـوك ألا تتركى البيت ، فكيف يمكن أن تدار شـئونه بدونك ؟ يجب أن تمكثى هنا » .

وكانت هذه آخر قشة قصمت ظهر البعير . فاستعدت راچلاكشمى للرحيل فى اليوم التالى ، وتوقع كل فرد أن ماهندرا نفسه سوف يرافقها الى القرية ؛ ولكن عندما حان وقت الرحيل اتضح أن ماهندرا قد أناب رئيس الخدم وأحد البوابين ليرافقاها .

وسأله بيهارى : « ماهندرا ، ألست ذاهبا معها ؟ » فارتبك ماهندرا وقال « أنا .. ولكن الكلية .. » فقاطعه بيهارى « حسنا ، لا تبالى ، سأذهب أنا وأصحب والدتك » .

وقد تبرم ماهندرا وقال لآشا فيما بعد : ان بيهارى يحاول أن يظهر أن اهتمامه بأمى أكثر من اهتمامى بها .. لقد أصبح غير محتمل » .

واضطرت أنا برنا أن تمكث فى المنزل ولكنها لم تخف شعورها بالخجل والاذلال والاشمئزاز ، وأوغر ابتعادها المتسم بالاحتقار صدر ماهندرا بقدر ما آلم آشا .

٧

كان على بيهارى أن يصحب راچلاكشمى الى بيتها فى القرية ثم يعود فى الحال الى كلكتا ، ولكنهما عندما وصلا الى القرية وشاهدا الأحوال فيها ؛ لم يستطع أن يترك راچلاكشمى وحدها هناك . فقد كانت تعيش فى بيت راچلاكشمى القديم أرملتان عجوزتان عاجزتان ؛ وكانت البركة

الراكدة مغطاة بمادة غروية سميكة خضراء وكان صياح بنات آوى يسمع ليلا ونهارا .. لقد كان منظرا مقبضا للنفس .

قال بيهارى : « ليس موطن كل انسان جنة على الأرض ، ولا شك أن هذا المكان ليس كذلك ، دعينا نعود الى كلكتا فلا يمكن أن أتركك هنا فى هذا التيه . انى لأكون مجرما لو فعلت ذلك » .

وقد شعرت راچلاكشمى هى الأخرى بالانقباض والاختناق وقد كان من الجائز أن ترضخ لحجج بيهارى لو لم تظهر بنودينى فى الوقت المناسب .

لقد سبق أن قدمنا بنودينى للقارىء ، ففى وقت من الأوقات كانت قد اقترحت لتكون عروسا لماهندرا فلما فشل ذلك اقترحت لتكون عروسا لبيهارى ؛ ثم أخيرا تزوجت سيدا فى هذه القرية كان حقه الوحيد فى التميز على غيره كبد متضخم تضخما شديدا . وسرعان ما مات بعد الزواج واستمرت الأرملة تعيش فى القرية بعد موت زوجها كما يعيش نبات متسلق وحيد وسط الغابة ، جلال يستثير العطف فى تيه من الكآبة ، وقد رحبت الأرملة اليتيمة بصديقة أمها العجوز التى جاءت الآن الى القرية ترحيبا حارا واهتمت بها اهتماما اتسم باخلاص نادر .

وقد سرت راچلاكشمى برؤيتها وتأثرت تأثرا عميقا .. يا لها من فتاة ! كل شىء كانت تقوم به كان عظيما وممتازا ؛ طهوها وأسلوبها وحديثها ، اخلاصها لا يمل ولا يكل ؛ تشغل نفسها بأداء سلسلة من الواجبات فرضتها على نفسها طائعة مختارة . وكانت راچلاكشمى ترجوها قائلة : « تعالى الآن أيتها الأم الصغيرة وكلى شيئا » . لكن .. لا .. انها لن تمس الطعام الا بعد أن تكون قد أطعمت راچلاكشمى وروحت لها حتى تنام ، فتحتج راچلاكشمى قائلة : « ولكنك سوف تقعين من الاعياء اذا سرت على هذا المنوال يا عزيزتى » فتضحك بنودينى وتقول : « لقد حصنت الشدة والألم

جسمى من المرض يا أماه ، ان أسفى الوحيد هو أنه لا يوجد عنـدى ما أقدمه لك الا القليل التافه » .

أما بيهارى فسرعان ما أصبح أهم انسان فى القرية ، يحج اليه الزوار دون انقطاع : المرضى يطلبون الدواء ، والمتنازعون المشورة القانونية ، والآباء يطلبون أعمـالا فى كلكتا لأبنائهم والأميون كتابة « عرائض » للمسئولين نيابة عنهم . ولم يكن بيهارى متعدد المزايا فحسب وانما كان اجتماعيا طيب السجايا كريم النفس ، فاختلط بحرية مع الجميع ، مع المسنين فى لعب الورق ، ومع الطبقات الدنيا فى الشراب والهزل ، وشعر كل فرد بالاطمئنان اليه ، ومع ذلك فقد كان الجميع يجلونه ويحترمونه .

وشعرت بنودينى بالأسف لهذا الشاب الذى جاء من كلكتا ليقع فى مصيدة المنفى ، وبذلت جهدها لكى تخفف عنه وهى بعيدة عن الأنظار تحتجز نفسها فى مكان قصى ، فكان كلما عاد من طوافه بالقرية دهش اذ يجد حجرته مرتبة وكل شىء فيها منسقا منظما والزهور وأوراق الشجر الغضة فى أصيص نحاسى وبعض كتب بانكر ودينابانده‌هو قد وضعت الى جوار سريره ، وفى الصفحة الأولى البيضاء من كل كتاب كلمة « بنودينى » خطتها يد ناضجة ولكنها يد أنثى .

حقا لقد كان هذا كله أكثر مما يتوقع الانسان من كرم الضيافة فى القرية ، وعندما ذكر بيهارى ذلك لراجلاكشمى أجابت : « انها تعس الفتاة التى لفظتماها كلاكما » .

فضحك بيهارى وقال : « أعترف أننى كنت مخطئا ، ومع ذلك فمن الأفضل أن أخسر بسبب عدم الزواج من أن أخسر بزواج غير مناسب » .

ولم تستطع راجلاكشمى أن تتغلب على أسفها وكانت تقول لنفسها « آه لو أن بنودينى كانت زوجة ابنى ! ويلاه ! لمَ لم يتحقق ذلك ؟ »

وكانت كلما ذكرت موضـــوع عودتها الى كلكتا امتلأت عينا بنودينى بالدموع وهى تقول : « ولماذا جئت يا عمتاه اذا كنت تنوين العودة ؟ لقد كانت حياتى خاوية قبل أن تدخليها ، فكيف أعيش الآن من غيرك ؟ » فكانت تتأثر راچلاكشمى وتصيح : « لماذا لم أتخـــذك زوجة لابنى ؟ كم كنت رعيتك واحتفظت بك دائما قريبة من قلبى » فكانت حمرة الخجل تطغى على بنودينى فتخترع عذرا ما وتخرج من الحجرة .

أخذت راچلاكشمى تنتظر بشوق خطابا يأتيها من كلكتا يرجوها العودة فلم يسبق أن عاش ماهن دونها فترة طويلة قبل الآن ، ولابد أنه يفتقدها ويتحرق شوقا الى عودتها ، ولابد كذلك أن يكون خطابه حافلا بالتأنيب الردىء . نعم لقد كان قلبها يصبو الى ورود مثل هذا الخطاب .

ولكن أخيرا جاء بيهارى خطاب كتب فيه ماهندرا : أرجو أن تكون والدتى مستمتعة باقامتها هناك .

فقالت راچلاكشمى : « يا للولد المسكين ! ان من الواضـــح أنه يفتقدنى ، وقد دفعه الى كتابة ما كتب كبرياؤه المجروحة . تستمتع باقامتها حقا ! وهل تستطيع أم أن تستمتع باقامتها وهى بعيدة عن ابنها ؟ » ثم التفتت الى بيهارى وسألته : « وماذا كتب ماهن غير ذلك ؟ دعنى أسمع من فضلك » .

فأجاب بيهارى وهو يغضن الخطاب فى يده : لا شىء أكثر من ذلك ، ثم وضع الخطاب فى كتاب ورمى بالكتاب داخل حجرته ، وقد أثار هذا العمل حب استطلاع راچلاكشمى وتأكدت أن بيهارى لم يكن راغبا فى أن يقرأ الخطاب عليها حتى لا تتألم من سماع ما يعانيه ماهندرا من بلاء وما فيه من تأنيب موجه اليها ، وكلما تصورت شدة هذا التأنيب ذاب قلبها رقة كالبقرة تزيد ما تعطيه لعجلها الجائع من لبن وحنان كلما جذب

حلمة ثديها بشدة وألم . لقد غفرت الآن لماهندرا غفرانا تاما وقالت : « فليسعد مع زوجته ، وليعمل ما يشاء ، المهم أن يكون سعيدا ولن أقف فى طريقه مرة أخرى ، يا للولد المسكين ! لقد أوذى لأن أمه تركته فلا عجب أنه غاضب » واستمرت تبكى وتمسح عينيها وفى نفس الوقت تلح على بيهارى أن يستحم « اذهب واستحم يا بيهارى ، لقد غدوت مهملا هذه الأيام » ولم يكن بيهارى فى مزاج يسمح له بالاستحمام .

قال لها : دعينى أبقى رثا يا والدتى ، فالمتشردون أمثالى يحسن حالهم عندما يهمل أمرهم .

وتقـول راچلاكشمى فى اصرار « لا يا بنى ، أرجـوك أن تذهب وتستعد » .

وأخيرا اضطر بيهارى أن ينهض ، وفى اللحظة التى خرج فيها أسرعت راچلاكشمى الى الحجرة وخرجت بالخطاب المغضن فى يدها ثم أعطته لبنودينى وقالت لهـا : « أرجو أن تقـرئى لى ما كتبه ماهن لبيهـارى يا عزيزتى » .

وبدأت بنودينى تقرأ بصوت مرتفع . لقد أشار ماهندرا فى بداية خطابه الى أمه ولكن كان كل ما كتبه عنها مجرد اشارة عابرة لا تتعدى ما قرأه بيهارى ؛ أما بقية الخطاب فقد كانت عن آشا وآشا وحدها ، كتبها ماهندرا كعاشق مجنون . وما أن قرأت بنودينى بعض السطور القليلة حتى احمرت خجلا وتوقفت عن القراءة ثم قالت : « لا داعى للقراءة أكثر من ذلك يا عمتى » .

وتصلب وجه راچلاكشمى كقطعة من الصخر ؛ ذلك الوجه الذى كان منذ لحظة يشع رقة ، وجلست تحملق فى صمت برهة ثم قالت : « كفى ! » ثم نهضت دون أن تأخذ الخطاب وخرجت .

وأخذت بنودينى الخطاب ودخلت حجرتها ثم أغلقت الباب بالمفتاح ورقدت على سريرها تقرؤه ، أما الاثارة التى استمدتها من قراءته فلا يعرف مداها سواها ؛ ولكنها لم تكن اثارة ناجمة عن حب الاستطلاع ؛ لقد قرأت الخطاب ثم قرأته مرة بعد المرة ، فلمعت عيناها وهى تقرأ كما تلمع الرمال فى شمس منتصف النهار ، وكان لتنفسها فحيح كالرمال الساخنة فى الصحراء . أى شخص هو ماهندرا هذا يا ترى ؟ وما شكل آشـا ؟ وما طبيعة حبهما ونوعه ؟ لقد أخذت هذه الأسئلة تدور فى عقلها فتلهب خيالها . لقد رقدت فى سريرها وقتا طويلا ورأسها مسند الى الحائط والخطاب فى حجرها وعيناها تحملقان فى لا شىء .

وفى عصر نفس اليوم وصلت أنا برنا فجأة فسقط قلب راچلاكشمى عند رؤية أخت زوجها تظهر فجأة خشية أن تكون هناك أخبار سيئة عن ابنها . ولم تجرؤ على أن تسألها أى سؤال ، وانما حملقت فيها فى صمت وقد شحب لونها من الرعب غير أن أنا برنا تطوعت بالحديث فقالت : « كل شىء على ما يرام فى كلكتا يا أختاه » .

فسألتها راچلاكشمى : « ولماذا أنت هنا اذن ؟ » .

فقالت أنا برنا : « أرجوك يا أختاه أن تعودى الى منزلك ؛ اننى لم أعد قادرة على أن أقوم بالواجبات الدنيوية ؛ لقد عزمت أن أعتزل العالم فى كاشى (*) وأن أمضى أيامى الباقية فى التعبد ، بل أنا الآن فى طريقى اليها بالفعل ؛ وانما جئت هنا ألتمس منك البركة وأرجو منك أن تغفرى لى أى خطأ أكون قد ارتكبته عن معرفة أو عن جهل .. » وسبحت الدموع فى عينيها وسقطت دمعة أثر دمعة وهى تتابع كلامها : « أما بالنسبة لزوجة

(*) الاسم القديم لبنارس ، مدينة الهندوس المقدسة .

ابنك فهى ما زالت طفلة — يتيمة لا أم لها ، ومهما كان قصورها فهى تنتمى اليك الآن » وانحبس صوتها ولم تستطع أن تتكلم أكثر من ذلك .

ولم تدر راچلاكشمى ماذا تفعل فقامت تشغل نفسها وتعد لها حمامها وطعامها ، وعاد بيهارى من القرية مسرعا عندما وصل الخبر اليه ، وقال وهو يلمس قدمى أنا برنا « كيف تتركيننا هكذا يا عمتى ؟ » .

فابتلعت أنا برنا دموعها وقالت : « بيهارى يا عزيزى ، أرجوك ألا تحاول منعى . فليكتب الله لكم جميعا السعادة ! ان رحيلى لن يقدم أو يؤخر » .

وصمت بيهارى ثم قال بعد برهة وجيزة : « ما أتعس ماهندرا أن يتركك تذهبين على هذا النحو » .

فقالت أنا برنا برجفة « أرجوك ألا تقول مثل هذا القول . أنا لا أحمل أى ضغينة لماهن ، بل أشعر أن رحيلى ضرورى لسعادتهما وسلامهما العائلى » .

ولم يقل بيهارى شيئا واستمر جالسا وفى عينيه نظرة سارحة ، وفكت أنا برنا عقدة فى طرف ساريها السيب وأخرجت زوجا من الخلاخيل من ذهب سميك .

وقالت : « احتفظ بهما يا بنى ، وعندما تأتى العروس البسهما لها مع بركاتى » .

أخذ بيهارى زوج الخلاخيل فى يديه ثم رفعهما الى جبهته وأسرع الى حجرة مجاورة وهو يحتجز دموعه .

وعند رحيلها قالت لبيهارى : « أرجو أن تهتم بماهن وآشا » ثم التفتت الى راچلاكشمى ووضعت ورقة فى يدها وقالت : « لقد حولت

بهذه الوثيقة نصيبى فى أملاك الأسرة باسم ماهن وكل ما عليه أن يعمله هو أن يرسل لى خمس عشرة روبية كل شهر » .

ثم انحنت الى الأرض ومست قدمى راچلاكشمى وانطلقت فى طريقها الى حجها المقدس .

٨

تملك آشا خوف لم تعرف كنهه ؛ فقد تركت حماتها وخالتها البيت ، الواحدة اثر الأخرى ، فالى أين يا ترى سوف يؤدى هذا كله ؟ لقد كانت سعادتهما الزوجية تطرد الآخرين من البيت فهل يا ترى سيأتى دورها ؟ وبدا لها أن من دواعى الكآبة وسوء الطالع أن تكون لقصة حياتهما الزوجية هذا الوضع الموحش ، وضع بيت خاو هجره أصحابه .

ان الحب اذا بتر عن حقائق الحياة القاسية كان أشبه بزهرة قطفت وتركت فى عزلة جميلة لا تستطيع عصارتها المحدودة أن تتحملها طويلا ؛ فتذبل تويجاتها وتتساقط ، وسرعان ما بدأت آشا تشعر بملل المغازلة الذى لا نهاية له ، وبدا لها عناق الحب وكأنه يذبل وينفك ، فان عناق الحب ان لم تكن هناك مثيرات تسببها هزات كفاح الحياة المختلفة كان فى حاجة الى دعامات صناعية تسنده ، وهى دعامات تتناقص كفايتها باستمرار . فاذا فشل الحب فى أن ينبت فى عالمنا المألوف وأن يمد جذوره فيه فانه لن يستكمل نموه أو تثبت متعه .

لقد حاول ماهندرا فى تحد واضح للأسرة وللتقاليد أن يستمتع الى النهاية بمتعة الحب الزوجى لا يبالى اذا أحرق كل الشموع بنفخة واحدة من العظمة وملأ فراغ البيت المنحوس بسحر المتعة المتهورة ؛ وكان يؤنب

آشا قائلا : « ماذا دهاك يا تشونى .. ؟ لماذا تظلين خاملة ووجهك مكفهر لأن خالتك قد رحلت ؟ ألا يكفى حبنا ليملأ حياتك ؟ » .

وكانت آشا المسكينة تتألم وتتساءل اذا كان فى حبها ما ينتقص منه بالفعل وتقول : « هذا لأننى لا أستطيع أن أنسى خالتى ، وأخشى أن تكون حماتى هى الأخرى قد ذهبت .. » وحاولت بكل قلبها أن تنسى كل شىء آخر وأن ترتفع الى ما كانت تعتقد أنه مطلوب من حبها .

لقد أصبح البيت الآن فى حالة من الفوضى والارتباك ، فأهمل الخدم وتكاسلوا فى أداء واجباتهم ، وانقطعت الخادمة عن الحضور وأرسلت تقول : انها منحرفة المزاج واعتاد الطباخ الشراب ولم يعد أحد يعرف أين هو . وضحك ماهندرا وقال : « يا له من هزل ! دعينا نطهو طعامنا اليوم » .

وأرسل فى طلب العربة واتجه بها الى السوق الجديدة ليشترى ما يحتاج اليه البيت . ولما كان لا يعرف ما هو المطلوب ولا الكمية المطلوبة فقد اشترى كمية ضخمة عاد بها الى البيت مزهوا ، ولم تكن آشا هى الأخرى حاذقة فى شئون البيت فلم تعرف ماذا تفعل بكل ما اشتراه ، وأخيرا وفى وقت متأخر فى عصر ذلك اليوم كان قد أعد نوع ما من الغداء ، وقد استمتع ماهندرا كثيرا بأكل طعام لم يأكله فى حياته من قبل بل لعله لم يكن من اليسير أكله . أما آشا فلم تستطع أن تشاطره استمتاعه واحمرت خجلا وارتباكا وهى تدرك متألمة مقدار تفاهتها .

كانت حجرات المنزل جميعها فى فوضى ، وكان من العسير أن تجد أى شىء اذا احتاجت اليه ، ووجدت أدوات ماهندرا الطبية التى كانت على المنضدة طريقها الى المطبخ حيث استخدمت فى قطع الخضر ثم أخيرا اختفت ولم يعرف أحد مكانها ، كما استخدمت كراسة محاضراته الطبية مروحة

يد لتزيد النار فى المطبخ اشتعالا وتحولت تدريجا الى رماد . وكانت هذه الحوادث المؤلمة مصدر تسلية لا حد لها لماهندرا ، أما آشا فقد أخذ شعورها باليأس يزداد تدريجا ، وبدا للفتاة المسكينة أن الطفو المرح فوق الحطام الخليعة لأسرتهما انما هو نكتة فاسدة مؤلمة ليس فيها ما يدعو الى الاستمتاع .

وفى احدى الأمسيات كان العاشقان يضطجعان فى فراشهما الذى كان قد وضع فى فراندا مغطاة تطل على شرفة السطح ، وكان المطر قد توقف وغمر ضوء القمر قمم قصور كلكتا الى أبعد ما يمكن أن ترى العين . وكانت آشا تعمل اكليلا من زهور الباكول التى قطفتها من الحديقة وما زالت مبتلة من المطر ، وماهندرا يجذبها بشدة محاولا اغاظتها واثارتها ببعض الخدع الصغيرة المتسمة بروح المغازلة ، وقد احتجت آشا وبدأت تؤنبه عندما وضع ذراعه فجأة حولها ويده على فمها . وفى هذه اللحظة بدأ الكويل (*) المدلل من البيت المجاور ينادى ، فاتجهت عيونهما آليا الى أعلى حيث تعود طائرهما أن يهتز فى قفص يتدلى من السقف ، فقد كان كلما نادى الكويل من بيت الجار أجابه طائرهما ولكنه اليوم كان صامتا . فسألت آشا بقلق « ماذا دها الطائر اليوم ؟ » وأجابها ماهندرا مداعبا « لقد أخجل صوتك صوته فأسكته » .

وعادت آشا تتوسل : « أرجوك ، فليس الموضوع موضوع هزل . قم وانظر ماذا حدث له » .

ونهض ماهندرا وفك القفص وأنزله ، لقد مات الطائر من الجوع ، فقد قام من كان يعنى به باجازة بعد رحيل أنا برنا ولم يهتم أحد آخر باطعامه .

(*) طائر (ضرب من الوقوق) .

وشحب وجه آشا عند هذا المنظر وارتجفت أصابعها وبقى الاكليل كما هو دون أن تكمله وبقيت الزهور كما هى فى كومة . وحزن ماهندرا حزنا عميقا ؛ ولكنه خشى أن يفسد جمال ذلك المساء ومن ثم فقد حاول أن يبـدو منشرحا فقال لآشا : « ان ذلك أفضل ؛ فان الطائر المسكين كان سيستمر يضجرك بنواحه فى غيابى » . ثم وضع ذراعه حولها وحاول أن يضمها اليه ؛ ولكنها تخلصت من عناقه فى هدوء ورمت بالزهور جانبا وقالت : « أرجوك ! كفى هذا ؛ يا للخجل ! أستحلفك بالله أن تذهب الآن وتحضر أمك » .

٩

وفى تلك اللحظة تماما نادى شخص ما من الطابق السفلى : « ماهندا . ماهندا » .

فصاح ماهندرا مجيبا « تعال ؛ اصعد » . لقد جاء صوت بيهارى نعمة أرسلت لماهندرا فى تلك اللحظة الحرجة . لقد كان بيهارى من قبل حائلا أمام نشوة شهر عسلهما أما الآن فقد بدا فجأة كأنه توفيق من عند الله ، بل ان آشا نفسها شعرت بالراحة لتطفله ؛ وعندما نهضت وهى ترفع طرف ساريها فوق رأسها قال ماهندرا : « أين أنت ذاهبة ؟ انه بيهارى » فأجابت آشا « دعنى أذهب وأحضر بعض المرطبات لتاكوربو » (*) وشعرت بالراحة وهى تقوم بعمل شىء ما ، وقل اكتئابها وتلكأت ورأسها محجب على أمل أن تسمع أخبارا عن حماتها ، فلم تكن قد تغلبت بعد على حيائها أمام بيهارى ولم تكن قد اعتادت أن تتحدث اليه مباشرة .

(*) كلمة تستخدم فى التعبير عن أخ الزوج الأصغر .

وعندما دخل بيهارى صاح فى دهشة تتسم بالسخرية « يا للسماء ! هل تطفلت على منظر خيالى ؟ لا تخافى يا امرأة أخى ؛ أرجوك أن تجلسى فسوف أرحل بعد دقيقة » .

ونظرت آشا الى ماهندرا الذى استفسر قائلا : « ما أخبار والدتى يا بيهارى ؟ » .

فقال بيهارى : « ولمَ هذا الاهتمام بشىء عجوز خامل كولدتك ؟ هناك متسع من الوقت للكلام عنها » ، ثم أضاف بالانجليزية « لم تخلق مثل هذه الليلة للنوم ؛ ولا للأمهات أو الخالات » . ثم تظاهر بالتراجع .

وعندما أمسك به ماهندرا وأجلسه التفت الى آشا وقال « أرجو أن تلاحظى يا زوجة أخى أنه يضطرنى الى البقاء ؛ فلا تلعنينى لخطيئة هو مقترفها » .

لقد استثيرت آشا ولكنها لم تستطع أن ترد ردا شافيا ؛ فقد أدركت أن بيهارى كان يسخر منها عامدا .

واستمر بيهارى يقول : « من السهل أن يرى الانسان حسن ادارة شئون البيت ، ومع ذلك ألم يحن الوقت لعودة والدتك ؟ » .

فأجاب ماهندرا : « حقا يجب أن تعود ، ونحن دائما فى انتظارها » .

فقال بيهارى : « لو أنك جعلتها تعرف ذلك ، ولن يستغرق الأمر منك أكثر من دقيقتين تكتب لها فيهما سطرا ؛ فسوف تسر سرورا عظيما ؛ فهل تستغنين يا امرأة أخى عن ماهندرا دقيقتين يكتب فيهما هذا السطر ؟ » .

وتركت آشا الفراندة وقد تأثرت تأثرا عميقا وتساقطت الدموع على خديها وقال ماهندرا « كم كانت ميمونة تلك اللحظة التى رأى فيها كل منكما الآخر لأول مرة ! دائما يسخر كل منكما من الآخر ودائما تتنازعان وليست هناك مودة بينكما اطلاقا » .

فأجاب بيهارى : « لم تأل أمك جهدا فى افسادك ، والآن تأخذ زوجتك عنها وظيفتها . وأنا أسلك تجاهها هذا السلوك كلما سنحت الفرصة لأنى أجد الأمر غير محتمل » .

فسأله ماهندرا : « وما النتيجة ؟ » .

— « لا شىء بالنسبة اليك ، أما بالنسبة الى فهى مرة نوعا ما » .

ومكث بيهارى حتى كتب ماهندرا الخطاب ثم أخذه بنفسه وغادر المنزل فى اليوم التالى ليحضر راچلاكشمى ، وقد فهمت راچلاكشمى تماما أن الخطاب قد كتب بناء على رغبة بيهارى ، ومع ذلك فهى لم تعد تستطيع أن تمكث بعيدا عن البيت . وجاءت بنودينى معها .

وعدما رأت راچلاكشمى الى أى حد وصلت الفوضى والقذارة فى بيتها ازداد تحاملها على آشا ، ولكن .. كم تغيرت زوجة ابنها ! لقد أصبحت الآن تتبعها كظلها متلهفة دائما على مساعدتها حتى ولو لم تسألها المساعدة بل وبالرغم من تقريعها أحيانا حين كانت تقول لها : « أرجوك أن تتركى الطعام ، فانك لن تجعلى منه الا عصيدة ، لماذا تحشرين اصبعك فيما لا تفهمينه ؟ » .

وقد عزت راچلاكشمى ما أصاب آشا من تحسن الى رحيل أنا برنا ، ولكنها كانت تخشى أن يتصور ماهندرا أنه كان سعيدا مع عروسه فى أثناء وجود أنا برنا وأن عودتها هى قد أفسدت عليه كل شىء ، وقد يتخذ من ذلك دليلا على أن أنا برنا كانت تود له الخير فى حين كانت أمه عقبة فى سبيل سعادته ، ولن يؤدى هذا الا الى زيادة الأمر سوءا ، ومن ثم ففى الوقت الذى كانت فيه شحيحة فى تشجيعها لآشا فى حماسها الجديد كانت تحس بالسعادة فى قرارة نفسها وتطريها .

فاذا أرسل ماهندرا يستدعى آشا فى أثناء النهار ترددت آشا فى

الذهاب اليه حتى تكاد راچلاكشمى تنهرها نهرا قبل أن تستجيب اليه « ألا تسمعين أن ماهن يناديك ؟ كيف تجرؤين على تجاهله ؟ ان هـذا نتيجة كثرة التدليل والتسامح . اذهبى اليه فى الحال ولا تهتمى بتقطيع الخضر » .

ومرة أخرى نفس القصة الهزلية المعروفة — قصة لوح الاردواز وقلم الرصاص والكتاب — ومظاهر الحب ، ومحاولة ايجاد أخطاء ، والكبرياء المجروحة ، والتنازع الذى لا نهاية له عن أيهما حبه أكثر كمالا ، ثم تحول اليوم المطير الى ليل ، والليل الذى يضيئه القمر الى نهار . وتأجيل سأم الحب ومله ، والتغذية الجبرية لتوهمها أن أحدهما لا يستطيع أن يستغنى عن الآخر ولو دقيقة واحدة ، رغم أن وجود الآخر قد توقف من زمن طويل عن الالهام ، ولعنـة الحب الأبدية التى تجعل من المعانقات أسرا وعبودية .

١٠

صعدت بنودينى يوما الى آشا ووضعت ذراعيها حـولها وقالت : « فلتستمر سعادتك الى الأبد يا عزيزتى .. ولكن لماذا تتجاهلين هـذا المخلوق التعس ؟ » .

ولما كانت آشا قد رباها أقاربها على أنها يتيمة يجب ألا تحس بأن لها حقوقا فقد نمت عندها عقدة كانت تجعلها خجولة أمام الغرباء دون مبرر وعلى حذر مستمر من أن تصدر عنها هفوة . فلما رأت بنودينى لأول مرة وقفت مشدوهة أمام جمالها ورشاقتها وذكاء عينيها الخارق حتى لقد أعوزتها الشجاعة فى توثيق صلاتها بها . وازداد اعجابها بها عنـدما لاحظت حرية أسلوبها وسهولته فى معاملتها لراچلاكشمى ، وكيف كانت

راچلاكشمى هى الأخرى تعظم من شأنها ، بل ان راچلاكشمى لم تكن لتترك فرصة تمر دون أن تؤكد لآشا كم كانت بنودينى مدهشة وكم كانت أفضل منها ، كما استطاعت آشا كذلك أن ترى بنفسها مهارة بنودينى وكفايتها فى كل صغيرة وكبيرة فى ادارة شئون المنزل وكيف كانت تمارس السلطة فى سهولة ويسر وبطريقة طبيعية ، وكيف كانت تسيطر على الخدم وتجعلهم يقومون بواجباتهم وتستحث هممهم عند الضرورة ، فكانت كلما ازدادت ملاحظتها لبنودينى شعرت بأنها أقل منها كفاية ، ومن ثم استمرت بعيدة عنهـــا .

فلما تقدم هذا الأنموذج من نماذج الجمال والفضيلة بنفسه يخطب ودها طغى الفرح على آشا الصغيرة الساذجة واستجابت بكل قلبها حتى ضربت صداقتهما جذورها كشجرة الساحر ونبتت وازدهرت ، كل ذلك فى يوم واحد .

قالت آشا : « دعى كلا منا تنادى الأخرى باسم تدليل خاص » .

فسألتها بنودينى : « وماذا تقترحين ؟ » .

وسردت آشا عدة أسماء لأشـــياء جميلة من مياه الجانجز الى زهرة الباكول .

ولكن بنودينى علقت قائلة : « انها أسماء بالية ومبتذلة . وان أسماء الحب لم تعد تشير الى الحب » .

فسألتها آشا : « وماذا تفضلين اذن ؟ » .

فضحكت بنودينى وقالت : « رمداء العين » .

فصاحت آشـــا وهى تطوق عنق بنودينى بذراعيها وتنفجر ضاحكة « حسنا يا رمداء العين » . لقد كانت تفضل اسما له وقع جميل ولكنها كانت قد افتتنت ببنودينى حتى أصبح التهكم بالحب له وقع جميل عندها .

كانت آشا فى حاجة شديدة الى صديقة ؛ فان أفراح الحب لن تكمل الا اذا كان للمحبين أصدقاء يغذونهم بالاثارات التعويضية . وهكذا أصغت بنودينى المتعطشة الى خبرات العروس الصغيرة عن حبها الأول بشراهة السكير المتعطش الى النبيذ النارى ، ودارت رأسها بخفقان الدم الدفىء الملتهب .

وفى عصر أحد أيام الصيف الساكن عندما كانت الحماة تأخذ قيلولتها ، وانسحب الخدم والوصيفات للراحة ، واضطر ماهندرا تحت تأثير الحاح بيهارى وتعنيفه الى الذهاب الى الكلية ، وكانت تسمع من حين الى آخر صيحة الحدأة من زرقة السماء البعيدة ، جلست بنودينى وآشا فى حجرة النوم المنعزلة : آشا مضطجعة بشعرها المتهدل يغطى الوسادة ؛ وبنودينى راقدة بجوارها متجهة بوجهها الى أسفل وصدرها يضغط على الوسادة التى تحتها ؛ تصغى كمن أسكرتها اعترافات رفيقتها الهامسة ؛ وكانت وهى تستمع تحمر أذناها الى أطرافهما ويثقل تنفسها ويسرع ، وكانت كثيرة السؤال تحاول أن تستخرج من رفيقتها الدقائق الصغيرة وتصغى الى نفس الوصف مرارا وتكرارا بل وتتخيل مناظر تفترضها ثم تروح تسأل : « ماذا كنت تعملين أنت أو هو فى مثل هذا أو ذاك الموقف ؟ » وهكذا تتمهل وتطيل الاعترافات الحلوة بما ترسمه لنفسها من مناظر خيالية ومناظر لا يتصورها الخيال .

قالت بنودينى : « افرضى يا عزيزتى رمداء العين أنك كنت قد تزوجت بيهارى » .

فترجوها آشا قائلة : « لا يا عزيزتى ، أرجوك ألا تتحدثى عن شىء مثل هذا اطلاقا ، فان مجرد الفكرة تجعلنى أشعر بالخزى — ولكن ..

كم كان يكون لطيفا لو أنك تزوجتيه ! الواقع أنه كان هناك مثل هذا الاقتراح فى وقت من الأوقات » .

— « لقد كانت هناك اقتراحات كثيرة شبيهة بذلك — كلها ولدت ميتة ، ومع ذلك فانى أحمد الله فان أحسن حال هو ما أنا فيه » .

فتعترض آشا ، اذ كيف تكون حالة الأرملة أفضل من حالة المتزوجة ؟ ثم تستمر تسأل : « حسنا ، دعينا نفترض يا حبيبتى أنك كنت قد تزوجت من زوجى . انك تعلمين أنه أمر كان من السهل أن يحدث » .

نعم ، لقد كان من السهل أن يحدث ، فلمَ لم يحدث ؟ ان هذه الحجرة وهذا السرير كانا سيكونان حجرتها وسريرها . ونظرت بنودينى الى الحجرة والى السرير باشتياق محبط مؤلم ، لماذا أنكروا عليها مكانها فى هــذا البيت ؟ انها اليوم ما هى الا ضيفة سوف ترحل سريعا بل يجب أن ترحل سريعا .

وبعد الظهر كانت بنودينى نفسها بمهارتها التى لا تبارى تمشط شعر آشا وتساعدها على أن تأخذ زينتها لمقابلة زوجها فى المساء وكان خيالها الملتهب يتتبع فى خفاء هذه العروس التى تجملت وتزينت وهى فى طريقها الى العاشق الولهان الذى ينتظرها باشتياق ، ولكنها كانت أحيانا أخرى تعطلها كيدا فتعترض قائلة : « انتظــرى برهة يا عزيزتى ، ان زوجك لن يهرب فهو ليس غزالا بريا فى الغابة بل رجلا أليفا مدللا » . وهكذا كانت تعطلها بمداهنتها ومعاكستها ، مما كان يضايق ماهندرا كثيرا ويجعله يستشيط غضبا عندما تصل اليه آشا فى النهاية ويقول :

— « كم هى متعبة صديقتك هذه . انها لا تتحرك ، متى ترحــل الى بيتها ؟ » .



فتتوسل اليه آشا بقلق : « أرجو ألا تغضب من رمداء العين ، انك لا تعرف كم تحب أن تسمع عنك وكيف تساعدنى بكل عناية ومهارة على أن أتزين من أجلك » .

وبالرغم من أن راچلاكشمى لم تكن تريد أن تكل الى آشا أى عمل من أعمال المنزل فقد استطاعت بنودينى أن تتغلب على اعتراضها ، وكانت هى نفسها تعمل بلا كلل وتشغل نفسها بعمل أو آخر من الصباح حتى الليل ؛ وقد احتفظت بآشا بجانبها تشغلها فى العمل مما جعل آشا لا تجد منفذا تهرب منه ، وبدا أن انتظار زوج آشا بملل فى حجرة النوم فى الشرفة التى تقع فى أعلى البيت يثير خيال بنودينى ويمدها بتسلية سرية لا تنضب ، وكانت تضحك فى داخلها عندما تتوسل اليها آشا وتقول : « أرجوك ، دعينى أذهب الآن يا عزيزتى رمداء العين ؛ انه سيغضب » .

فتسرع بنودينى قائلة : « لحظة من فضلك ؛ دعينا ننهى هذا ، انه لن يستغرق وقتا طويلا » .

وبعد دقائق قليلة تتململ آشا وتتوسل ثانية : « من فضلك دعينى أذهب الآن فمن المؤكد أنه سيغضب » .

فتغيظها بنودينى قائلة : « وماذا يحدث اذا غضب ؟ ان الحب اذا خلا من سورات غضب الغيرة تافه لا طعم له كطبق خضار من غير « شطة » وتوابل » .

لقد كان جزء الحب الذى يتألف من « الشطة » والتوابل هو كل ما استطاعت بنودينى أن تتذوقه ؛ أما طبق الخضار الرئيسى فكان بعيدا عن متناولها ؛ ونملت أعصابها كمن لسعها لهيب ، وأخذت عيناها تطلقان شررا من النار وهى تقول لنفسها : « ان هذه السعادة وهـذا الشوق الحارق الذى يبديه زوجها كان من نصيبى ويجب أن يكون كذلك ؛ لقد كنت أستطيع أن أحكم هذا البيت وأن أكون ملكة عليه ، أجعل من زوجى عبدا لى ؛ وأحول الأسرة والزواج الى شيء مدهش بدلا من هذه الحالة

الرثة المتبلدة . ان هذا الذى أنكر على وحرمت منه ينتمى الآن الى هذه البنت . هذه الدمية الصغيرة » .

ولكنها فى تلك اللحظة بالذات كانت تطوق عنق آشا بذراعيها وتقول لها « خبرينى يا عزيزتى رمداء العين ماذا قال كل منكما للآخـر الليلة الماضية . هل قلت ما علمتك أن تقوليه ؟ اننى أحس بالسعادة عندما أسمع عن حبكما » .

١١

بلغ السيل الزبى وقال ماهندرا لأمه : « ليس من الحكمة اطلاقا أن نحتفظ بأرملة شابة غريبة تتسكع فى بيتنا ، انها مسئولية لا أظن أنه ينبغى لنا أن نتحملها ، فمن يدرى أية فضيحة يمكن أن تؤدى اليها فى يوم من الأيام ؟ » .

— « أتقول غريبة ؟ انها زوجة بيبن من تعرفه جيدا وليست غريبة » .

— أيا كانت فليس من الحكمة أن تلازمنا هنا ، أنا لا أحب ذلك .

ولم يكن من اليسير على راجلاكشمى أن تتجاهل رغبات ماهندرا ولذلك فقد أرسلت تطلب بيهارى .

وقالت ترجوه : « بيهارى يا عزيزى ، أرجو أن تجعل ماهين يفهم أن فى وجود زوجة بيبن معى فى المنزل راحة كبيرة لى فى هذه السن المتقدمة ، انها تقوم بمعظم العمل ولا يصيبنى من النصب الا القليل وسواء أكانت بيننا صلة دم أم لم تكن فلم تقم أية امرأة أخرى بما قامت به بنودينى » .

ولم يقل بيهارى شيئا لراجلاكشمى ولكنه صعد الى ماهندرا وتحدث اليه قائلا : « ماهندرا ، هل فكرت فى بنودينى ؟ » .

فضحك ماهندرا وقال : « فكرت فى بنودينى ؟ انى لا أستطيع النوم فى

الليل خوفا منها ، لم لا تسـأل زوجة أخيك ؟ فهى تخبرك كم أصبحت بنودينى مصدر قلق بالنسبة الى » .

وحاولت آشـا فى سكون من وراء حجابها أن تعترض على ما قاله ماهندرا وضحك بيهارى وقال : حقا . أهى شجرة سم أخرى ؟ [1] .

فأجاب ماهندرا : « تقريبا . وهذا ما يجعل تشونى شديدة الاهتمام بالتخلص منها » .

ومرة ثانية صدر من خلف الحجاب احتجاج صامت واشتعلت عينا آشا غضبا من هذه السخرية .

فقال بيهارى : « وحتى لو تخلصت منها الآن ، فلن يقتضى الأمر منها وقتا طويلا لكى تعود مرة أخرى وليس هناك الا علاج واحد .. أن تتزوج الأرملة ، فهذا هو الذى يزيل ناب السم منها كلية » .

فعلق ماهندرا : « ولكن كوتدان [2] كانت هى الأخرى قد تزوجت » .

— لا عليك ، ويكفى هذا التشبيه ، لقد فكرت فى حالة بنودينى فوجدت أنه لا يمكن أن تمكث هنا معكم طويلا ، ومن ناحية أخرى فمن العسير أن يحكم عليها بالبقاء مدى الحياة فى هذا التيه المنبوذ حيث كانت تعيش ، لقد رأيت المكان بنفسى ، انه فظيع .

وعلى الرغم من أن بنودينى كانت تعيش فى نفس المنزل فانها لم تكن قد ظهرت أمام ماهندرا بعد ، ولكن بيهارى كان قد رآها وعرف أن مثل هذه الفتاة لا يمكن أن يحكم عليها بأن تمضى أيامها فى تيه ، وعرف كذلك أن نفس اللهيب الذى يضىء البيت يستطيع أيضا أن يحرقه ويحيله رمادا ،

---

(١) اشارة الى قصة بانكيم تشاترجى المشـهورة التى تحمل هـذا الاسم التى تتسبب فيها أرملة شابة فى خراب أسرة سعيدة .

(٢) اسم الأرملة الشابة فى القصة المذكورة .

وقد أخذ ماهندرا يعاكس بيهارى على اهتمامه الواضح ببنودينى ، ومع أن بيهارى قابل هذه الردود الساخرة بخفة فقد كان قلقا فى سره لأنه كان يعلم أن بنودينى لم تكن الفتاة التى يمكن أن يلهو بها الانسان أو يتجاهلها .

وحذرت راچلاكشمى بنودينى قائلة : « كونى على حذر يا بنيتى ، لا تتمادى فى صداقتك مع آشا ، لقد تزوجت فى بيت قروى ولا تعرفين أساليب هؤلاء الشابات الحديثات . انك فتاة حكيمة ويجب أن تكونى على حذر » .

وقد ابتعدت بنودينى عن آشا بعد هذا التحذير ، وجعلت ابتعادها المتعمد واضحا شديد الوضوح . قالت لآشا « على أى حال ، من أنا يا أختى العزيزة ؟ اننــا اذا لم نكن حريصين نحو المخلوقات الفقــيرة فلن تجلب على أنفسنا سوى السخرية » .

وبكت آشا واعترضت ولكن بنودينى كانت قاسية فلم تصغ اليها وان كانت آشا تتلهف على أن تبوح لها بكل ما فى قلبها .

وفى نفس الوقت كان ماهندرا قد بدأ يسأم ويتبرم ، فأصبح عناق الحب رخوا والعيون التى كانت من قبل مفتونة صارت الآن ذابلة من الوهن ، والأعمال الروتينية الارتجالية المشوشة التى كانت تبدو من قبل مسلية بدأت الآن تصبح جهدا مؤلما ، وآشا التافهة كربة بيت بدأت تضايقه ولو أنه لم يقل شيئا . ومع ذلك فقد استطاعت آشا أن تحس بأن عظمة الحب قد ذبلت فى حرارة الانهماك المضنى ، وان الاجهاد والعبارات الكاذبة قد جعلت زواجهما غير ذى نغم .

ان العلاج الوحيد فى مثل هذه الحالات هو أن يبتعد أحدهما عن الآخر ، ولذا فقد بذلت آشا ، مدفوعة بغريزتها النسوية ، جهدا كبيرا فى أن تبتعد عن ماهندرا ، ولكن لمن تذهب ان لم تذهب الى بنودينى ؟

أما ماهندرا فقد بدأ بعد أن استيقظ من سبات الافتتان يدرك أنه قد أهمل دراساته وواجباته العادية الأخرى ، وقد نجح فى انقاذ كتبه الطبية وأن يجمعها من جميع أنواع الأماكن المستحيلة التى كانت قد ألقيت فيها ، وبدأ ينظفها مما علق بها من تراب ، ثم أخذ معطفه وسرواله ، وهما ملابس الكلية التى لم تستخدم زمنا طويلا — ووضعهما فى الشمس ليجفا .

١٢

عندما فشلت آشا فى استعادة ثقة بنودينى فكرت فى الالتجاء الى خدعة ، فقالت لبنودينى : « كيف يحدث يا عزيزتى رمداء العين ألا تظهرى اطلاقا أمام زوجى ؟ لم تتجنبيه وتهربين منه ؟ » .

فاحتجت بنودينى فى تواضع مصطنع قائلة : « يا للعار ! » .

— « ولماذا ؟ ما العيب فى ذلك ؟ لقد سمعت أمى تقول انك تنتمين الى الأسرة » .

فأجابت بنودينى برصانة : « لا أحد ينتمى الى أحد فى هذا العالم ، فالذين يهتمون يستطيعون أن يجعلوا من الآخرين أقارب لهم ، أما الذين لا يهتمون فهم غرباء حتى ولو كانت هناك صلة رحم » .

تأثرت آشا وقالت لنفسها : « ان ما تقوله لا يمكن أن ينازعه أحد ، ان زوجى قد ظلمها حين استاء من وجودها معنا كما لو كانت غريبة » .

وفى المساء حاولت آشا أن تلاطف زوجها وتتضرع اليه :

— « يجب أن تقابل رمداء العين » .

— « يا لك من شجاعة ! » .

— « ولماذا ؟ ما الذى أخشاه ؟ » .

— « ان ما تذكرينه عن جمالها لا يبدو باعثا على الاطمئنان » .

— « لا عليك ، سوف أتحدى الخطر ، والآن كف عن المعاكسة وأخبرنى :
هل تعتزم أن تراها أم لا ؟ » .

ولم تكن حقيقة الأمر أن ماهندرا لم يكن متطلعا الى رؤية بنودينى ، فالواقع أن تشوقه الى ذلك كان يصل فى بعض الأحيان الى حد الشغف ، ولكنه خشى هذا الشغف الذى بدا له أمرا لا يليق ، وأطرى نفسه على تمسكه بمستوى رفيع من آداب الحب ، لقد رفض من قبل أن يصغى الى اقتراح بالزواج خشية أن يعوق ذلك ما لأمه من رعاية تحتكرها وحدها ، وها هو الآن يحتفظ بما لآشا من احتكار لمشاعره ويرفض أن يعترف لنفسه بتطلعه الى آية امرأة أخرى ، وكان يفخر بأنه صلد ثابت فى حبه .

كذلك كان أسلوبه فى صداقته لبيهارى لا يختلف عن هذا الأسلوب ، فلم يجعل فى صداقته واخلاصه له مكانا لشخص آخر ، فاذا تقدم شخص آخر يطلب وده كان يرفضه ويجعل من رفضه فضيلة يفاخر بها أمام بيهارى وهو يلعن الشخص المنكود ويسخر منه مباهيا بأنه لا يستسيغ صحبة الأشخاص العاديين ، فاذا اعترض بيهارى أجابه قائلا : « ربما تستطيع أنت أن تتحملهم ، والواقع يا بيهارى انك تكون لك أصدقاء أينما ذهبت ، أما أنا فلا أستطيع أن أصادق زيدا وعمرا وبكرا » .

وعندما وجد ماهندرا هذا نفسه أنه كان فى قرارة نفسه يتطلع الى رؤية السيدة التى لم يسبق أن وقعت عينه عليها وأن عقله الراسخ يقلقه من حين لآخر ، شعر بالخجل أمام نفسه لتخليه عن مثله العليا ، وبدا يضايق نفسه ويطالب أمه بابعاد بنودينى عن البيت .

ولذلك فعندما توسلت آشا اليه أجاب : « ولماذا تهتمين يا تشونى ؟

هل عندى وقت لرمداء العين ؟ أن ساعات العمل هى للدراسة ووقت الفراغ لك ، فأين الفرجة بينهما لصديقتك ؟ » .

فقالت آشا : « حسنا ، لن أطلب منك أن تستغنى عن جزء من وقت دراستك ولكنى سأمنح جزءا من الوقت الذى تخصصه لى لرمداء العين » .

فضحك ماهندرا وقال : « لك أن تمنحيها ما تشائين ؛ ولكن لمَ يجب على أن أرضخ لذلك ؟ » .

وكثيرا ما كان ماهندرا يوبخ آشا على أن حبها لبنودينى كان دليلا على نقص فى حبها لزوجها لا يغنيها عن حب غيره ، وكان يفخر بأنه لا يوجد من يستطيع أن يقتصر فى حبه لشخص واحد مثله ، وكانت آشا تتحدى ادعاءه وتحاول أن تدحضه وتناقش وتتشاجر وتبكى ولكنها لم تستطع اطلاقا أن تتغلب عليه فى المناقشة ، وكان زهو ماهندرا واعتزازه بأنه لا يوجد فى حبه لآشا ثقب ابرة يمكن أن ينفذ منه شخص آخر يثير آشا ويستفزها ، ولكنها اليوم كانت راغبة فى أن ترضخ لادعائه فقالت : « حسنا أستحلفك من أجلى لا من أجلها أن تتعرف بصديقتى » .

واستجاب ماهندرا فى أسلوب المتنازل لالحاح آشا بعد أن أكد تميز حبه على حبها ثم قال : « حسنا ، سوف أراها — ولكن أرجو أن تعرفى أنك تضجريننى بغير حق » .

وفى الصباح الباكر ذهبت آشا الى بنودينى وهى ما زالت فى سريرها .

فصاحت بنودينى : « ما أعجب أن يهمل الحجل (*) القمر وينادم السحاب ! » .

فقالت آشا : « هذه المجازات الشاعرية يا أختى العزيزة فوق مستواى ؛

(*) طائر يقال أنه يحب القمر ويعيش على اشعته .

فلماذا تلقين اللآلىء فى التيه ؟ تعالى وتحدثى مع شخص يقدرك ويعرف كيف يرد ردا مفحما » .

فسألتها بنودينى : « ومن هذا الأريب اللامع ؟ » .

فأجابت آشا : « انه زوج أختك — زوجى ، لا ، اننى لا أهزل فهو متشوق الى التعرف بك » .

وفهمت بنودينى أن تشوق ماهندرا لم يكن الا من صنع آشا ، وهى لن تسمح لنفسها بأن تخدع بهذه السهولة ، لقد تبينت حقيقة التدبير الذى دبرته صاحبتها ، ورفضت صراحة أن تقابل ماهندرا . وشعرت آشا بالاذلال والتحقير أمام زوجها ، وغضب ماهندرا فقد جرحت كبرياؤه اذ كيف تجرؤ هذه المرأة على أن ترفض التعرف به . هل تعتبره أحد الناس العاديين ؟ ألم تتحقق انه لو كان كأى شخص آخر لكان قد تقدم للتعرف بها منذ وقت طويل ، بل ان ترفعه عن فعل ذلك يجب فى الحقيقة أن يكون دليلا كافيا على مستواه الرفيع ولسوف تفهم عندما تعرفه أنه يختلف عن بقية الرجال .

وأخذت بنودينى أيضا تغذى حفيظتها سرا على ماهندرا ، فلقد مضى عليها فى البيت وقت طويل ولم يحاول أن يراها اطلاقا . ولم تكن رؤيتها أمرا عسيرا على كل حال فقد كان يمكنه بسهولة أن يدخل حجرة أمه بذريعة أو أخرى وهى تجلس تتحدث مع راجلاكشمى ، فلمَ هذه اللامبالاة اذن ؟ كأنها كانت قطعة أثاث ؟ أليست بشرا ؟ أليست امرأة ؟ ولو أنه تعرف بها لرأى الفرق الشاسع بينها وبين مدللته تشونى .

وأخيرا لجأت آشا الى الخديعة فقالت لزوجها : « سوف أخبر بنودينى أنك قد ذهبت الى الكلية ، وسوف أحضرها الى حجرتى ثم تدخل الحجرة فجأة من الخارج وهكذا تقع فى الشرك باحكام » .

فقال ماهندرا : « وماذا عملت لتستحق مثل هذا العقاب القاسى ؟ » .

فأجابت آشا : « اننى غاضبة منها هذه المرة فعلا ، انها لا تريد حتى أن تراك . يا لها من وقاحة ! سوف أحطم كبرياءها ولن أستريح حتى يتم لى هذا » .

فقال ماهندرا : « اننى لست متعطشا الى رؤية صديقتك ، فلماذا أتسلل كأحد اللصوص لكى أراها ؟ » .

وأمسكت آشا بيد ماهندرا وتضرعت اليه : « أرجوك من أجلى أن توافق ، دعنا نحطم كبرياءها مرة واحدة ، وبعد ذلك لك ما شئت » .

وصمت ماهندرا ، وعادت آشا تجدد توسلاتها : « أرجو أن تكون لطيفا ووافق من أجلى » .

وتغلب حب الاستطلاع على ماهندرا فسمح لنفسه بأن يقتنع بتوسلات آشا بعد احتجاجات فاترة .

كان الوقت بعد ظهر يوم من أيام الخريف وكان الجو صحوا عندما جلست بنودينى فى حجرة آشا تعلمها كيف تطرز خفا (شبشبا) لحجرة النوم ، وكانت آشا تتجه بنظراتها نحو الباب فى شرود ، حتى كان عدد الأخطاء التى وقعت فيها أثناء عد الغرز غير معقول ، وعيل صبر بنودينى منها فخطفت الخف من يد آشا وقذفت به الى الأرض وهى تقول : « لا ، انك لن تتعلمى ، دعينى أذهب ! فعندى عمل آخر أريد أن أنجزه » .

وتوسلت اليها آشا تقول : « أرجو أن تعطينى فرصة واحدة أخرى فلن أخطىء بعد ذلك » .

ثم استأنفت التطريز ، ومن الباب تجاه ظهرها تسلل ماهندرا الى الحجرة على أطراف أصابع قدميه ووقف خلف بنودينى . ولم ترفع آشا رأسها ولكن ابتسامة ارتسمت على شفتيها .

فسألتها بنودينى : « ما هذا الذى يسليك ؟ » ولم تستطع آشا أن تكبح جماح نفسها أكثر من ذلك فانفجرت ضاحكة ورمت بالخف فى حجر بنودينى وقالت : « انك على حق يا أختى العزيزة ، لا فائدة منى فى هذا العمل » ثم وضعت ذراعيها حول عنق بنودينى وانفجرت فى نوبة من الضحك ثانية .

وكانت بنودينى قد فهمت كل ما كان يحدث من وراء ظهرها ، فقد أدركت من قلق آشا ونظراتها التى لم يكن لها معنى أن ماهندرا كان يقف خلفها ، ولكنها شاءت أن تبدو ساذجة وأن تؤخذ على غرة .

وقال ماهندرا وهو يتقدم نحوها : « لماذا تحرمين هذا الانسان المسكين من سبب هذا المرح ؟ » .

وجفلت بنودينى وأسرعت تسحب ساريها فوق رأسها ونهضت لكى تخرج ، ولكن آشا أمسكت بيدها .

وقال ماهندرا : « أرجوك ! اما أن تدعينى أذهب ، أو تدعينا نجلس نحن الاثنين » .

ولم تقم بنودينى — كأية فتاة عادية فى مثل هذه الظروف بضجيج لا مبرر له أو مشهد تتظاهر فيه بحشمة من فوجىء بما لم يتوقع ، وانما أجابت بمنتهى البساطة : « سوف أحترم رغبتك وأمكث — ولكن أرجو ألا تلعننى فى سرك بسبب بقائى » .

فقال ماهندرا : « بل سوف ألعنك حتى تمكثى ثابتة لا تتحركين فترة طويلة » .

— « أنا لا أخشى لعنتك لأن (طويلة) هذه لن تكون (طويلة) جدا » .

ثم حاولت بعد قولها هذا أن تنهض ، ولكن آشا أمسكت بها ورجتها قائلة : « أرجو أن تمكثى برهة .. من أجلى » .

١٣

سألت آشا زوجها : « أصدقنى القول ، ما رأيك فى رمداء العين ؟ » .

فتمتم ماهندرا : « ليست رديئة » .

وتضايقت آشا .

وقالت فى نزق : « ألا يوجد من يظفر باعجابك » .

فابتسم ماهندرا وقال : « الا واحدة » .

— « حسنا ، دع التعارف ينضج وسوف نرى بعد ذلك ان كنت تحبها أو لا » .

فصاح ماهندرا : « ينضج ؟ هل تعنين أن هـذه المضايقة سـوف تستمر ؟ » .

فقالت آشا : « على كل حال هناك ما يسمى الأدب ، فماذا تظن الآن اذا قاطعتها بعد أن تعرفت بها ؟ انك لصعب الارضاء ، ان أى رجل آخر كان يتحرق شوقا لينمى صداقته بمثل هذه الفتاة . ولكنك تسلك كما لو كان ميزاب (جارجويل) [1] قد فتح عليك فجأة » .

وازدهى ماهندرا بهذه المقارنة مع الرجال الآخرين وقال : « حسنا ، سوف نرى . أن الأمر لا يحتاج الى جلبة . فلا أنا أستطيع الهرب من البيت ولا صديقتك تبدى أية علامة من علامات الرحيل ، ولذلك فلا مفر من أن يقابل أحدنا الآخر من حين الى حين ، وعندما يحدث ذلك فثقى أن زوجك لن يعوزه الأدب ، فعنده الكثير من هذه الحاسة » .

كان ماهندرا يسلم جدلا بأن بنودينى سوف تدبر من الآن فصاعدا

(١) ميزاب فى أعلى البنـاء ومصبه فى صورة رأس انسـان أو حيوان تنسـاب من فيه مياه الأمطار .

فرصا للظهور أمامه ، ولكنه كان مخطئا ، فقد استمرت بنوديني مباعدة وتجنبت طريقه حتى مصادفة ولم يجرؤ ماهندرا على أن يتحدث عنها مع آشا حتى لا ينكشف اهتمامه بها ، فكبت تلهفه على صحبتها ، وكان كلم كبته وأخفاه ازداد ولعا ، وأضافت عدم مبالاة بنوديني الى النار وقودا

وفى اليوم التالى على مقابلة بنوديني سأل آشا بنغمة عرضية تنم عن تسلية مبرأة من المصلحة الذاتية : « حسنا ، ما رأى رمداء عينك فى زوجك الامعة ؟ » .

لقد كان يراوده الأمل الحبيب بأن تخبره آشا من تلقاء نفسها بكل شيء بحماستها المألوفة ، فلما خاب توقعه اضطر أن يسأل بنفسه متظاهر بأن السؤال لا يزيد على أن يكون على سبيل الهزل ، وارتبكت آشـ لأن صديقتها لم تشر أية اشارة الى مقابلتهما ، وشعرت نحو رمداء العين بضغينة مشروعة . ثم أجابت زوجها : « انتظر . دع التعارف ينمو قليلا فالوقت ما زال مبكرا لكى أعرف رأيها ، وعلى كل حال فهى لم ترك الا مدة دقيقة واحدة ، ولم تتبادل معك الا كلمات قليلة » .

وخاب أمل ماهندرا ، ووجد من العسير أن يحتفظ بتظاهره بعـدم المبالاة وفى هذه اللحظة وصل بيهارى .

وصاح بيهارى : « هاللو ماهندا ، فيم تتحدثان أنتما الاثنان ؟ » .

فأجاب ماهندرا : « تصور أن زوجة أخيك تذهب وتصادق كومودينى أوبرامودينى أو لا أدرى ما اسمها ، ثم تنادى كل منهما الأخرى اسم تدليل ، ضفيرة الشعر أو عظمة السمك أو يعلم الله أى اسم هو هذا والآن أطارد لكى أبادلها اسم ، رماد الشروت (*) أو بعض هذا السخف أهذا عدل ؟» .

(*) ضرب من السيجار .

واحمرت آشا غضبا من خلف حجابها ونظر بيهـــارى الى ماهندرا وصمت برهة ، ثم ابتسم وقال : « يا زوجة أخى ، ان الدلائل تنذر بالويل ، وما هذا الاحتجاج الثائر الا خداع . لقد رأيت رمداء عينـــك وأستطيع أن أقسم بأن رؤية هذا الوجه مرارا ومرارا لن يكون من سوء الطالع ، فاذا ما احتج ماهندرا بشدة ، فان الأمر يبدو مريبا الى حد كبير » .

واقتنعت آشا أكثر من أى وقت آخر بأن زوجها قد صنع من مادة مختلفة — فهو أفضل من بيهارى فى كل شىء .

نمى ماهندرا فجأة اهتماما بالتصوير الفوتوغرافى ، لقد حاول من قبل أن يعبث بآلة تصوير ولكنه سرعان ما يئس ، ولكنه أصلحها الآن وأحضر بعض الأفلام وبدأ يأخذ صورا لكل من فى البيت بما فيهم الخدم .

وأصرت آشا قائلة : « يجب أن تصور رمداء عينى » .

فأجاب ماهندرا وهو لا يريد أن يسرف فى كلماته : « حسنا ! » .

ولكن رمداء العين أجابت بطريقة أكثر اقتضابا « لا ! » .

وكان على آشا أن تلجأ الى الخديعة غير أن بنودينى لم تفطن الى ذلك كما حدث من قبل . وكانت الخطة أن تقنع آشا بنودينى بأن تأخذ قيلولتها بعد الظهر فى حجرة آشا ، ثم يأتى ماهندرا من خلفها ، وهى مستريحة ، ويصورها ، وسوف تتعلم الجميلة المتكبرة العنيدة درسا .

وكان من العجيب أن بنودينى التى لم يسبق لها أن نامت فى أثناء النهار ، سرعان ما استرخت على سرير آشا وبدا الاعياء يتغلب عليها ، فراحت فى سبات عميق . كان وجهها تجاه النافذة وقد انتشر فوقها شال أحمر ، فبدت جميلة فى وضعها جمالا جعل ماهندرا يشعر أنها قد اتخذت هذا الوضع خصيصا لكى تؤخذ لها صورة . ودخل على أطراف أصابعه وآلة التصوير فى يده ، وحملق فيها فترة طويلة من زوايا مختلفة زاعما أنه

يأخذ وضعا مناسبا للتصوير . بل لقد وجد من الضرورى ، من أجل الفن ، أن ينقل جدائل شعرها المتهدلة من وضع الى آخر . فلما لم يجد الأثر المرضى أراد أن يعيدها الى وضعها الأصلى فهمس فى أذن آشا : « انقلى الشال قليلا الى يسار قدميها » .

فهمست الزوجة القاصرة : « أخشى ألا أحسن فعل ذلك ، وقد أوقظها ، فيحسن بك أن تقوم بذلك أنت نفسك » .

وهكذا قام ماهندرا بنفسه بذلك ، ثم أخيرا اتخذ مكانه ووضع الفيلم فى آلة التصوير وفجأة انطلقت من بنودينى تنهيدة كما لو كان هناك صوت قد أيقظها واستدارت على جانبها ثم هبت جالسة . وانفجرت آشا تضحك بصوت مرتفع واحمرت بنودينى غضبا وأدارت عينيها الملتهبتين شررا تجاه ماهندرا وقالت : « لقد ارتكبت خطأ عظيما ! » .

فأجاب ماهندرا : « لا شك أننى أخطأت ، ولكن انظرى الى سوء حظى ، لقد فقدت البضائع فى اللحظة التى سرقتها فيها فلا أنا هنا ولا أنا هناك ، فأرجوك على الأقل أن تدعينى أستكمل الخطأ قبل أن تعاقبينى » .

وتوسلت آشا اليها كذلك وضجرت بنودينى حتى قبلت أن تصور فى النهاية . غير أن الصورة الأولى فشلت ، ومن ثم فقد تم الاتفاق على اعداد وضع آخر فى اليوم التالى بناء على الحاح المصور الفنان الذى اقترح أن يصور الصديقتين معا كتذكار لصداقتهما الأبدية ، ولم تستطع بنودينى أن ترفض ولكنها أصرت على أن تكون هذه الصورة هى الأخيرة . وخشية أن تكون قد عنيت ما تقول فقد أفسد ماهندرا الصورة الثانية ، وهكذا ساعدت الجلسات المتكررة للتصوير على نضوج التعارف بينهما .

وكما أن الجمرات المدخنة يمكن أن تخرج لهيبا مرة أخرى اذا نخست ، فقد استجد دافع خارجى جديد أحيى قصة حب العريسين بعد أن كانت جذوة حبهما قد خبت ، ذلك أن آشا كانت لا تجيد الحديث أما بنودينى فقد كانت لها طلاقة لسان لا تفنى ، وكانت آشا ترى فى ذلك نعمة من النعم ، اذ لم تعد الآن تجد صعوبة فى تسلية ماهندرا .

فلقد كان الزوجان الشابان قد بددا رأس مالهما تقريبا فى وله حبهما الزوجى الأول فأصبحا الآن يواجهان مستقبلا كله سأم لا نهاية له ، وقد يمكن أن تعالج الافاقة من مرح السكر بنوبة أخرى من السكر ، ولكن مصادر آشا كانت قد جفت فمن أين يكون لها مصدر لنوبة ثانية من المرح ؟ وفى هذه اللحظة الحرجة بالذات جاءت بنودينى بكأس ممتلئة نبيذا ووضعتها فى يد آشا فتنفست آشا الصعداء حين رأت زوجها وقد عاد اليه مرحه وسعادته .

وكفت آشا منذ هذه اللحظة عن الاستسقاء من مصادرها الخاصة ، فاذا ما راح ماهندرا وبنودينى ينهمكان فى تبادل الردود المفحمة المسلية لم تعمل أكثر من أن تصغى وتقهقه من كل قلبها ، وحين كان يغشها ماهندرا فى اللعب كانت تلتفت الى بنودينى وتلجأ الى حكمها العادل ، فاذا أنبها ماهندرا وقال شيئا يثيرها نظرت الى بنودينى تطلب ردها المفحم . وهكذا استمر ثلاثتهم فى لهو ومرح .

ومع ذلك فلم تهمل بنودينى واجبا من واجباتها فى البيت ، وكانت لا تجتمع بهما الا بعد أن تكون قد قامت بواجباتها المنزلية بما فى ذلك الاهتمام براحة راچلاكشمى ، فكان ماهندرا يتململ ويفرغ صبره .

وقال متذمرا : « انك سوف تفسدين الخدم وتجعلينهم كسالى » .

فتجيب بنودينى : « هذا أفضل من أن يفسد الانسان نفسه بالانهماك فى الكسل » ثم تضيف : « وعليك الآن أن تنهض وتستعد للذهاب الى الكلية » .

— انه صباح جميل سماؤه مليئة بالسحب .

فتقاطعه بنودينى : « لا ، ليس هذا عذرا ، ان العربة بالباب لتأخذك الى الكلية » .

فيصيح ماهندرا : « ولكنى قلت للسائق اننى لن أحتاج الى العربة » .

فتقول بنودينى احكاما فى العبارة وهى تخرج له ملابسه : « ولكننى قلت له انك تحتاج اليها » .

فيعلق ماهندرا : « كان يجب أن تولدى فى احدى أسر راجبوت . اذن لكنت تسرعين بالمحارب الى حومة الوغى وتساعدينه على ارتداء درعه » .

وهكذا ثبتت بنودينى قدميها ، لا تسمح لماهندرا بأن تفوته الكلية أو يهمل دراساته لسبب من الأسباب ، ولا تسمح بأى تراخ أو لهو فى أثناء النهار ، فازدادت مقابلات المساء خيالا وشاعرية واشتدت الرغبة فيها ، وصار ماهندرا يقضى نهاره متطلعا الى انتهائه .

لقد كان يحدث مرارا قبل ذلك ألا يكون طعام الافطار معدا فى الوقت المناسب وكان ماهندرا يستخدم ذلك عذرا فى عدم الذهاب الى الكلية ، أما الآن فقد اهتمت بنودينى بأن يكون الافطار معدا دائما فى وقتــه المحدد ، حتى اذا انتهى منه أخطر برفق أن العربة تنتظره عند الباب . وكانت ملابسه النظيفة ترتب دائما ، أما قبل ذلك فلم تكن غير مرتبة فحسب بل كان من العسير العثور عليها فهى اما مع الكواء أو تكون قد وضعت

خطأ فى ركن من الأركان أو أودعت فوق رف من الرفوف غير المطروقة .

وكانت بنودينى فى أول الأمر تعاكس آشا تحت سمع ماهندرا على هذه الهفوات وكان ماهندرا يشترك معها فى هذا الاستظراف والضحك ، ومع ذلك فقد أخذت بنودينى تدريجا تحمل مسئولية القيام بنصيب آشا من أعمال البيت ، ارضاء لصديقتها فى ظاهر الأمر ، حتى صار كل شيء الآن منظما تنظيما دقيقا ، واختفت الفوضى والرثاثة القديمة وحل محلها النظام والجمال .

كان يقع زرار من معطف ماهندرا فلا تعرف آشا المسكينة ماذا تفعل ، فتخطف بنودينى المعطف من يدها وتثبت الزرار فى أسرع من لمح البصر . وذات يوم قفزت القطة فوق الطعام قبل أن يجلس ماهندرا ليأكل ، فهلعت آشا ولم تدر ماذا تفعل ، فأسرعت بنودينى الى المطبخ وأحضرت صينية ملأى بالطعام لكى تتخلص من الأزمة ، ووقفت آشا صامتة وقد عقدت الدهشة لسانها .

وهكذا كان ماهندرا يحس فى كل صغيرة وكبيرة من أعمال اليوم العادية سواء أكانت متعلقة بطعامه أم دولاب ملابسه أم عمله أم وقت فراغه بلمسة من لمسات اشفاق بنودينى ، فالخف الذى كان يلبسه ، كانت بنودينى هى التى طرزته وكذلك كان القباء الصوف الذى كان يلفه حول رقبته ، بل لقد كان يحس بلمسة بنودينى حين تأتى اليه آشا فى المساء وقد خرجت لتوها من الحمام واتخذت زينتها وتعطرت . وبدا له كما لو كان نصف جمال آشا جمالها الذاتى ، أما نصف جمالها الآخر فقد بدا انعكاسا لجمال شخص آخر ، وقد مزجت المرأتان سحريهما فى اغراء فياض كما تمتزج مياه نهرى الجنج وجامونا .

لم يعد بيهارى ضيفا معززا وصار نادرا ما يدعى الى تناول وجبة من

وجبات الطعام ، ولذلك فقد كتب فى يوم من الأيام الى ماهندرا يدعو نفسه الى تناول الغداء فى اليوم التالى وكان صدفة يوم أحد . وخوفا من أن يفسد تطفل بيهارى سحر اليوم فقد أسرع ماهندرا يكتب اليه قائلا ان عملا هاما وعاجلا سيضطره الى التغيب عن البيت فى ذلك اليوم . ورغم ذلك فقد حضر بيهارى بعـد الغداء . ولما سمع من الخادم أن ماهندرا لم يغادر البيت اطلاقا أسرع صاعدا اليه وهو ينادى « ماهندا ! »وارتبك ماهندرا وأسرع يرقد على السرير وقد أسند رأسه الى الوسادة بحجة أن صداعا شديدا قد حال بينه وبين الخروج . وفزعت آشا عندما سمعت أن زوجها يشكو فجأة من الصداع ورأت وجهه وقد شحب لونه ولم تدر ماذا تفعل ونظرت عاجزة الى بنودينى تطلب الارشاد والتوجيه . وفهمت بنودينى أنه ليس ثمة ما يدعو الى القلق ؛ ومع ذلك فقد قالت بقلق : « لقد سهرت طويلا ، ويحسن بك أن ترقد وتستريح برهة ، دعنى أذهب وأحضر لك بعض ماء الكولونيا » .

فتمتم ماهندرا : « أرجو ألا تهتمى » .

ولكن بنودينى لم تصغ اليه وأسرعت خارجة ثم عادت مسرعة ومعها ماء الكولونيا وقد مزجته بماء مثلج وأعطت المنديل المبلل لآشا وقالت : « أرجو أن تحتفظى به فوق جبهة السيد ماهندرا » .

واستمر ماهندرا يتمتم : « ليس ذلك ضروريا — ليس ضروريا » .

ولاحظ بيهارى المأساة بتفكهة سافرة وقال ماهندرا لنفسه فى اعجاب وكبرياء : « دعه يرى كم يهتمان بى » .

كانت آشا دائما خجولة عصبية فى حضور بيهارى فارتجفت يدها وسقطت نقطة أو نقطتان من ماء الكولونيا فى عين ماهندرا ؛ فأخذت بنودينى المنديل من يدها المرتجفة وثبتته بنفسها فوق جبهة ماهندرا ، ثم أخذت

قطعة أخرى من القطن المبلل وبدأت تقطرها بلطف على المنديل المبلل ؛ ورفعت آشا الحجاب عن وجهها وبدأت تروح لماهندرا .

وسألته بنودينى برقة وهى تلقى نظرة سريعة الى بيهارى : « ألست أحسن حالا الآن يا سيد ماهندرا ؟ » ورأت عينى بيهارى تضحكان بتفكهة كما لو كان يشاهد مسرحية ، وفهمت أن أمامها شخصا ليس من السهل أن تمكر به .

قال بيهارى ضاحكا : « بنودينى ، ان مثل هذا التمريض لن يشفى المرض بل هو سيزيد الطين بلة » .

فقالت بنودينى ببراءة : « أحقا ؟ أن لنا نحن الفتيات الجاهلات أن نعرف ما هو صواب ! لا شك أن كل هذا مسطر فى كتبك الطبية » .

— « انه مسطر فعلا ، ولكنى عندما رأيت هذا التمريض ، بدأ الصداع يصيب رأسى أيضا ، ولكن الرؤوس البائسة كرأسى عليها أن تستغنى عن ترف مثل هذا التمريض . أما ماهندرا فهو كلب سعيد الحظ » .

ووضعت بنودينى الخرقة المبللة ثم قالت : « يحسن بك أن تعالج صديقك » .

ومع أن بيهارى كان يتفكه فقد كان قلقا فى سره مما شاهده ، لقد كان مؤخرا مشغولا فى دراسته فلم يدرك أن الثلاثة الآخرين قد تورطوا فى نفس الفترة فى مثل هذا المأزق . ونظر الى بنودينى وبدأ لأول مرة كأنه يقيس أبعادها ؛ كما أخذت بنودينى كذلك تقيس أبعاده . ثم أجاب عن ملاحظة بنودينى بحدة : « انك على صواب والصديق يجب أن يهتم بصديقه . لقد أحضرت الصداع معى ولسوف آخذه معى . لا تضيعى ماء الكولونيا هباء » .

ثم التفت الى آشا وأضاف : « يا زوجة أخى ؛ الوقاية دائما أفضل من العلاج » .

١٥

قال بيهارى لنفسه : « لن يجدى هذا ؛ ويجب ألا أتركهم لأنفسهم أو أدع الأمور تسير على غير هدى ، وانما يجب أن أتدخل حتى وان كرهوا » .

وهكذا ودون انتظار لأية دعوة متجاهلا كل أنواع السخرية بدأ بيهارى يتسلل الى حصن ماهندرا . قال لبنودينى : « ان هذا الشاب يا بنودينى دللته أمه وأصدقاؤه وأفسدوه ، وزوجته تتابع العملية الآن ، فأرجوك بحق الله أن توجهى عنايتك وجهة أخرى بدلا من المساعدة والتحريض على هذا السقوط » .

فسأل ماهندرا : « تعنى .. » .

فأجاب بيهارى : « أعنى شطر شخص ما مثلى أنا لا يهتم به أحد » .

فقال ماهندرا : « اذن فأنت تريد أن تدلل ! ان ميزة أن تكون مدللا يا بيهارى هى ميزة ليس من السهل أن تحرزها ؛ انها ليست مسألة تقديم التماس » .

وضحكت بنودينى وقالت : « أضف الى ذلك أن القدرة على أن تكون مدللا موهبة فى حد ذاتها ، يا أخى بيهارى » .

فأجاب بيهارى : « وحتى لو كانت تعوزنى الموهبة ؛ فان مهارتك سوف تعوضها ؛ فلم لا تحاولين ؟ » .

فابتسمت بنودينى وقالت : « انها لا تنجح اذا كان الانسان قد أعد

نفسه لها مقدما ، اذ يجب أن يؤخذ الانسان علـى غير حذر . ما رأيك يا عزيزتى رمداء العين ؟ لمَ لا تتولين أنت أمر أخى زوجى ؟ » .

ولكزت آشا بنودينى بأصابعها محتجة ، ولم يستسغ بيهارى هذه النكتة واستمر صامتا . وكانت بنودينى قد لاحظت أن بيهارى لا يستطيع أن يتحمل أية فكاهة على حساب آشا ، واستاءت من أنه بينما كان يحاول أن يسخر منها ، كان يحترم آشا احتراما عميقا ، فالتفتت الى آشا مرة أخرى وقالت : « ان أخا زوجك هذا متعطش الى أفضالك ، بل انه ليرجوها ويطلبها بالفعل ولو أنه فى الظاهر يخاطبنى ، فأرجو يا أختى العزيزة أن تشفقى عليه » .

واشتعلت آشـا غيظا كما احمر وجه بيهارى خجلا ولكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه وقال ضاحكا : « لمَ تكلين حالتى الى شخص آخر ، وأنت تقومين بنفسك مباشرة على تلبية حاجة ماهندرا ؟ » .

وفهمت بنودينى أن بيهارى قد صمم على أن يدمر لعبتها ، ومن ثم فقد وجب عليها أن تتسلح جيدا حتى تواجه خطره .

وشعر ماهندرا بالضيق فان سحر الشعر يشوه اذا ما سميت المجرفة مجرفة ، فقال فى شىء من الحدة : « بيهارى . ان ماهنداك لا يتاجر فى شىء بل هو قانع بما عنده » .

فأجاب بيهارى : « قد لا يخرج الانسان عن طريقة ليتاجر ، ولكن الحظ قد يلعب دوره فتلقى التجـارة بالأرباح الى حجـرك من حيث لا تدرى » .

وتدخلت بنودينى وقالت : « قد تبدو خالى الوفاض الآن ، ومع ذلك فهناك ريح تهب من مكان ما » ثم لكزت آشا وفى عينيها غمزة خبيثة .

وغضبت آشـا غضبا شديدا وتركت الحجرة ، وغضب بيهارى فى

سكون وأدرك أنه قد هزم . وكان على وشــك النهوض عنــدما قالت بنوديني : « لا تذهب كسير الخاطر يا سيد بيهارى ، وسوف أرسل لك رمداء عيني في الحال » .

ثم تركت الحجرة . وقد غضب ماهندرا لهذا التصدع في ساحته وأظهر غضبه في صورة تجهم شديد على وجهه ، ولم يعد بيهارى يستطيع أن يتماسك نفسه فانفجر قائلا « ماهندا ، ان كان ولابد أن تحطم نفسك فافعل مابدا لك ، لقد ساعدك مرانك السابق على ذلك ، ولكن لا تحطم حياة زوجة بسيطة مخلصة متعلقة بك في صدق واخلاص » كان صوت بيهارى غليظا من أثر الانفعال .

فأجاب ماهندرا ببرود : « أنا لا أفهم ما تقول ، فاترك الأحاجى وتكلم بصراحة » .

فقال بيهارى : « سوف أتكلم بصراحة اذن . ان بنوديني تحاول عامدة أن تغويك وتضلك ، وأنت تلعب في يديها كالأبله » .

فصاح ماهندرا بصوت كقصف الرعد : « انها لأكذوبة ، واذا أمكنك أن تعزو مثل هذه الدوافع الحقيرة الى سيدة وقورة فأنت لا تستحق أن يسمح لك بدخول الجناح الداخلى (*) » .

وفى هــذه اللحظة دخلت بنوديني تحمل طبقا من الحلوى ووضعته بابتسامة أمام بيهارى .

فصاح بيهارى : « ولم كل هذا ؟ انى لا أشعر برغبة في الأكل » .

فقالت بنوديني : « هذا لا يجوز ، يجب أن تحلى فمك قبــل أن تتركنا » .

(*) جناح الحريم .

فضحك بيهارى وقال : « اذن فقد قبل التماسى وبدأت تدلليننى » .

فأجابت بنودينى بابتسامة مقوسة : « ان أخا الزوج ليس فى حاجة الى أن يلتمس ، فلمَ ترجو وأنت صاحب حق ، ان المحبة أمامك لتستحوذ عليها ، أليس كذلك يا سيد ماهندرا ؟ » .

وصمت ماهندرا من أثر الدهشة ، واستمرت بنودينى تقول : « ماذا هناك يا سيد بيهارى ؟ لم لا تأكل ؟ أهو الخجل أم الغضب ؟ هل تحب أن أدعو لك شخصا آخر غيرى ؟ » .

فأجاب بيهارى : « ليست هناك ضرورة . فما أخذته كاف » .

— ألا تزال تستظرف ؟ يا لك من مداعب ! حتى الحلوى فشلت فى أن تغلق فاك ! » .

وفى جنح الليل عندما أصبح ماهندرا وآشا منفردين ، أخذت آشا تنفس عن استيائها من بيهارى ، ولم يحاول ماهندرا أن يخفف من استيائها كما كان يحدث فى المناسبات السابقة بل شارك فى حملتها عليه من كل قلبه ، وفى الصباح الباكر نهض وتوجه الى بيت بيهارى .

وقال له : « يا بيهارى ، أخشى أن بنودينى تتأذى من مداعباتك ، وعلى كل فهى ليست من أفراد الأسرة وأنت بالنسبة لها رجل غريب » .

ودهش بيهارى وقال : « أحقا ؟ انى آسف اذا كنت أخطأت ، ويجب على ألا أراها اذا كانت تعترض على وجودى » .

وتنفس ماهندرا الصعداء فلم يكن يتوقع مثل هذا النجاح السهل فى رسالته الكريهة فقد كان فى واقع الأمر يخشى بيهارى سرا .

وفى نفس اليوم ظهر بيهارى فى الجناح الداخلى وقال لبنودينى : « أرجوك يا بنودينى أن تغفرى لى » .

فسألته بنودينى : ولماذا ؟ ماذا حدث يا سيد بيهارى ؟

— « لقد أخبرنى ماهندرا أنك لا تستريحين الى وجودى فى الجناح الداخلى ، ولذا فقد جئت أسألك العفو ثم انصرف على الفور » .

وتعجبت بنودينى وقالت : « ولكن يا له من سخف يا سيد بيهارى ! فما أنا الا ضيفة فى هذا البيت — ولأيام قليلة فقط ، فلماذا ترحل بسببى ؟ ولو أننى شككت فى أننى تسببت فى هذه المتاعب لما كنت جئت هنا اطلاقا » .

وشحب لون وجهها وهى تقول هذا الكلام وبذلت جهدا لتحبس دموعها ثم هرعت تترك الغرفة ، وكان رد فعل بيهارى الأول الشعور بالأسف اذ ربما كان قد اتهم بنودينى ظلما وجرح شعورها فى غير مبرر .

وفى المساء ذهبت راچلاكشمى الى ماهندرا وقالت فى نغمة خائرة :

— « ماهن ، ان زوجة بيبن تصر على الرحيل الى قريتها » .

فسألها ماهندرا : « ولماذا يا أماه ؟ أليست مستريحة هنا ؟ » .

— « لا ، ليست غير مستريحة ، وانما تقول ان الناس سوف يتقولون حتى بدون سبب لو أن أرملة شابة مثلها مكثت الى أجل غير مسمى فى هذا البيت » .

فاحتج ماهندرا وقال وهو يصوب نظرة كلها احتقار تجاه بيهارى الذى كان جالسا هناك صدفة : « ولكن هذا البيت ليس بيت شخص غريب » . وشعر بيهارى بالاثم وفكر : « ربما كنت ظالما فى تلميحاتى أمس . لقد آذيت شعورها دون مبرر » .

ولم يخف الزوج وزوجته أن عواطفهما قد أوذيت وظلمت ظلما كبيرا ، فعاتبت آشا بنودينى : « وهكذا تنظرين الينا على أننا غرباء » وأضافه زوجها « كما لو كنا غير ذى شأن — مجرد غرباء ! بعد عشرة كل هذه الأيام » .

فقالت بنوديني : « ولكنكما لا يمكنكما الاحتفاظ بي هنا الى الأبد » .
فأجاب ماهندرا ساخرا : « وكيف نجرؤ على ذلك » .
وولولت آشا : « لماذا اذن سرقت قلوبنا ؟ » .
فأجابت بنوديني وهي ترمي ماهندرا بنظرة حنونة عميقة العاطفة :
« لا فائدة يا أصدقائي من تشجيع صلات وجيزة » .
لم يتقرر شيء في ذلك اليوم ، وفي اليوم التالي جاءها بيهاري وقال :
« لماذا تتحدثين عن الرحيل يا بنوديني ؟ هل اقترفت خطأ ما تعاقبينني من أجـله ؟ » .
فقالت بنوديني وهي تشيح بوجهها : « المسألة ليست مسألة خطئك ، وانما الخطأ هو في حظي ونصيبي » .
— انك اذا رحلت فلن أكف عن الشـعور بالاثم بأنك رحلت مستاءة بسببي .
ونظرت بنوديني الى بيهاري . كانت عيناها حزينتين وفيهما توسل ، وسألته : « لن يكون من الصواب أن أمكث . أليس كذلك ؟ » .
لقد كان بيهاري في مأزق : كيف يستطيع أن يعترف بأن من الصواب أن تمكث ؟ فأجابها : « لا شك ، فعاجلا أو آجلا يجب أن ترحلي ، ولكن لماذا هذا التسرع ؟ لم لاتمكثين بضعة أيام أخرى على الأقل ؟ » .
فقالت بنوديني وقد أسدلت عينيها : « ما دمتم جميعا تصرون على بقائي فمن العسير أن أتجاهل رغباتكم ، ولكن دعني أقول لك ان بقائي ليس من الحكمة في شيء » .
ومن بين أهداب عينيها الطويلة سالت حبات كبيرة من الدموع على وجهها وتأثر بيهاري تأثرا عميقا من هـذا السيل اللانهائي من الدموع الصامتة وقال : « لقد أسرت في هذه الأيام القليلة قلوبنا جميعا بأساليبك

الساحرة حتى أصبح لا يوجد فرد واحد يريدك أن ترحلى . وأرجو ألا تسيئى الفهم يا بنودينى ، ولكن من ذا الذى يستطيع راغبا أن ينفصل عن مثل هذا الملاك ؟ » .

كانت آشا تجلس قريبة منها وقد حجبت وجهها ، وبدأت تمسح عينيها بطرف ساريها .

وبعد هذا الحادث كفت بنودينى عن التحدث عن الرحيل .

١٦

اقترح ماهندرا ، لكى يزيل آثار هذا الحادث الذى أسال الدموع أن يقوموا بنزهة الى حديقة دم دم يوم الأحد التالى ، وقد تحمست آشا لهذا الاقتراح ، ولكن بنودينى لم توافق ، فتكدرت آشا وماهندرا كثيرا من عدم تعاون بنودينى وتساءلا عن السبب فى تباعدها عنهما الآن .

وما أن جاء بيهارى فى المساء حتى شكت اليه بنودينى قائلة : « انظر يا سيد بيهارى الى أى حد يبلغ الظلم ؟ لقد غضب السيد ماهن وآشا منى لأنى لا أريد أن أشترك معهما فى النزهة » .

فأجاب بيهارى : « بل هـذا ليس من الظـلم فى شىء ؛ فأنت اذا لم تصحبهما فسوف تتحول نزهتهما الى حالة من الارتبـاك لا يتمناها الانسان حتى لعدوه » .

فتوسلت اليه بنودينى : « ولم لا تذهب أنت يا سيد بيهارى ؟ فأنت اذا ذهبت ذهبت أنا كذلك » .

— « اقتراح جميل . ولكن البيت يجب أن تدار شئونه كما يريد ربه ، فماذا يقول رب البيت ؟ » .

ولم يتمالك رب البيت وربته الا أن يمتعضا من هذا التحيز الذى

لا مبرر له نحو بيهارى ، وتبخرت نصف حماسة ماهندرا عندما سمع أن بيهارى قد يشترك فى النزهة فقد كان يحاول جاهدا أن يفهم بيهارى أن بنودينى لا ترحب بصحبته ، وها هى الآن تدعوه بنفسها ، وسوف يكون من المستحيل بعد هذا أن يسيطر على بيهارى .

ولكنه قال فى العلن : « سيكون اشتراكك شيئا جميلا ، ولكن من عادتك يا بيهارى اثارة المشاهد أينما ذهبت ، وأخشى اما أن تجمع أطفال القرية حولنا أو تسبب شجارا مع رجل أبيض » .

وفهم بيهارى أن ماهندرا كان متبرما به فى السر فأجاب : « هذه هى متعة الحياة فأنت لا تعرف اطلاقا ماذا يخبئه المستقبل ، ولا أين ستثار الضجة التالية » . ثم التفت الى بنودينى وقال : « يجب أن نبدأ عند الفجر يا بنودينى ، وسوف أكون هنا فى الموعد » .

وأمر باعداد عربتين احداهما درجة ثالثة للخدم والأمتعة والأخرى درجة ثانية للأسرة ، لتكونا جاهزتين فى صبح الأحد .. ووصل بيهارى فى الموعد المحدد ومعه سلة كبيرة للرحلات .

فسأله ماهندرا : « ما هذه السلة ؟ ألا يوجد لها مكان فى عربة الخدم ؟ » .

فأجاب بيهارى : « لا تقلق يا أخى ، سوف أعنى بكل شىء » .

وركبت آشا وبنودينى العربة وتردد ماهندرا وهو لا يدرى ماذا يفعل بشأن بيهارى أما بيهارى فقد ألقى بالسلة الى أعلى العربة وقفز الى سقفها ، فزفر ماهندرا تنهيدة تنسم بالراحة النفسية وتنفس الصعداء اذ كان يخشى أن يجلس بيهارى داخل العربة ، فهو قادر على أى شىء ، ولكن بنودينى اضطربت وقالت فى قلق : « أرجو ألا يقع » .

وسمع بيهارى ملاحظتها فقال : « أرجو ألا تقلقى ، فليس من عادتى الوقوع من اغماءة أو فى خلال اغماءة » .

وبعد أن بدأت العربة سيرها قال ماهندرا مشاكسا : « اذا كنت قلقة على بيهارى بهذه الصورة فدعينى أصعد الى مقعد السائق وأرسل بيهارى الى داخل العربة » .

فقالت آشا فى ذعر وقد أمسكت بشاله : « لا ! لا ! لا يمكن أن تذهب » .

وأضافت بنودينى : « انك لم تعتد الخشونة وقد تسقط فلا داعى للمخاطرة » .

فصرخ ماهندرا مضطربا : « أسقط ؟ كلا ، ثم تحرك كما لو كان يريد أن ينهض من مكانه » .

فقالت بنودينى : « لقد اتهمت السيد بيهارى بأنه يحدث ضجة ويثير المشاهد ولكن يبدو أنك أنت الماهر حقيقة فى افتعال ذلك » .

وضجر ماهندرا من كلامها وقال : « حسنا ، دعينى آخذ عربة منفصلة وأدع بيهارى يحضر ويجلس معكما » .

فقالت آشا : « سوف آتى معك فى هذه الحالة » .

فقالت بنودينى بسلاطة لسان : ثم يكون على أن أقفز من العربة .

وساد السكون بعد هذه السورة ، وتجهم وجه ماهندرا بشدة طيلة الطريق حتى وصلت العربة الى حديقة دم دم . ولم تكن عربة الخدم التى بدأت قبلهم قد وصلت بعد .

كان الصباح الخريفى جميلا غاية الجمال ، ومع أن الندى على الأرض كان قد جف فى الشمس المشرقة فقد ظلت الأشجار والأعشاب تلمع فى

الضوء الرقيق ، وكان يقوم حول سور الحديقة صف من أشجار السينالى فرشت الأرض ببراعمها المتناثرة فملأت الهواء عطرا منعشا .

وشعرت آشـا وقد تحررت من سجن كلكتا المصنوع من الطوب والمونة ، بالطرب وأخذت تلهو وتمرح كأنها غزال يرى ثم أمسكت ببنودينى وراحتا تجمعان أكواما من الزهور وتقطفان تفاحا ناضجا ثم جلستا تأكلانه تحت الشجرة ، وقفزت الصديقتان بعد ذلك فى البركة ومكثتا فى المـاء مدة طويلة . وقد ملأ مرحهما البسيط التلقائى الخلاء كله بالمتعة فبدا وكأنه انعكس على حركة الضوء والظلال ، تحت الأشجار ، وفوق الماء ، وفى السيقان الرقيقة المحملة بالزهور .

وعندما عادت الصديقتان بعـد السباحة اكتشفتا أن عربة الخـدم لم تصل بعد . وكان ماهندرا جالسا على مقعد فى الفراندة يقرأ اعلانا أجنبيا وقد بدا صورة حية للكآبة .

وسألت بنودينى : « أين الأخ بيهارى ؟ » .

فأجابها فى اقتضاب : « لا أدرى » .

فقالت بنودينى : « دعنا نذهب لنبحث عنه » .

فقال ماهندرا « لا خوف عليه من أن يسرق ، وسوف يعود من غير بحث عنه » .

— « لعله يبحث عنك بجنون خشية أن تكون الجوهرة الثمينة قد فقدت ومن الضرورى أن نريحه » .

وقد وجدوا بيهارى تحت شجرة ضخمة من أشجار البانيون (*) تقوم الى جانب بركة ، وكان حول جذع الشجرة مقعد مبنى فتح بجانبه السلة وأخذ يسخن الماء على موقد غاز . وقد رحب بالجماعة وجعلهم يجلسون

(*) شجرة الجميز الهندى .



على المقعد وسرعان ما قدم لكل منهم فنجانا من الشاى الساخن وطبقا مملوءا بالحلوى ، فأخذت بنودينى تكرر : « شكرا لله أن السيد بيهارى له من بعد النظر ما يجعله يأتى وهو على أتم الاستعداد ، وماذا كان سيد ماهندرا يستطيع أن يعمل دون الشاى ؟ » .

والواقع أن فنجان الشاى أنعش ماهندرا ولكنه مع ذلك قال : « ان بيهارى دائما يغالى فى كل شىء ويحاول أن يكون مسرحيا . لقد جئنا هنا

فى نزهة بسيطة ، وها هو ذا بكل أدواته الشخصية المعقدة ، ان ذلك يفسد المرح » .

فضحك بيهارى وقال : « حسنا ، دعنا نعيد فنجان الشاى ، ولك أن تستمتع بمرحك على الرحب دونه ، ولن نقف فى طريقك » .

وتقدم النهار ولم تصل عربة الخدم ، ففتح بيهارى سلته وأخرج كل ما بها من غداء أعده اعدادا تاما — أرز وخضر وتوابل مطحونة طحنا ناعما وضعت فى زجاجات صغيرة . فحملقت بنودينى فى دهشة وصاحت : « سيد بيهارى ! لقد أخجلتنا نحن النساء ، أين تعلمت كل هذا ولا يوجد فى بيتك أحد ؟ » .

وابتسم بيهارى وقال : « لقد علمتنى الحاجة ، فما دمت لا أجد من يعنى بى فلا مفر من أن أعنى بنفسى » .

ومع أن نغمة بيهارى كانت تتسم بالذلاقة فقد نظرت اليه بنودينى نظرة جادة وفى عينيها الرقيقتين شفقة وحنان .

وشغلت بيهارى وبنودينى نفسيهما فى الطبخ ؛ وحاولت آشا وهى فى خجل من نفسها أن تساعدهما ولكن بيهارى لم يدعها تقوم بشيء ، أما ماهندرا فلم يعرض حتى المساعدة ، وانما اضطجع الى جذع شجرة ومد رجلا فوق أخرى وبدأ يراقب حركة ضوء الشمس من خلال أوراق البانيون المرتعشة .

فلما كاد الطهو ينتهى نادته بنودينى : « يا سيد ماهن ، انك لن تستطيع عد جميع أوراق الشجرة . والأفضل أن تنهض وتستحم » .

وأخيرا وصلت عربة الخدم بعد الظهر وكانت قد تعطلت فى الطريق .

وقد اقترح أحدهم بعد الأكل أن يلعبوا الورق فى ظل الشجرة ، ولكن ماهندرا رفض أن يشترك فى اللعب وسرعان ما نام ؛ ودخلت آشا الايوان

ورقدت لتستريح ، وتظاهرت بنودينى بالنهوض ورفعت طرف ساريها فوق رأسها وقالت : « دعنى أدخل أنا الأخرى » .

فقال بيهارى : « ولم ذلك ؟ لم هذه السرعة ؟ أرجوك أن تجلسى وتحدثينى عن بيتك فى القرية » .

ومن حين الى آخر كانت هبات من نسيم بعد الظهر الدفء تصدر حفيفا خلال الأوراق المتدلاة فى حين أخذ الكويل ينادى من فوق شجرة عند طرف الماء . وبدأت بنودينى بقصة طفولتها ثم قصة والديها وزميلاتها فى اللعب ، وبينما كانت تسترجع ذكريات تلك الأيام انزلق الحجاب الذى كان مسدولا نصفه من فوق رأسها ؛ فبدا جمالها بما فيه من اثارة للحواس وكأنه قد رق وزادت نعومته . كذلك عيناها السوداوان المخملتان ، اللتان كانتا تشعان عادة بنظرة ساحرة لعوب كان بيهارى الداهية يخشاها ولا يطمئن اليها ، قد تخضبتا الآن برقة هادئة لطيفة جعلت بيهارى يشعر كأنه ينظر الى شخص مختلف كلية عن بنودينى . وبدا خلف سحر جمالها قلب ما زال ينبض بأحاسيس طاهرة عفة ؛ فان المرأة التى فيها لم تجف بعد فى حرارة المرح الطائش الذى لا يشبع نهمه ولم يكن بيهارى طيلة هذه الأيام جميعها قد تخيل بنودينى ولو للحظة واحدة زوجة محبة طاهرة أو أما تضم رضيعها الى صدرها برقة وحنان — أما اليوم ولأول مرة فقد بدا أن الممثلة العظيمة التى تقف على المسرح وقد اختفت وكشفت عن المرأة فى وضعها البسيط الأنيس ، ودهش بيهارى — دهش دهشة الرضى ، وبعد أن تنهد تنهيدة عميقة قال لنفسه : « ان بنودينى تبدو فراشة مرحة ولكن فى أعماقها يحترق ضوء امرأة تقية مخلصة . يا لقلة ما نعرف حتى عن أنفسنا ! اننا نطابق الشخص بشخصيته السطحية الظاهرة التى تكشف

عند مجموعة معينة من الظروف ، أما الانسان عـلى حقيقته فلا يعرفه الا الخالق » .

واحتفظ بيهارى بأفكاره لنفسه وأخذ يشجع بنودينى على أن تستكمل ذكرياتها بأسئلة كان يوجهها اليها كلما توقفت فى توقيت مدهش . ولم تكن بنودينى قد وجدت مثل هذا المستمع من قبل ، ولم تكن قد أتيحت لها الفرصة للتحدث الى رجل بحرية وبعدم شعورها بذاتها فخلعت عنها ، وهى مستغرقة فى سردها ، كل تحفظ ودلال ، وتكلمت ببساطة وبطريقة طبيعية وباخلاص حتى تطهر عقلها من التوتر وشعرت بالنظافة والهدوء والقناعة كالأرض الجافة بعد الأمطار الجديدة .

كان ماهندرا قد استيقظ من الفجر ، ولذا فقد شعر بالتعب فلم يستيقظ من نومه الا فى الساعة الخامسة بعد الظهر .

وما أن استيقظ حتى قال بفظاظة : « دعونا نتحرك » .

فاقترحت بنودينى : « ولم لا ننتظر حتى الغروب ؟ » .

فأجاب ماهندرا باقتضاب : « لا ، ولم نخاطر بأن يلتقى بنا جندى أبيض سكير ؟ » .

وما كاد يحزم كل شيء حتى كان الغسق قد بدأ يرخي سدوله ، وجاء الخدم وقالوا ان العـربة قد اختفت وان جنديين من البيض قد أجبرا السائق على أن يذهب بهما الى محطة السكة الحديد . ومن ثم فقـد أرسلوا خادما ليبحث عن عربة أخرى . وقلق ماهندرا ولم يستطع أن يخفى ضجره واستمر يكرر لنفسه : « يا له من يوم مشئوم ! » .

وأخذ القمر ينتشل نفسه تدريجا من شبكة الأشجار التى كانت تطرز الأفق وبدأ يصعد فى خفة ورشاقة فى السماء الصافية وهو يلقى بضوئه وظله على الحديقة الساكنة فأضاء ادراك هذا الجمال اللادنيوى لبنودينى

وجها مختلفا كلية عن كيانها الحقيقى ، وفى غمرة المحبة الصـادقة التى لا تظاهر فيها أمسكت بآشا وهما تقفان تحت احدى الأشجار واحتضنتها بشدة . ولاحظت آشا الدموع فى عينى بنودينى فسألتها بقلق « لم تبكين يا عزيزتى رمداء العين ؟ » .

فابتسمت بنودينى وقالت : « لا شىء ، لقد كان يوما مدهشا ! » .

— « وماذا كان مدهشا فيه ؟ » .

— « اننى أحس كما لو كنت قدمت ، واننى الآن فى كوكب آخر يمكن أن يكون كل شىء فيه ملكى » .

ولكن هذا كان أبعد من أن تستطيع آشا أن تدركه فذهلت وآلمتها الاشارة الى الموت فقالت : « أرجوك يا عزيزتى رمداء العين ألا تتكلمى مرة أخرى فى مثل هذه الموضوعات » .

وأخيرا أحضرت عربة وأخذ بيهارى مكانه فوقها كما حدث من قبل ، ولم تتكلم بنودينى خلال الرحلة بل ظلت تلاحظ فى سكون منظر الأشجار التى تقف كحرس ظلى لضوء القمر وهى تجرى بسرعة ، ونامت آشـا ولكن ماهندرا ظل محتفظا بتجهمه .

١٧

كان ماهندرا متحمسا لاسترجاع الأرض التى فقدها خلال تلك النزهة المشئومة واسترداد اعتباره فى تقدير بنودينى ، ولكن راجلاكشمى كانت قد أرقدتها الانفلونزا فى اليوم التالى ، وبالرغم من أن المرض لم يكن شديد الوطأة فقد قاست كثيرا من الضعف والتعب ، وكانت بنودينى تمرضها ليلا ونهارا .

واحتج ماهندرا قائلا : « لو أنك ظللت هكذا ليلا ونهارا دون راحة فلسوف تقعين أنت نفسك فريسة للمرض ؛ فدعينا نستدعى ممرضة » .

فقاطعه بيهارى قائلا : « لا تقلق يا ماهندرا ، دعها تقوم بواجبها كما تحب فمن ذا الذى يستطيع أن يقوم بنصف ما تقوم به ؟ » .

واستمر ماهندرا ينسل الى حجرة المريضة ولم تكن بنودينى ، على قدرتها وكفاءتها ، تستطيع أن تحتمل شخصا يدور حولها باستمرار دون فائدة ، فتكلمت اليه بحدة أكثر من مرة قائلة : « ما فائدة تحومك حولنا يا أخى ماهن ؟ أرجوك أن تذهب الى كليتك حتى لا تفوتك دروسك » .

وبالرغم من أن بنودينى كانت تطرى من عناية ماهندرا ويسرها اهتمامه بها فقد امتعضت وثارت نفسها عندما وجدته يحقر نفسه الى حد أن يغمز لها بعينه غمزة شرهة وهو يقف بجوار فراش أمــه المريضة ، وكان من سجاياها أنها اذا أخذت على عاتقها عملا كرست له نفسها وعقلها ناسية كل شىء آخر ، كما كانت موسومة فى عنايتها بالمريضة تهتم بكل صــغيرة وكبيرة فى تمريضها واطعامها ولا تسمح لشىء فى الخارج أن يلهيها عن عملها .

وتألم ماهندرا من هذا التأنيب وبدأ يذهب الى الكلية كنوع من الثأر ؛ وكان مزاجه فى حالة حادة من التهيج زادتها الفوضى المتجددة فى روتينه المنزلى شدة فالطعام لم يعد يقدم له فى مواعيده ، والسائق كان يختفى باستمرار عندما كان يحتاج اليه ، والثقوب فى جواربه زادت اتساعا ، والفوضى التى كان يجدها من قبل مسلية لم تعد كذلك ، بعد أن تذوق نعيم الراحة يقدم اليه سهلا ميسورا كما لو كان على صحفة من فضة ، وكفت تفاهة آشا ورعونتها عن أن تكون مصدر مرح وتسلية له لا نهاية لهمــا .

وأخيرا انفجر فيها قائلا : « كم مرة قلت لك يا تشونى ان ملابسى يجب أن تعـد وان الأزرار يجب أن تخاط فى قميصى قبـل أن أذهب لأستحم ؟ انك لم تفعلى شيئا من ذلك ولو مرة واحدة فأقضى ساعتين أبحث فيهما عن ملابسى بعد الحمام وأحاول أن أخيط أزرار القميص بنفسى » .

وشحب لون آشا من الخجل والندم وتلعثمت قائلة : « لقد طلبت الى الخادمة أن تقوم بذلك » فسخر منها ماهندرا وقال : « قلت للخادمة ؟ ألا تستطيعين أن تقومى بذلك بنفسك ؟ ألا تستطيعين أن تكونى مفيدة بأى شكل من الأشكال » .

وأرتج على آشا ، فلم تكن قد أنبت قبل ذلك بمثل هذه الصورة ، ولم يدر فى خلدها أن ترد عليه وأن تقول له : « انك أنت الذى لم تدعنى أتعلم » . اذ لم تكن أمامها فرصة لتدرك أن ادارة البيت — شأنها شأن غيرها من الفنون — مسألة مران وخبرة ، وكانت تقاسى الى جانب ذلك من عقدة نفسية هى أنها بفطرتها بطيئة الفهم ، تافهة ، لا تستطيع أن تحسن القيام بعمل ما ، حتى لقد كانت فى المناسبات التى ينسى ماهندرا فيها نفسه ويحقرها أمـام بنودينى ، تتقبل التقريع فى ذلة وهوان دون أى حقد أو ضغينة .

وكثيرا ما كانت آشا تحوم حول حجرة حماتها المريضة ، بل وكانت تتلكأ بخجل عند الباب تحاول يائسة أن تكون مفيدة بطريقة ما ، فلقد كانت شديدة الرغبة فى أن ترى أنه يمكنها عمل شىء ما ، ولكن لم يكن هناك من يبغى مساعدتها ، ولم تكن من جانبها تعرف كيف تتحبب أو تشق طريقها أو تطالب بمكانها الشرعى فى البيت ، وهكذا قضى عليها تواكلها أن تتلكأ خارج عتبة الباب . لقد كان هناك ألم لا تدرى كنهه ينمو ويقلقها

فى داخلها ، لم تدر ما هو، ولم تفهم لم كانت تخشاه ، فقد شعرت أن كل شىء كان يتحطم أمامها ، ولكن ما هو ذلك الذى كان يتحطم ، وكيف بنى وكيف يفكك وكيف يعاد تركيبه ؟ كل ذلك لم تستطع أن تفهمه ، وكل ما كانت تعرفه هو أنها كانت تتشوق الى البكاء بصوت عال وأن تصيح قائلة : « أنا تافهة ، لا فائدة منى اطلاقا ؛ غبية غبـاء لا يمكن تصديقه ! » .

كم كانت مدهشة تلك الأيام القديمة عندما كانت تجلس هى وماهندرا جنبا الى جنب ساعة بعد ساعة يتحدثان أحيانا ويصمتان أحيانا ، ولكنهما كانا دائما سعيدين يندمج أحدهما فى الآخر . والآن يجد ماهندرا من العسير عليه أن يستمر فى الحديث وجها لوجه فى غياب بنودينى بل ويجد السكون أشد حرجا .

سأل ماهندرا الخادم : « خطاب من هذا ؟ » .

— « انه للسيد بيهارى » .

— « من أعطاه لك ؟ » .

— « السيدة الصغيرة يا سيدى (يقصد بنودينى) » .

— « دعنى أراه » .

وأخذ ماهندرا الخطاب وشعر باغراء مؤلم على أن يفض المظروف ويقرأ ما به ، ولكنه رمى به ثانية فى يد الخادم بعد أن نظر اليه عدة مرات ، ولو فتح المظروف لقرأ بداخله ما يأتى : « ترفض عمتى رفضا تاما أن تشرب ماء الشعير بعـد الآن . فهل يمكن أن أقدم لها شرابا آخر ؟ » لم يسبق لبنودينى أن استشارت ماهندرا فيما يختص بعلاج أمـه أو اطعامها أبدا وها هى تعتمد اعتمادا كاملا على نصيحة بيهارى .

وبعد أن خطا ماهندرا فى الشرفة عدة خطوات دخل حجرته فوقع بصره

على صورة على الحائط غير مستقيمة وحبلها يكاد ينقطع فصرخ فى وجه آشا « لا شىء يلفت نظرك اطلاقا . هذه هى الطريقة التى تدمرين بها كل شىء » .

وكان أصيص الزهور النحاسى ما زال يحمـل الزهور الذابلة التى أحضرت من حديقة دم دم يوم النزهة ونسقتها بنودينى يومها تنسـيقا بديعا . ولم يكن من عادة ماهندرا أن يهتم بملاحظته ولكنه اليوم لاحظه وقال فى لهجة لاذعة : « أظن أن الزهور ستظل هنا حتى تأتى بنودينى وترميها » . ثم التقط الأصيص ورمى به على منبسط الدرج فهوى يصلصل بمرح على درجات السلم . وفكر ماهندرا غاضبا : « لم لا تكون آشا كما أريدها أن تكون ؟ لم لا تستطيع أن تعمـل أى شىء بصـواب ؟ لم لا تجذبنى اليها بشدة بدلا من أن تجعلنى أشمئز من هـذه الحيـاة الزوجية بتفاهتها ورعونتها ؟ » وبينما كانت هذه الأفكار تدور فى رأسه لاحظ أن وجه آشا قد شحب شحوب الموت وأخذت شفتاها ترتجفان وقد أمسكت بعمود السرير وهى ترتعش من رأسها الى أخمص قدميها وفجأة جرت خارجة من الحجرة .

وأفاق ماهندرا لنفسه ونزل بهدوء ليسترجع الأصيص ثم جاء وجلس على الكرسى بجوار المكتب ، وظل هناك وقتا طويلا يخفى وجهه فى يديه .

وفى المساء أضيئت المصابيح ولكن آشا لم تظهر فى أى مكان . وصعد ماهندرا الى شرفة السطح وبدأ يمشى جيئة وذهابا .. ودقت الساعة التاسعة ولم تعد آشا . وبدا سكون طيفى كسكون منتصف الليل يخيم عـلى حجرة النوم المهجورة ، فأرسل أخيرا فى طلب آشا التى جاءت ووقفت بعصبية عند مدخل الباب . وذهب اليها ماهندرا وضمها الى صدره فانفجرت تبكى ورأسها مسند الى صدر زوجها ، وبدا كأن النشـيج لن ينتهى

والدموع لن تجف ؛ وضمها ماهندرا بشدة وقبل شعرها ، واستمرت النجوم فوقهما فى يقظة ساكنة .

وقال ماهندرا فى ساعة متأخرة من الليل وهما فى الفراش : « لقد جاء دورى فى نوبة الليل فى مستشفى الكلية ، وأخشى أن أضطر الى الانتقال الى مسكن قريب من الكلية فترة ما » . وتساءلت آشا « أما زال غاضبا منى ؟ ما أتعسنى ان أنا أبعدت زوجى من المنزل . لقد كان الأفضل لى أن أكون ميتة » .

ولكن لم يكن هناك أثر للغضب فى سلوك ماهندرا تلك الليلة ، لقد أمسك برأس آشا فى عناق صامت وأخذ يداعب شعرها برقة وهو يفك ضفيرتها من الخلف ، لقد كانت عندما كان يداعب شعرها ويشوشه تحتج ، أما الليلة فقد ارتجفت من السرور ولم تقل كلمة واحدة ، وفجأة شعرت بدمعة تسقط على جبهتها ورفع ماهندرا رأسها بلطف وهمس بحب : « تشونى » ومدت آشا ذراعيها الرقيقتين وازدادت تعلقا بزوجها دون أن تجيب . وقال ماهندرا : « لقد أخطأت يا تشونى ، فأرجو أن تغفرى لى » .

وهمست آشا بسرعة وهى تغلق فمه بيدها : « لا ! لا ! لا تقل ذلك فأنت لم تخطىء ، وانما المخطىء هو أنا ؛ وأرجو أن تعاقبنى كما تريد لتجعلنى جديرة بك » .

وفى الصباح الباكر همس ماهندرا قبل أن يغادر الفراش : « تشونى يا عزيزتى يا جوهرتى ستكونين دائما الأولى فى قلبى ؛ ولن يستطيع أحد أن يعزلك عن قلبى » .

وطربت آشا حتى شعرت بأنها قادرة على أية تضحية ، ومع ذلك فقد كان هناك رجاء بسيط رجته .

— « عدنى أنك ستكتب كل يوم » .

— « وأنت أيضا » ، قالها ماهندرا فى اصرار .

فتوسلت آشا — « انك تعرف أننى لا أستطيع الكتابة » .

فأجاب ماهندرا وهو يجذب حزمة الشعر فوق أذنها برقة : « انك تستطيعين أن تكتبى أفضل حتى من آكشاى كومار دوتا [1] . ان كتابتك ستجعل القراءة سارة فعلا » .

فأنبته آشا بدلال : « لا تكن كثير المعاكسة ! » .

وشغلت آشا نفسها بعد ذلك بحزم حقيبة ماهندرا . ولم يكن من السهل طى ثياب الشتاء الثقيلة حتى تأخذ مكانا صغيرا فيها ، ولكن الزوج وزوجته تمكنا بطريقة ما من أن يضعاها فى صندوقين مليئين وكان يكفى صندوق واحد ، وكانت هناك بعض الملابس التى لم توضع بعد فاضطر الى ربطها فى حزم عديدة منفصلة . واذا كانت آشا قد ارتبكت وشعرت بالذلة لعدم مهارتها فسرعان ما نسيت كل ذلك فيما سببه الدفع والمعاكسة والضحك من أحدهما الى الآخر من اثارة سعيدة . كانت لحظة من لحظات الأيام القديمة — لقد كانت الآن جذلة وسعيدة حتى نسيت تماما أن هذا الحزم كان مقدمة لفراق مؤلم ، وأرسل السائق عدة مرات يقول ان العربة على استعداد للرحيل ولكن ماهندرا كان أصم لا يسمع فى تلك اللحظة ، وأخيرا عيل صبره وأمر أن يفك الحصان .

وتقدم الصباح وأصبح الوقت ظهرا ثم أصبح الظهر مساء ، وكان العاشقان ما زالا فى عناق أحدهما الآخر ، كل منهما يطلب من الآخر أن

---

(1) مؤلف Charu Path ، وهو كتاب مطالعة للأطفال الذى كان ماهندرا يقرؤه على آشا والعنوان الحرفى للكتاب هو « القراءة السارة » ومن هنا كانت التورية .

يعنى بصحته أو بصحتهما وأن يكتب بانتظام ، ثم يكرران الرجاء مرة بعد المرة حتى لم يعد هناك كلام . وأخيرا انفصلا .

وكانت راچلاكشمى قد تركت فراش المرض من يومين بعد أن شعرت بتحسن وتدثرت بشال سميك وجلست تلعب الورق مع بنودينى عندما دخل ماهندرا الحجرة فجأة فى المساء . وقال لأمـــه دون أن ينظر الى بنودينى : « أماه ، عندى عمل فى مستشفى الكلية وسأغيب بضعة أيام » .

فأجابت راچلاكشمى وهى مستاءة الى حد ما : « حسنا يا بنى ، انك لا تستطيع أن تهمل دراساتك » .

ومع أن السيدة كانت قد شفيت الآن تماما فقد شعرت فجأة أو هى خيل اليها أنها تشعر بالضعف ، وطلبت من بنودينى أن تضع لها وسادة ثم رقدت ، وأخذت بنودينى تدلك قدميها بلطف . ولمس ماهندرا جبهة أمه وحاول أن يجس نبضها ، ولكنها دفعت يده وهى تتمتم منزعجة : « ماذا يمكنك أن تعرف من النبض ؟ اننى بخير ولا عليك من القلق » ، ثم استدارت ورقدت على جانبها الآخر وبدا عليها الوهن .

ومس ماهندرا قدمى أمـــه وترك الحجرة دون أن يعير بنودينى أى اهتمام .

١٨

عجبت بنودينى ماذا يكون السبب : أهو كبرياء مجروح . أم غضب . أم مجرد خوف ؟ هل هو يحاول أن يتظاهر بأنه لا يهتم بى ؟ دعنا ننظر الى متى يستطيع أن يستمر هكذا .

وبالرغم من كل ذلك فقد كانت متبرمة حانقة ، فقد شعرت الآن بالسأم والملل ولم يعد البيت يثير فيها الاهتمام كما بدت آشا من غير ماهندرا

سخيفة لا طعم لها . لقد حرمت روحها المتعطشة الى الحب من الاثارة التعويضية التى كانت تحس بها وهى ترقب مأساة الحب الزوجى وتساعد على اشعالها ، ومع أنه كان من المؤلم ملاحظة هذه اللعبة — لأنها أيقظت فيها أشواقها الجامدة المكبوتة — فقد كان لها بالنسبة لبنودينى أثر بسحر الشرير .

ولم تنضح لها طبيعة شعورها بالنسبة لماهندرا ، فلم تكن قد نسيت بعد أنه كان قد رفض أن يتزوجها فحرمها حقها فى الحب والسعادة ، لقد لفظ موهبتها القيمة وتزوج فتاة حمقاء ذات رأس خاو كآشا . فهل كرهته لذلك وبحثت عن الانتقام لما أصابها ، أو أحبته وأرادت أن تقدم نفسها له فى استسلام ؟ كل ما كانت تعرفه هو أن لهيبا شديدا كان يعتمل فى داخلها ، ولكنها لم تستطع أن تتبين ان كان هذا اللهيب لهيب كراهية أو لهيب حب أو مزيجا منهما . وكانت تبتسم لنفسها بمرارة وتقول : « هل سبق أن وجدت نفسها فى مثل هذا المأزق ؟ ترى هل أريد أن أموت أو أحطم وأدمر ؟ هل أنا الصياد أو الصيد ؟ كم أتمنى أن أعرف ذلك ! » ولكن سواء أكانت تريد أن تحرق أم أن تحترق لقد كانت تعرف جيدا أنها تريد ماهندرا ، وأن سهمها المشتعل سوف يصيبه عاجلا أو آجلا ، ولا مفر له من ذلك اذ لابد أن يعود اليها .

وتسلم ماهندرا بمجرد رحيله عن البيت خطابا سطر بيد مألوفة لديه ، احتفظ به فى جيب صديريته لأنه لم يشأ أن يفتحه فى ضوضاء النهار وضجيجه ، وبينما كان يصغى الى محاضرة أو يقوم بجولة فى مستشفاه كان يشعر شعورا لذيذا كما لو كان طائر الحب يستريح فى عشه داخل قلبه ، وعندما يوقظه فى ساعة متأخرة من النهار سوف يشدو بموسيقاه العذبة فى أذنه .

وفى المساء عندما كان بمفرده استلقى مسترخيا فى كرسيه والمصباح بجواره ثم أخرج الخطاب من جيبه وقد أدفأته حرارة جسمه ، وأخـذ ينظر الى العنوان على المظروف مدة طويلة دون أن يفضه . كان يعرف أنه لن يجد بداخله شيئا كثيرا فان آشا المسكينة لم تكن تعرف كيف تعبر عن شعورها كتابة ولكن خياله سوف يعيد تكوين حديث قلبها اليه من خط يدها الطفلية المرتج ، وعندما نظر الى اسمه على الظرف وقد كتب بعناية فائقة بخط طفلى شعر بأنه يصغى الى ايقاع صامت تخرج موسيقاه الجميلة من ضربات قلب محب طاهر .

كان الانفصال الوجيز عن زوجته قد أراحه من غثيان تخمة الحب وأنعش فيه ذكريات نشوتهما الجارفة الأولى . لقد نسى غضبه من تفاهة آشا ورعونتها ولم يذكر الا وجهها الحلو الذى يشع بحب مبرأ من كل المطالب الدنيوية . وفتح المظروف برقة وضغط الخطاب بجبهته فأحس بشذى فجائى كأنه زفرة من زفرات الهيام ذكره بزجاجة العطر التى قدمها هدية لها ، وعندما فتح الخطاب وقرأه تملكته الدهشة ، فالخط غير الناضج كان خط آشا ، أما اللغة فليست لغتها بل انها لا يمكن أن تكون لغتها ! وقرأ :

« يا أعز الأعزاء ، لمَ يحتاج هذا الخطاب الى أن يجبرك على ذكر من بعدت عنها لكى تنساها ؟ لماذا يرفع النبات المتسلق ، الذى مزقته اربا وألقيت به جانبا ، رأسه من التراب ويحاول دون خجل أو حياء أن يتعلق بك مرة ثانية ؟ » .

ومع ذلك ، فهل يصيبك ضرر لو أنك فكرت فيها ولو لحظة وجيزة ؟ انها لن تكون الا فكرة عابرة ، أما بالنسبة لى فان عدم مبالاتك أشـبه بشوكة فى جانبى — تؤلمنى فى أى اتجاه أتجه اليه ، ليلا أو نهارا ، فى العمل

أو فى وقت الراحة ، فأرجوك أن تعلمنى فن النسيان ، ذلك الفن الذى تحذقه كل الحذق » .

« هل كان كل خطئى أنك أحببتنى مرة ؟ اننى لم أجرؤ على أن يكون لى أمل فى مثل هذه السعادة — ولا حتى فى المنام — فمن أكون ؟ فتاة تافهة حقيرة .. فلو أنك لم تتنازل بالنظر فى وجهى ، أو أننى كنت مجرد خادمة فى بيتك دون أجر لما كان لى سبب أو حق فى الشكوى ، ولكنك أنت نفسك الذى التقطتنى من التراب ورفعتنى عاليا — فلمَ كان ذلك ؟ لست أدرى . ماذا رأيت حتى فى سحرك هذا السحر ؟ واذا كان قدر على أن تنزل على صاعقة من السماء الصافية فلم لا تزيد على أن تلسعنى ؟ ثم لا تنسفنى جسما وعقلا تجعلنى رمادا ولا تدع شيئا يبقى بعد ذلك ؟ » .

« كم قاسيت ، وكم فكرت خلال هذين اليومين الماضيين ! هناك شىء واحد لا أستطيع أن أفهمه — ألم يكن من الممكن أن تستمر فى البيت وتتجاهلنى ؟ لمَ تركت البيت بسببى ؟ هل كنت شوكة فى جنبك ؟ هل كنت وباء فتعذر عليك أن تسمح لى بالبقاء فى ركن من أركان بيتك أو حتى خارج بابه ؟ وحتى لو كنت كذلك ، فقد كان يمكن أن أطرد ، فلمَ اذن اضطررت الى أن تنفى نفسك ؟ لقد دخلت حياتك وأنا حطام يطفو على سطح الماء ، ولو أردت لبعدت عنك كما يطفو الحطام بعيدا عن الشاطىء » .

يا له من خطاب ! لم يكن من العسير أن يفهم ماهندرا لغة من هذه . واستمر جالسا والخطاب فى يده كمن فقد الرشد . لقد كان عقله فى الأيام القليلة الماضية كقطار يجرى بأقصى سرعته فى اتجاه معين ولكنه لم يدرك أن الهدف الذى كان يبغى الوصول اليه كان هو كذلك يتحرك فى الاتجاه المضاد على نفس الطريق ، حتى ألقى به التصادم الفجائى من فوق القضبان فرقد هناك كومة هامدة من ادراك سلبت منه حاسته .

وجلس فترة طويلة غارقا فى التفكير ، ثم قرأ الخطاب مرتين وثلاثا ، فشعر بأن ما كان أشبه بخيال بعيد قد اتخذ تدريجا شكلا محسوسا ، وأن المذنب الذى كان يبدو من قبل كبقعة معتمة فى ركن من أفق حياته قد أشعل ذنبه النارى فى كبد السماء .

لا شك فى أن الخطاب هو خطاب بنودينى ولو أن آشا الحمقاء هى التى سطرته على أنه خطابها ، ولقد بدأت فعلا ؛ وهى تصغى الى املاء بنودينى ، تحس بالعواطف التى عبر عنها خطابها وبدا ما بها من بكم وكأنه انقلب فصاحة جارفة ، لقد أضفت كلمات بنودينى على ألمها شكلا ، ذلك الألم الذى كانت تحس به ولا تستطيع أن تعبر عنه . لقد قالت لنفسها :

« يا لهـا من صـديقة مدهشة ، تخمن سر قلبى وتعكسه جيـدا وباخلاص ! » .

وتضاعف وفاؤها لبنودينى وشعرت أكثر من ذى قبل بأنها تعتمد على امرأة هى القوة الرافعة لأفكارها الباطنة .

ونهض ماهندرا من مقعده وقد تجهم وجهه وحاول أن يسخط على بنودينى ، ولكنه كان كلما حاول ذلك ازداد سخطه على آشا بدلا من بنودينى وأخذ يردد : « يا له من امتحان للزوج ! » — ثم غاص فى مقعده وقرأ الخطاب مرة أخرى ، وكان كل مرة يقرأ فيها الخطاب يشعر باثارة خفية من الزهو والكبرياء ، وقد بذل جهده فى أن يتخيل أن ما كان يقرؤه هو كلام آشا ، ولكنه وجد ذلك مستحيلا عليه ، فما أن قرأ سطرين حتى ظهرت فقاعات من شك لذيذ كالنبيذ المزبد يمحو صـورة آشا ، وقد أسكره ترقب حب خفى وواضح فى وقت واحد ، مدبر ومقبل ، سـام وحلو ، حب كان مستسلما ومتحديا . وتمنى لو طعن نفسه بسكين أو قام بعمل فعال يقضى به على فترة هذا السكر ويساعده على أن يتجه بعقله

وجهة أخرى . وضرب بقبضة يده على المنضدة ، وصاح وهو يقفز من مقعده : « لا أبالى ، ولسوف أحرق الخطاب ! » وقرب الخطاب من المصباح ، ولكنه بدلا من أن يحرقه أعاد قراءته مرة أخرى .

وعندما نظف الخادم الحجرة فى الصباح التالى وجد رمادا كثيرا ، لم يكن بقايا خطاب آشا وانما بقايا عدة ردود لم تستكمل ؛ كان ماهندرا قد حاول أن يكتبها بالليل !

١٩

ووصل اليه خطاب آخر :

« لمَ لم ترد على خطابى ؟ لعلك أحسنت صنعا فالحقيقة لا يمكن أن تقال . لقد فهمت ما سوف يكون عليه خطابك ، فالناسك المتعبد حين يلجأ الى الله لا يصل اليه منه رد مكتوب . على أننى أعتبر أن خطاب هـذا المخلوق التعس قد وجد على الأقل مكانا لنفسه تحت قدميك » .

واذا كانت عبادتى قد أقلقت لوردشيفا (*) من غيبوبته فانى أتوسل اليك ألا تغضب منى ، وقد تجيب على خطابى أو لا تجيب ، وقد تنظر الى أو لا تنظر ، وقد تعرف ما أقاسيه أو لا تعرف ، ولكننى لا أستطيع الا أن أحب ، كما أحب بالفعل ، رغم أنك ، أيها الحبيب المتحجر القلب ، لن تحركك توسلاتى .. » .

وحاول ماهندرا مرة ثانية أن يجيب ، ولكن ما ان بدأ يكتب حتى اتخذت الكلمات التى كان يوجهها الى آشا طريقها الى بنودينى . لقد كانت تعوزه مهارة الكتابة بدهاء وغموض ، وأخيرا وبعد أن مزق عدة مشروعات

(*) اشارة الى أسطورة غضب شـيفا المعروفة حيث غضب شيفا عندما أيقظه سهم كيوبيد من غيبوبته .

لخطابه ، كتب ردا فى الساعات القليلة المتبقية من الليل ، ولكنه ما ان خط اسم آشا على المظروف حتى تلوى فجأة كأن سوطا ضربه فوق ظهره وسمع فحيح صوت يقول له : « آيها المنافق ! كيف تجرؤ على أن تخدع فتاة بريئة تثق بك ؟ » مزق الخطاب اربا وجعل منه مئات القطع ، وقضى بقية الليل جالسا الى المنضدة ووجهه مختف فى يديه كما لو كان يخفى نفسه . ثم ثمة خطاب ثالث :

« أيمكن أن يحب أحد من الناس حبا مجردا من الكبرياء ؟ ان الحب اذا غث وهوى صاحبه لا يجوز أن يكون هدية جديرة بالاهداء » .

« ربما لم أفهمك وتجرأت أكثر مما ينبغى فعندما تركتنى تجرأت وكتبت اليك ، وعندما لم ترد فتحت لك قلبى عاريا ، ولكن اذا كنت قد أخطأت فهمك فهل كان ذلك كله خطئى وحدى ، انظر الى الماضى وأخبرنى بصدق ، ألم تكن أنت من أول الأمر الى نهايته الذى دفعتنى الى أن أعتقد ما اعتقدت ؟ » .

« ومع ذلك فسواء أكان ذلك حقا أو خطأ فان ما كتبته لا يمكن أن أسترده ، وما وهبته لا يمكن أن أنقضه — هذا هو أسفى وندمى وخجلى الذى لا يصدق بصفتى امرأة . ولكن اياك أن تتخيل أن من يحب سوف يظل يخضع دائما لحب يداس فى الوحل ، فاذا أنت لم ترد فسيكون هذا آخر خطاب لى » .

ولم يستطع ماهندرا أن يتحمل أكثر من ذلك ، وشعر أنه يجب أن يعود الى بيته ، متخيلا أنه انما يفعل ذلك بسبب سخطه المشروع ، اذ كيف تجرؤ بنودينى على أن تفترض أنه قد هرب من البيت بسببها ! ثم أقسم ليثبتن لها أنها كانت مخطئة وليردن عليها فضولها .

ودخل بيهارى فى هذه اللحظة عليه فتضاعفت كبرياء ماهندرا عند رؤيته اذ كان قد بدأ أخيرا يتشكك فيه ويغار منه خفية حتى بردت صداقتهما ، ولكن الخطابات داهنت كبرياءه الآن ولطفت من غيرته

فاستطاع أن يكون كريما ودودا معه فرحب بصديقه ترحيبا حارا واندفع يحييه ويربت على ظهره ثم قاده بيده الى مقعد .

وبدا على بيهارى أنه مهموم ، فقال ماهندرا فى نفسه « لا عجب » ، فان بنودينى لابد أن تكون قد صدته ، يا للمسكين ! » .

ثم سأله ماهندرا : « هل كنت فى بيتنا يا بيهارى ؟ » .

فأجاب بيهارى برصانة : « اننى آت من هناك مباشرة » .

وزادت شفقة ماهندرا على صديقه الذى أعرضت عنه حبيبته وشعر بالطرب أكثر من ذى قبل وفكر : « يا للشاب المسكين ! دائما تعس فى حبـه » ولمس الخطابات التى فى جيبه قريبة من صـدره وزاده حفيفها اطمئنانا .

وسأله : « وكيف حال من فى البيت ؟ » .

فسأله بيهارى دون أن يجيب على سؤاله : « لماذا تركت البيت ؟ وماذا تعمل هنا ؟ » .

فسأله ماهندرا ضاحكا : « هل يخامرك شك بشأنى ؟ » .

— « لا تحاول أن تكون ماجنا ، دعنا نعود الى البيت » .

لقد كان ماهندرا متشوقا الى العودة ، ولكن توسل بيهارى اليه ساعده على التظاهر بعدم اكتراثه .

وعاد يسأل بيهارى : « كيف يتأتى ذلك ؟ فلسوف تضيع على سنتى فى الكلية » .

فقال بيهارى : « لا تحاول أن تخدعنى يا ماهندرا ، اننى أعرفك منذ أن كنا طفلين ، دعنى أقول لك بصراحة انك تخطىء خطأ جسيما » .

— « ومن هو الذى أخطىء فى حقه أيها القاضى ؟ » .

— « أين قلبك الذى كنت كثيرا ما تستعرض عواطفه النبيلة ؟ » .

— « انه فى المستشفى فى الوقت الحاضر » .

— « انك تحاول أن تكون ماجنا هنا يا ماهندرا بينما آشا تبكى هناك فى البيت من قلبها ، وتتجول دون هدف من حجرة الى أخرى » .

لقد صدمت أخبار بكاء آشا ماهندرا ، فلم يكن يدور بخلده فى نشوته الجديدة أن فى هذا العالم أناسا آخرين لهم أفراحهم وأتراحهم ، واشتد به الذعر فسأل بيهارى : « ولم تبكى ؟ » .

فأجابه بيهارى بغضب : « أهو شيء يجب أن أعرفه أنا أم أنت ؟ » .

— « اذا كان لابد أن تغضب لأن ما هندرا لا يعرف كل شيء ، فاغضب اذن من خالقه » .

ودهش ماهندرا من اهتمام بيهارى وقلقه الشديد فقد كان لا يتخيل اطلاقا أن لبيهارى قلبا يحس ويتألم ، ولكن هذه الأعراض ! متى حدث هذا ؟ هل حدث فى اليوم الذى ذهب فيه الصديقان ليريا آشا فى بيت عمها ؟ يا لبيهارى المسكين ! وشعر ماهندرا بالنشوة وهو يتمتع بشعوره بالأسف على بيهارى ، ولكنه استطاع مع ذلك أن يكون كريما معه لثقته من اخلاص آشا وصدقها ، وانتفخ صدره كبرياء وهو يشعر بأن المكافآت التى يتمناها غيره بحرارة ثم هم لا يستطيعون الحصول عليها ، قد دانت له فى يسر وسهولة الى أبد الآبدين .

وقال بيهارى : « حسنا ، دعنا نذهب ، فهل لك أن تبحث عن عربة ! » .

٢٠

تبخرت مخاوف آشا ، كما يتبخر الضباب فى الشمس ، عندما رأت وجه ماهندرا حين عودته ، فلما تذكرت ما كتبته فى خطاباتها شعرت بالخجل حتى لم تستطع الا بالكاد أن ترفع رأسها أمامه .

وسألها فى تأنيب وهو يخرج من جيبه الخطابات الثلاثة التى سبق أن قرأها وأعاد قراءتها : « كيف تستطيعين أن تتهمينى بمثل هذه الاتهامات فى خطاباتك ؟ » فتوسلت آشا بقلق : « أرجوك أن تمزقها » . وحاولت أن تختطفها منه ولكن ماهندرا تجنبها وأعاد وضعها فى جيبه .

واستطرد يقـول : « لقـد ذهبت فى عمل ولكنك أسأت فهمى ، فشككت فى » .

وبكت آشـا وتوسلت اليه : « أرجو أن تغفر لى هـذه المـرة ، ولن يتكرر ذلك مرة أخرى » .

— « أبدا ؟ » .

— « أبدا » .

فضمها اليه وقبلها .

وعادت آشا تتوسل اليه : « أرجوك أن تعطينى هذه الخطابات وسوف أمزقها » .

— « لا ، دعيها معى » .

فقالت آشا لنفسها : « انه يحتفظ بها ليعاقبنى » .

لقد تضايقت آشا من بنودينى فلم تسرع اليها كعادتها لتشاركها فرح عودة زوجها بل تجنبتها . ولاحظت بنودينى ذلك وظلت متباعدة متذرعة بعمل أو آخر .

ودهش ماهندرا وقال لنفسه : « ما أعجب ذلك ؟ ها أنذا أؤمل أن أرى بنودينى كثيرا ، ولكن ما يحدث هو عكس ما كنت أتمنى ، ماذا كانت تعنى هذه الخطابات اذن ؟ » كان ماهندرا قد صمم على ألا يقوم من جانبه بأى عمل يصل به الى قلب امرأة ، وكان قد قال لنفسه : « حتى لو حاولت بنودينى أن تتقرب منى فسوف أظل متباعدا ولكنه شعر الآن

أن هذا التدبير لن ينجح ، بل قد يبدو هذا التباعد المرسوم كأن بينه وبين بنودينى أمرا . لا ! ان الأفضل أن يحافظ على علاقاته العادية الطيبة معها حتى لا يكون ثمة مكان لسوء تفاهم أو توتر ، فقال لآشا : « يبدو أننى أنا « أرمد العين » الحقيقى لصديقتك فلا يكاد الانسان يراها هذه الأيام » .

فأجابت آشا بعدم مبالاة : « يعلم الله ما بها » .

وجاءت راچلاكشمى تبكى وتشكو لماهندرا وتقول : « يبدو أنه أصبح من المستحيل ابقاءِ أرملة ببين أكثر من ذلك » .

— « ولماذا يا أماه ؟ » .

— « وكيف أعرف يا بنى ؟ انها تصر على الرحيل الى بيتها فى القرية . انك لا تعرف كيف تعنى بضيوفك فلماذا تبقى سيدة مهذبة اذا لم تجعلها تشعر كأنها فى بيتها وبين أسرتها ؟ » .

كانت بنودينى جالسة فى حجرة تحيك غطاء لسرير .

ونادى ماهندرا وهو يدخل الحجرة : « يا رمداء العين ! » .

فأجابت بنودينى وهى تعتدل فى جلستها : « ادخل يا سيد ماهندرا ! » .

« يا للسماء ! منذ متى وأنت تنادينى بسيد ماهندرا ؟ » .

فسألت بنودينى وعيناها مثبتتان على ما تخيطه : « وكيف أناديك اذن ؟ » .

— « كما تنادى صديقتك — أرمد العين » .

وتحاشت بنودينى أن ترد بأحد ردودها التى تتسم بالفكاهة والفطنة ، واستمرت صامتة مشغولة بالتطريز .

وعاد ماهندرا يسأل : « أهى كنية بلغت من الدقة حدا لا يجعلها تستخدم على سبيل اللهو ؟ » .

وأمضت بنودينى بعض الوقت تقضم فيه قطعة من الخيط قبل أن تجيب : « انك خير من يعرف ، أما أنا فلا » ثم سألت برصانة كما لو كانت تضع حدا لاتجاه المحادثة : « كيف تركت مسكنك في الكلية سريعا هكذا ؟ الى متى يستطيع الانسان أن يستمر فى تشريح الجثث ؟ » .

ثم قضمت قطعة أخرى من الخيط .

ثم عادت تسأل دون أن ترفع رأسها « أظنك تبحث عن أجسام حية الآن ؟ » .

كان ماهندرا قد جاء وهو مصمم على أن يسلى بنودينى ويؤثر فيها بالحديث الفكه المستنير ، ولكنه سرعان ما وجد نفسه متأثرا بالجو المتوتر فعجز عن أن يجد اجابة مرحة . وكان تحفظ بنودينى وتباعدها قد أيقظ فيه رغبة شديدة فى أن يزداد منها قربا وأن يحطم الحاجز الذى بدا أنها تقيمه بينها وبينه ، فاقترب منها ناسيا ما فى ملاحظتها الأخيرة من سخرية وقال : « لماذا ستتركينا ؟ أى خطأ اقترفناه فى حقك ؟ » .

واستثيرت بنودينى قليلا ورفعت رأسها من عملها وحدقت بعينيها الكبيرتين المتألقتين فى ماهندرا .

— « كل منا له دائرته الخاصة من الالتزامات والواجبات ، لقد رحلت الى مساكن الكلية . فهل كان ذلك خطؤك أو خطأ شخص آخر ؟ أنا أيضا عندى عملى ويجب أن أرحل » .

ولم يستطع ماهندرا أن يفكر فى اجابة مناسبة ، وبعد فترة سألها : « هل الدعوة عاجلة بحيث لا تستطيعين الا أن تذهبى » .

فأجابت بنودينى وهى تحاول ادخال الخيط فى فتحة الابرة : « ان الانسان لا يشعر بالعجلة الا فى عقله ، فكيف أستطيع أن أشرح لك ذلك كله ؟ » .

وجلس ماهندرا غارقا فى تفكيره مدة طوية وهو يحملق من خلال النافذة المفتوحة فى أطراف شجرة بعيدة من أشجار جوز الهند . وخيم على المكان سكون شديد حتى كان وقع الابرة على الأرض يكاد يسمع ، وفجأة تكلم ماهندرا فقطع هذا السكوت . وذعرت بنودينى ووخزت الابرة اصبعها .

— « أفلا تقنعك توسلاتنا بأن تبقى ؟ » .

ومصت بنودينى نقطة الدم التى كانت على اصبعها وقالت : ولمَ كل هذا التوسل ؟ ماذا يهم اذا مكثت أو رحلت ؟ ولم يقلقك هذا ؟ .

وبدا صوتها ثقيلا من أثر العاطفة وهى تتكلم وقد أحنت رأسها وبدت منهمكة فى خياطتها وتلألأت دمعة فى ركن من عينيها . وكان عصر يوم الشتاء قد أخذ يتحول الى شفق .

وأمسك ماهندرا بيدها دون تردد وقال فى صوت مخنوق من الانفعال : « وهل تبقين اذا كان الأمر يهمنى ؟ » .

وجذبت بنودينى يدها وأبعدت مقعدها عنه ، وهكذا فشل سحر ماهندرا وتردد صدى كلماته الأخيرة فى أذنيه فكان سخرية قاسية . فعض لسانه الآثم وتراجع فى سكون .

وفى تلك اللحظة دخلت آشا تحطم التوتر الذى ساد سكون الحجرة ؛ وسرعان ما التفتت بنودينى الى ماهندرا وقالت كأنها ترد عليه فى مناقشة : « ما دمتم تقدروننى أيها الأصدقاء هذا التقدير فيجب أن أحترم رغباتكم ، ولذلك فسوف أبقى هنا ما دمتم تريدون منى البقاء » .

وسرت آشا لنجاح زوجها فى رسالته وطوقت بنودينى بذراعيها وصاحت : « هذا وعد منك الآن ! وأرجو أن تؤكديه بأن تكررى ثلاث مرات بأننا ما دمنا نريدك أن تبقى هنا فسوف تبقين ، تبقين ، تبقين » .

وكررت بنودينى هذه العبارة ثلاثا وقالت آشا : عزيزتى رمداء العين ، لم تجعليننا نرجوك كل هذا الرجاء ما دمت ستضطرين الى الاستسلام وتعترفين فى النهاية بالهزيمة أمام زوجى ؟ » .

فقالت بنودينى ضاحكة وهى تلتفت الى ماهندرا : قل لى يا أخا زوجى هل الهزيمة هزيمتى أو هزيمتك ؟

وكان ماهندرا قد ظل كمن أخذته الصاعقة وشعر بالحجرة تفوح منها رائحة خطيئته وباحتقار النفس يحيط به من يمين وشمال . فكيف يستطيع أن يتكلم مع آشا بسهولة وبطريقة طبيعية الآن كما لو أن شيئا لم يحدث ! كيف يخفى زلته الكريهة خلف قناع ابتسامة بريئة تجرد الناظر من السلاح ! لقد كان يعوزه المكر السريع لممارسة هذه الخدعة .

قال بوقار وهو يغادر الحجرة « بل ان الهزيمة هزيمتى » .

وبعد برهة عاد الى الحجرة وقال لبنودينى : « أرجو أن تغفرى لى » .

— « ما الخبر يا أخا زوجى ؟ » .

— « اننا لا حق لنا فى أن نجبرك على البقاء » .

فضحكت بنودينى وقالت : « وأين كان هذا الاجبار ؟ انى لم أر دليلا واحدا على ذلك ، والواقع أن كلا منكم كان ودودا جدا معى ، أهـذا ما تسميه اجبارا ؟ ما رأيك أنت يا عزيزتى رمداء العين ؟ هل الحب والاجبار شىء واحد ؟ » .

فأجابت آشا متحمسة : « طبعا لا » .

واستمرت بنودينى تقول : يا أخا زوجى ، انك تريد منى أن أبقى وسوف تفتقدنى اذا رحلت — وهذا من حظى السعيد ، فان من النادر أن يجد الانسان فى هذا العالم أصدقاء مثلكم يشاطرون الانسان الألم والفرح ! فكيف يتركهم بعد أن وجدهم ، يا عزيزتى رمداء العين ؟

وتأثرت آشا عندما رأت زوجها صامتا حائرا وقالت لبنودينى :

« من ذا الذى يستطيع أن يغلبك فى مناقشة يا أختى العزيزة ؟ لقد اعترف زوجى بهزيمته فأرجو أن تكفا أنتما الاثنان عن المناكفة » .

وترك ماهندرا الحجرة مسرعا فاصطدم ببيهارى الذى كان قد ترك راجلاكشمى ليبحث عن ماهندرا . وصاح ماهندرا الذى أخرجته هذه المقابلة الفجائية عن حذره قائلا : « أوه — يا لى من مخادع ملعون يا بيهارى ! » .

وكان مضطربا حتى أن كلماته وصلت الى داخل الحجرة .

ونادى صوت من داخل الحجرة : « بيهارى يا أخا زوجى ! » .

فأجاب بيهارى : « سأحضر ، دقيقة واحدة يا بنودينى يا زوجة أخى » .

فأجاب الصوت من الداخل : « أرجوك ! الآن ! — كلمة واحدة » .

ودخل بيهارى الحجرة واتجه نظره مباشرة الى آشا ، ولم يكن هناك مما استطاع أن يراه من خلف حجابها أية علامة تدل على الأسف أو الألم المرتسم على وجهها ، وحاولت آشا أن تنهض وتترك الحجرة ، ولكن بنودينى جذبتها لتجلس وهى تقول : « هل أنتما الاثنان خصمان عنيدان يا بيهارى يا أخا زوجى بحيث تحاول رمداء العين أن تهرب فى اللحظة التى تراك فيها ؟ » .

واحمرت آشا خجلا وقرصت بنودينى .

وضحك بيهارى وأجاب : « ليس الأمر كذلك ، ولعلها الطبيعة قد فشلت فى أن تجعلنى جذاباً الى الحد الكافى » .

— « انظرى كم هو لبق يا أختى العزيزة ! فهو بدلاً من أن يضع اللوم

على ذوقك يلوم الطبيعة ، ان من سوء حظك أنك لا تستطيعين أن تقدرى جدارة أخى زوج مثل لاكشمانا » [1] .

فقال بيهارى : « لن أكون آسفا يا بنود يا زوجة أخى اذا كان فى ذلك ما يكفل لى حنانك » .

فأجابت بنودينى : « ان أنهار العالم كله لن تستطيع أن تطفىء ظمأ التشاتاك [2] الذى يستمر دائما يصبو الى قطرة المطر » .

ولم تعد آشا تستطيع أن تمكث أكثر من ذلك ، فاختطفت يدها من يد بنودينى وتركت الحجرة ، وكان بيهارى أيضا على وشك الخروج عندما سألته بنودينى : « يا أخا زوجى ، ما الخبر مع السيد ماهندرا ؟ » .

وجفل بيهارى والتفت حوله ووقف ساكنا فى مكانه .

ثم أجاب : « لا أدرى ، هل حدث شىء ؟ » .

— « كيف أعرف يا أخا زوجى ؟ ان ظواهر الأشياء لا تسرنى » .

وجلس بيهارى فى مقعده وحملق بقلق فى بنودينى يؤمل أن يسمع أكثر مما سمع ، ولم تقل بنودينى شيئا بل تابعت خياطتها تنظاهر بأنها منهمكة فى عملها .

فسألها بيهارى بعد برهة : « هل لاحظت أمرا معينا بشأن ماهندرا ؟ » .

فأجابت بنودينى فى بساطة وبطريقة طبيعية : « لا أعرف يا أخا زوجى ، ولكننى على كل حال لا يسرنى ما أراه . اننى قلقة على رمداء العين » .

ثم تنهدت تنهيدة عميقة ووضعت ما كانت تخيطه أمامها كما لو كانت على وشك مغادرة الحجرة .

---

(1) الأخ الأصغر لراما فى قصة رامايانا الذى هجر وطنه ليصحب أخاه وزوجته فى المنفى .

(2) طائر يقال انه يعيش على قطرات المطر .

ورجاها بيهارى وهو ينهض من مقعـده ثم يجلس مرة ثانية قائلا : « أرجوك أن تمكثى قليلا » .

ونهضت بنودينى وفتحت باب الحجرة ونوافذها على مصراعيها ، ثم رفعت ذبالة مصباح الكيروسين قليلا وجذبت مقعدها الى نهاية الفراش ، ثم استأنفت خياطتها .

وقالت : « لا أستطيع أن أمكث هنا الى الأبد يا أخا زوجى ، فاذا رحلت ؛ أرجو أن تعنى برمداء عينى وتهتم بسعادتها » .

ثم حولت وجهها ونظرت الى الجهة الأخرى كما لو كانت تحاول أن تستجمع قواها فصاح بيهارى : « لا ، يجب ألا ترحلى يا بنود يا زوجة أخى ، فليس هناك من تعنين به غيرها . أرجوك أن تتولى مصلحة هـذه الفتاة البريئة التى لا حـول لها ولا قـوة ، فمن ذا الذى ينقـذها اذا هجرتيها ؟ » .

— انك تعرف كيف تسير الأمور يا أخا زوجى ؛ فكيف أستطيع أن أمكث هنا الى الأبد ؟ وما عسى الناس يقولون ؟ .

— « دعيهم يقولون ما يشـاءون ، لا تصغى اليهم ؛ انك ملاك وأنت وحدك التى يمكنك أن تنقذى هذه الطفلة المعرضة للجراح من لطمات هذه الدنيا القاسية ، اغفرى لى يا زوجة أخى اذا كنت فشلت فى معرفتك أول الأمر ، فأنا أيضا كبقية عامة الناس الذين ينقصهم كرم النفس ؛ أخطأت الحكم عليك فى بداية الأمر ونسبت اليك دوافع وضيعة ، بل لقد شككت أنك تغارين من سعادة آشا كما لو كان — لا ، ان مجرد التعبير باللفظ عن مثل هذه الأفكار خطيئة لا تغتفر ، أما وقد عرفت الآن أى ملاك أنت فان اعجابى بك يجبرنى على أن أعترف بالخطأ الذى ارتكبته فى حقك » .

وارتجفت بنودينى من أثر السرور والبهجة ، ومع أنها كانت تدرك أنها تلعب دورا فقد تأثرت بثناء بيهارى تأثرا كبيرا ، فلم تكن قد سمعت مثله من شخص آخر ، وللحظة ارتفعت بنفسها وشعرت كأنها ذلك الملاك الطاهر السامى الذى صوره خيال بيهارى ، وسبحت فى عينيها دموع الرقة والعطف الذى لا حد له على آشا ولم تحاول أن تخفى هذه الدموع عن بيهارى ؛ بل تركتها تسيل على وجهها وقد أراحها وهم من عزة النفس ساعدت الدموع على دعمه .

ولم يستطع بيهارى وقد رأى دموع بنودينى أن يمنع دموعه الا بصعوبة ، وترك الحجرة وذهب الى حجرة ماهندرا متشوقا الى معرفة السبب الذى دعاه الى اتهام نفسه بالنفاق بصوت مرتفع . فلم يجد ماهندرا فى الحجرة وعلم أنه خرج من البيت . ولم تكن من عادة ماهندرا أن يخرج دون سبب قوى ، اذ لم يكن يشعر بالراحة فى أى مكان الا فى البيت بين الوجوه المألوفة لديه — وقلق بيهارى واتجهت خطواته ببطء نحو بيته .

وذهبت بنودينى وأحضرت آشا الى حجرتها وضمتها الى قلبها وقالت وعيناها تدمعان : « يا عزيزتى رمداء العين ، اننى تعسة سيئة الطالع » .

وتأثرت آشا كثيرا وقالت وهى تطوقها بذراعيها : « لم تقولين ذلك يا عزيزتى ؟ » .

وأخفت بنودينى وجهها فى صدر آشا ونشجت كطفل .

قالت : « اننى أجلب سوء الحظ لكل مكان أذهب اليه ، فأرجوك أن تدعينى أرحل يا أختى العزيزة ، دعينى أعود الى تيهى » .

وقالت آشا وهى تضع يدها تحت ذقن بنودينى وترفع رأسها تحاول استرضاءها « لا تتكلمى هكذا ياعزيزتى ، اننى لن أستطيع العيش دونك ، أخبرينى ماذا حدث حتى يجعلك تتكلمين هكذا ؟ » .

وفى نفس الوقت كان بيهارى قد قفل راجعا قبل أن يصل الى بيته ، فقد شعر بالرغبة فى رؤية بنودينى بحجة أو أخرى حتى يفهم لمَ كانت تخشى النفور بين ماهندرا وآشا ، وتذرع لذلك بأنه يريد أن يترك دعوة مع بنودينى يدعو فيها ماهندرا للغداء معه فى اليوم التالى . فلما ناداها « يا بنود زوجة أخى » رأى الفتاتين من خارج الباب تعانق احداهما الأخرى وتتلألأ أعينهما بالدموع وقد ظهرتا جليا فى ضوء مصباح الكيروسين ، فوقف ساكنا .

وقد ظنت آشا أن بيهارى لابد أنه قدح فى حق رمداء عينها أو أساء اليها بالقول فتسبب بذلك فى هذا الانفعال الفجائى الذى بدا على بنودينى ، يا له من شخص كريه بيهارى هذا ! يا للعقل البذىء المسف ! وشعرت آشا بالغضب من بيهارى وهو يترك الحجرة ، وتراجع بيهارى هو الآخر بسرعة وقد تأثر تأثرا عميقا بما رآه وزاد اعجابه ببنودينى كثيرا .

وفى نفس الليلة أعلن ماهندرا قائلا : « تشونى . سأسافر غدا الى كاشى بقطار ركاب الصباح » .

فسألته آشا وقد توقف قلبها : « ولماذا ؟ » .

وأجابها ماهندرا : « لأننى لم أر عمتى منذ وقت طويل » .

وشعرت آشا بالخجل الشديد فقد كان يجب عليها أن تفكر هى فى ذلك أولا ، لقد شغلت بمشكلاتها الشخصية فأهملت خالتها المحبة فى حين لم ينس ماهندرا المهاجرة فى المنفى ، وأنبت نفسها على أنانيتها الفظة .

واستطرد ماهندرا يقول : « لقد رحلت تاركة كنزها الوحيد فى هذا العالم فى عنايتى ، ولن أستريح حتى أراها مرة أخرى » .

وتهدج صوته وهو يتكلم وشردت يده اليمنى الى جبهة آشا وهو يربتها بلطف كما لو كان فى تبرك محب صامت . ولم تستطع آشا أن تفهم

سر هذا التيار المتدفق من العاطفة الفجائية ، ولكنها تأثرت كثيرا وسالت الدموع على خديها وتذكرت ثورة المحبة والجزع التى لم يكن لها مبرر من ناحية بنودينى فى تلك الأمسية ، ولم تستطع أن تدرك اذا كان المشهدان متصلين بطريقة ما ولكنها أحست بطريقة غير واضحة بقرب وقوع شيء ما ، وان لم تتبين ما اذا كان ذلك الشيء خيرا أو شرا .

وشعرت بالرعب وتعلقت بماهندرا فى عناق شديد ؛ وشعر ماهندرا بالاختلاج الفجائى المنبعث من رعبها فقال : « لا تخافى يا تشونى ! ان بركات خالتك التقية معك ، لقد نبذت العالم من أجلك — ولن يقع لك سوء ، فلا داعى للخوف اطلاقا » .

واستجمعت آشا نفسها وطردت كل ما تشعر به من خوف بحزم ، واثقة من بركة زوجها كتعويذة لا تفنى وأخذت تنحنى أمام الصورة المقدسة التى كانت تحتفظ بها لخالتها فى مخيلتها وهى تصلى : « أماه ! فلتحفظ بركاتك زوجى دائما ! » .

وغادر ماهندرا البيت فى اليوم التالى دون أن يقول الى اللقاء لبنودينى .

وقالت بنودينى لنفسها باحتقار : « ما أشد فضله ! انه يرتكب الخطأ ثم يتشاجر معى من أجله . ان مثل هذه الفضيلة لا تستمر طويلا » .

٢١

طغى الفرح على أنا برنا فى عزلتها عندما رأت ماهندرا يأتى اليها فجأة ، وخشيت فى الوقت نفسه أن يكون ماهندرا قد تشاجر مع أمه بسبب آشا وحضر اليها لينفس عن أحزانه ويلتمس الراحة عندها ، فقد كان من عادة ماهندرا منذ طفولته أن يلجأ الى عمته كلما أصابه ألم أو كان قلقا ،

وقد اعتادت أن تهدىء من روعه اذا اشتد به الغضب وتعلمه كيف يتحمل اذا استبد به الألم ، ولكنها بعد زواجه كفت عن أن تكون ملجأه وعزاءه ومعلمه ، فلقد أدركت فى الواقع أنها ايما تزيد الارتباك فى شئونه العائلية اذا تدخلت ، أو فعلت أى شىء ، ولهذا فقد ذهبت الى المنفى والعزلة باختيارها ، وكما تندفع الأم التعسة الى حجرة أخرى عندما لا تستطيع أن تتحمل رؤية طفلها المريض وهو يطلب الماء الذى منعه عنه الطبيب ، تركت أنا برنا المنزل ورحلت عنه وقد نجحت وهى منفية فى حجها البعيد منهمكة فى طقوس الصلاة والقربان اليومية فى نسيان عالم الاتصالات الشخصية القديم . كان هذا حالها عندما ظهر ماهندرا فجأة ، فخشيت أن يحيى ذكريات النزاع القديم ويعيد فتح الجرح الذى كان قد التأم قليلا أو كثيرا .

ولكن ماهندرا لم يذكر كلمة واحدة عن العلاقة بين أمه وآشا فأخذت مخاوف أنا برنا صورة أخرى اذ كيف يحدث أن ماهندرا الذى لم يكن يستطيع المواظبة على كليته لأنه لم يتحمل البعد عن آشا ، يتكبد الآن مشقة هذا الطريق كله الى كاشى ليرى عمته ؟ ترى أهو قد أخذ يبتعد عن آشا ؟ وسألت ماهندرا فى شىء من القلق : « كيف حال تشونى حبيبتى ؟ » .

— « انها على ما يرام يا عمتى » .

— « وكيف تمضى وقتها يا ماهن ؟ ألازلتما أنتما الاثنان تعبثان سويا أم بدأتما تأخذان حياتكما وعملكما مأخذ الجد ؟ » .

— « لقد انتهى المجون نهائيا . لقد كان أساس كل البلية « القراءة السارة » ومن حسن الحظ أن الكتاب قد اختفى وليس هناك خوف من أن يعود فيظهر ، ولو كنت هناك الآن لسررت من رؤية عدم

اكتراث تشونى بالقراءة كلية — على الطريقة التقليدية القديمة للمرأة الطيبة كما يتوقع الناس منها أن تكون » .

— « وما أخبار بيهارى يا ماهن ؟ » .

— « مشغول كالعادة بعمل كل شخص آخر الا عمله . وكيله يهتم بأرضه وأملاكه — لمصلحة سيدة أو لمصلحته الخاصة لست أدرى . ولكن بيهارى كان دائما هكذا — الآخرون يهتمون بأمره وهو يهتم بأمور الآخرين » .

— « ألا يعتزم الزواج اطلاقا يا ماهن ؟ » .

وضحك ماهندرا وقال : « لا أرى أى دليل على هذا الاتجاه » .

وأحس عقل أنا برنا بطعنة ألم عميق ، وتذكرت كيف أن بيهارى فى يوم ما كان راغبا فى الزواج من ابنة أختها وكيف ردته على أعقابه بقسوة . لقد قال يومها : « أرجوك يا عمتى ألا تكلمينى بعد ذلك عن الزواج » . رنت هذه الكلمات التى تنم عن كبرياء مجروحة فى أذنيها الآن مرارا ، وأزعجتها ذكرى بيهارى العــزيز عليها المخلص لها ، رنت رنة حزينــة محسورة ، لقد فشلت فى أن تخفف عنه وساءلت نفسها وهى مكتئبة نصف مرعوبة « هل ما زال يحب آشا ؟ » .

وحدث ماهندرا عمته عن أخبار البيت الأخيرة حديثا بعضه جد وبعضه هزل ومع ذلك فقد ابتعد عن أية اشارة الى بنوديتى .

وكانت كليته قد استأنفت الدراسة فلم يستطع أن يقضى أياما كثيرة فى كاشى ، ولكنه أخذ يؤجل رحيله ويطيل المتعة التى كان يحس بها من اهتمام أنا برنا به ، وكانت فترة أشبه بفترة النقاهة بعد مرض عضال ، وبدأ الصراع الداخلى الذى كان قد أخذ يدمره وهو فى كلتكا يتقهقر ويرتد تدريجا ، وهدأ وجود عمته المحبة التقية من أعصابه المتعبة ، وقد

دهش وهو يراقبها أثناء عملها من بساطة الحياة اليومية العادية هناك وبساطتها ، وبدت له مخاوفه القديمة غريبة سخيفة ، أما بنودينى فلم تكن شيئا ، بل هو لم يستطع أن يذكر ملامحها بوضوح وشعر بالنشاط والقوة ، وقال لنفسه : « لا يستطيع أحد أن يزيح آشا من قلبى ولو قيد أنملة » .

وأخيرا استعد للرحيل فقال لأنا برنا : « عمتى ، يجب ألا أتغيب عن الكلية أكثر من ذلك ، فأرجو أن تسمحى لى بالرحيل ، وبالرغم من أنك انقطعت انقطاعا تاما عن كل الصلات الدنيوية وانسحبت فى عزلة ، أرجو أن تسمحى لى بشرف تقديم احتراماتى لك من حين الى آخر » .

عندما عاد ماهندرا الى بيته أعطى آشا هدية خالتها — صندوقا صغيرا من المسحوق الأحمر (*) وآنية من الحجر الأبيض المرصع . وقد بلغ تأثر آشا حدا سالت معه الدموع من مقلتيها عندما تسلمت الهدية ، وتذكرت كم قاست هذه الخالة اللطيفة الصبورة المحبة من حماتها بسببها . وقالت لزوجها : « كم أحب أن أذهب الى خالتى مرة لأطلب بركاتها وأطلب منها الصفح على ما سببته لها من آلام ، فهل تظن أن فى مكنتى الذهاب اليها ؟ » .

وفهم ماهندرا شعور آشا ووافق على أن تقضى بضعة أيام مع خالتها ، وكانت المشكلة الوحيدة هى عدم رغبته فى التغيب عن الكلية مرة ثانية لكى يأخذها معه ، ولكن آشا أكدت له أن من السهل أن تصحب خالتها الأخرى الكبيرة التى ستذهب عن قريب الى كاشى ، وذكر ماهندرا لأمه أن آشا اقترحت عليه أن تذهب الى خالتها فى كاشى .

(*) تستخدم النساء المتزوجات الهندوس فى البنغال هذا المسحوق لوضع نقطة عند مفرق شعرهن فوق الجبهة كرمز ميمون يجلب لهن السعادة الزوجية .

وأجابت راجلاكشمى فى نغمة قارصة : « بكل تأكيد اذا أرادت زوجتك أن تذهب فيجب أن تذهب ، اذهب وخذها معك الى هناك » .

انها لم تكن تحب أن يزور ماهندرا عمته ولذلك فلم يؤد اقتراح عودته لزيارتها مع زوجته الا الى زيادة حنقها .

« انى أخشى ألا أستطيع اصطحابها بسبب كليتى ؛ وسوف تذهب مع خالتها الكبيرة » .

فقالت راجلاكشمى : « شىء لطيف حقا أن تريد الذهاب مع خالتها التى تحتقر حتى أن تنظر الينا » .

ولم يكن لسخرية الأم أثر سوى أن يزيد عقل ماهندرا تصلبا فتركها دون أن يقول كلمة وهو أكثر تصميما من قبل على أن يرسل آشا الى كاشى .

وعندما جاء بيهارى ليرى راجلاكشمى قالت له : « هل تعلم يا بيهارى أن زوجة ابنى تريد أن تذهب الى كاشى ؟ » .

— « أهكذا ؟ ولكن ماهندرا سوف تفوته دروسه » .

— « أبدا ، فلمَ يجب أن يصحبها ماهن ؟ ذلك لن يكون الا طريقة قديمة جدا . ان ماهن سيبقى هنا بينما تذهب زوجته الى كاشى مع خالتها الكبيرة ، هذه هى طريقة السادة والسيدات ! » .

وقلق بيهارى — لا بسبب أساليب السادة والسيدات — وانما لسبب آخر فقد تعجب مما بين ماهندرا وآشا — كلما ذهب واحد منهما بقى الآخر ، ان الدلائل لا تبشر بالخير ، فهل يجب عليه وهو الصديق الذى يتمنى لهما السعادة أن يظل متفرجا سلبيا على هذه الفجوة التى تتسع بينهما باستمرار ؟ .

وجلس ماهندرا مكتئبا فى حجرته وقد أثاره موقف أمه ، أما بنودينى

فلم تره منذ عودته ، كانت فى الحجرة المجاورة وكانت آشا تحاول أن تقنعها بأن تذهب لتحية ماهندرا عنــدما دخــل بيهارى حجرة ماهندرا وسأله :

— « هل ستذهب آشا الى كاشى ؟ » .

واستشاط ماهندرا غضبا وقال: « ولمَ لا تذهب ؟ ما الذى يمنعها ؟ » .

فأجاب بيهارى : « من ذا الذى يتكلم عن منعها ؟ كل ما فى الأمر أننى أردت أن أعرف ما الذى جعلها تفكر فى الذهاب » .

— « مجرد الرغبة فى زيارة خالتها — اهتمام بقريبة مهاجرة — ان مثل هذه العواطف تعترى الطبيعة البشرية أحيانا » .

— « وهل ستصحبها ؟ » .

وما أن سمع ماهندرا ذلك حتى ساوره الشك فى أن بيهارى قد أرسلته اليه أمه ليثير موضوع عدم لياقة ارسال آشا مع خالتها المترفعة ، ولكى يتجنب مناقشة قد تزيد غضبه المتزايد فقد أجاب باقتضاب : « لا ! » .

لقد كان بيهارى يعرف ماهندرا جيدا ؛ وفهم أنه كان فى سورة من الغضب المتزايد وأن أى اعتراض من جانبه سوف يزيد عناده واصراره ، ولذا فقد امتنع عن مناقشته وقال لنفسه : « ان كان على آشا أن ترحل وهى كسيرة القلب فقد يبهجها أن تذهب معها بنودينى » .

— « ولماذا لا تصحبها بنودينى ؟ » .

وفقد ماهندرا صبره .

ثم صاح : « لمَ لا تتكلم بصراحة ؟ لمَ تحاول أن تكون دبلوماسيا معى ؟ أنا أعرف أنك تشك فى أننى أحب بنودينى ، انه شك وضيع وأنا لا أحبها ولا أهتم بها . وليست هناك حاجة بك الى أن تتجسس على لكى تنقذنى ، بل الأفضل أن تنقذ نفسك . ولو كنت صديقا مخلصا لكنت قد

اعترفت بشعورك منذ زمن بعيد ولابتعدت عن المنزل . دعنى أنا على الأقل أكون صريحا معك وأخبرك فى وجهك أنك تحب آشا » .

وكما يندفع الشخص الجريح اندفاعا أعمى الى الأمام ليصون نفسه ممن يهاجمه فقد قفز بيهارى من مقعده ، وقد جرح جرحا عميقا وازرق وجهه من الغضب ، وتقدم نحو ماهندرا ، ولكنه سرعان ما أفاق لنفسه وقال وهو يتفوه بكل كلمة بألم شديد وصعوبة كادت تعقد لسانه « ليغفر الله لك ! الى اللقاء ! » .

وبينما كان يترنح وهو يخرج من الحجرة أسرعت بنودينى خارجة من حجرتها ونادت « بيهارى يا أخا زوجى ! » .

ووقف بيهارى واتكأ الى الحائط حتى لا يقع على الأرض وحاول أن يبتسم .

— « نعم ، يا بنود يا زوجة أخى » .

— « يا أخا زوجى ، سوف أصحب رمداء العين الى كاشى » .

— « لا ، لا ، يجب ألا تذهبى ، أرجوك يا زوجة أخى ، لا تفعلى أى شىء بسبب ما قلته ، اننى شخص لا قيمة له هنا وليست لى رغبة فى أن أتدخل فى أى شىء اذ لا فائدة ترجى من ذلك سوى أن تزداد الأمور تعقيدا ، انك ملاك وسوف تعملين ما تعتقدين أنه صواب . الى اللقاء ! » .

وأسرع بالانصراف بعد أن انحنى بأدب .

ونادت بنودينى : « أرجوك أن تصغى الى يا أخا زوجى ، أنا لست ملاكا ، اننى أعترف لك بذلك ، ولن يكون ذهابك على هذا النحو مفيدا لأى شخص ، لا تلمنى بعد ذلك على ما قد يحدث » .

ولم يعر بيهارى كلامها التفاتا وغادر البيت . واستمر ماهندرا جالسا

حيث كان كمن أصابته صاعقة ، أما بنوديني فقد نظرت الى ماهنــدرا باحتقار وعيناها تشتعلان كأنهما كرتان من النار ثم رجعت الى حجرتها حيث كانت آشا جالسة ترزح تحت حمل من الخزى ؛ اذ لما سمعت زوجها يصرخ ويتهم بيهارى بحبها شعرت بالخجل واعتراها خزى شديد حتى لم تستطع الا بالكاد أن ترفع رأسها . غير أن بنودينى لم تشعر بالعطف عليها ، ولو أن آشا رفعت عينيها لذعرت من تلك الومضة الشــديدة القاسية فى عينى بنودينى ، فلقد اشتعل فى صدر بنودينى غضب ساخر ، ملىء بالتحدى للعالم أجمع فقد نفذت كلمات ماهندرا التى أنكرت كل شعور نحوها الى صميم قلبها كأنها سهم محترق ، هكذا لا يهتم بها أحد ! كل منهما يهتم بهذه الدمية الحمقاء الخجولة التى لا تزيد صلابتها على طراوة الزبد !

وجلس ماهندرا يفكر ، فمنذ ذلك اليوم الذى حقر فيه نفسه بطريقة هيستيرية ووصف نفسه بالاحتيال على مسمع من بيهــاى وهو يحس بالارتباك فى وجود صديقه ، ويشعر كما لو كان عاريا مفضوحا أمامه ، فلقد آلمه دائما أن يكتشف بيهارى حبه لبنودينى فى الوقت الذى كان يحاول فيه أن يخفيه حتى عن نفسه ، ولذلك كان كلما قابل بيهارى شعر بأنه يحاول أن يستطلع سر قلبه . لقد كانت هذه المضايقات المتكدسة هى التى انفجرت الآن فجأة دون اثارة حقيقية .

٢٢

استمر ماهنــدرا يفــكر : « لمَ صرخت بتلك الشــدة والحــدة وقلت اننى لا أهتم ببنودينى ؟ اننى لا أحبها فعلا ، أما أن أقول اننى لا أهتم بها فلابد أنه كان شديد القسوة عليها ، فأى امرأة لا تؤلمها هذه

الكلمات ؟ وكيف أستطيع الآن أن أنزع من عقلها هذه الفكرة ؟ لا أستطيع بالطبع أن أقول انى أحبها ، ولكنى بودى أن أجعلها تستطيع أن تفهم .. بطريقة غامضة ومن غير تورط — اننى أهتم بها فعلا ، فمن الظلم أن أدعها تعتقد هذا الاعتقاد القاسى غير الحقيقى وهو أنها لا تعنى شيئا بالنسبة لى » .

ثم أخرج من صندوقه الخطابات الثلاثة وأعاد قراءتها ، لم يكن هناك شك فى أن بنودينى تحبه ، فلمَ ألقت بنفسها هكذا على بيهارى اذن ؟ لابد أنها فعلت ذلك عمدا — لتحذر ماهندرا أنه اذا كان فى استطاعته أن ينبذها علنا على هذا النحو فهى كذلك تستطيع أن تنتقم لنفسها ، والا فكيف تستطيع الا بطريقة غير مباشرة أن تعلن ما فى نفسها ؟ واذا كانت قد سارت هذا الشوط فليس من المستحيل أن تبدأ فعلا تحب بيهارى ، وارتجف ماهندرا لهذه الفكرة .

وازدادت مخاوفه شدة حتى صدمه رد فعل ما حدث : ماذا لو أن بنودينى قد سمعت بالفعل أنه لا يهتم بها ، ولكن ماذا يهم ؟ وماذا لو استاءت منه ؟ وماذا لو أدارت قلبها جهة أخرى ؟ وكما يستمر القارب الذى تتقاذفه الأمواج يجذب السلسلة التى تربطه بالمرساة ، فقد تعلق ماهندرا بآشا فى يأس .

وفى الليل أخذ ماهندرا آشا فى ذراعيه واحتضن وجهها فى صدره وقال : « خبرينى يا تشونى ، كم تحبيننى ؟ » .

وتعجبت آشا من هذا السؤال المفاجىء ، هل كان قلقا حقا بسبب اتهامه الشائن من أن بيهارى يحبها ؟ وأجابت وقد طغا عليها الخجل : « يا للعار ! ماذا يجعلك تسأل مثل هذا السؤال ؟ هل تشك فى حبى ؟ أرجو أن تكون صريحا أرجوك » .

فسألها ماهندرا وهو يحاول أن يعتصر منها حلاوة أكثر : « ولماذا اذن تريدين أن تذهبى الى كاشى ؟ » .

— « أنا لا أريد أن أذهب الى كاشى أو الى أى مكان آخر » .

— « ولكنك كنت تريدين أن تذهبى » .

فقالت آشا فى ألم واضح : « انك تعرف السبب » .

— « ربما لأنك شعرت بأنك تكونين أكثر سعادة مع خالتك من غيرى » .

فاحتجت آشا قائلة : « أبدا ! لم أكن أريد الذهاب هناك بحثا عن السعادة » .

— « أظنك كنت تكونين أكثر سعادة لو أنك تزوجت شخصا آخر » .

وانسلت آشا فى الحال من عناق ماهندرا وأخفت وجهها فى الوسادة وقد سكنت حركتها وتصلبت كما لو كانت كتلة من خشب ، ثم أخذت تهتز من التشيج . وحاول ماهندرا أن يرفعها بين ذراعيه مرة أخرى ولكنها تعلقت بالوسادة بعناد ، ولاحظ ماهندرا وقع ما حدث على زوجته المخلصة بأحاسيس ممتزجة من الفرح والطرب والكبرياء واحتقار الذات .

فلما طفا السر الى السطح سبب ارتباكا عاما فى عقل كل فرد ، وعجبت بنودينى أن بيهارى لم ينف هذا الاتهام الصريح عن نفسه ، وحتى لو كان الاتهام صحيحا فقد كان مما يسر بنودينى لو أنه خادع صديقه وأنكر الاتهام . وعلى كل فقد نال جزاءه واستحق اللطمة التى لطمه بها ماهندرا . فأى حق لمن فى مكانه رجل مثل بيهارى أن يحب أوزة بلهاء مثل آشا ؟ وشعرت بنودينى بالراحة لأن هذه اللطمة سوف تجبر بيهارى على أن يبتعد عن آشا .

ومع ذلك فقد ظلت ذكرى وجه بيهارى وقد عذبه الألم وشحب لونه وغاضت منه الحياة تطاردها حتى وهى منهمكة فى أداء واجباتها المنزلية ؛

وكان قلبها يدمى من شدة الألم ؛ ويتفجر كل ما فيها من رقة الأنوثة وسط موجة من الألم كلما تذكرت الصورة التعسة فى قلبها ، وعرفت أنها لن تنعم بالسلام حتى تعيد الحياة الى تلك الأطراف المتصلبة ، واللون الى ذلك الوجه الرمادى ، والابتسامة الى تلكما الشفتين اللتين انعدم فيهما الاحساس .

ومر يومان أو ثلاثة ولم تعد بنودينى القلقة المجهدة تستطيع أن تتمالك نفسها فجلست وكتبت خطابا مختصرا .

« يا أخا زوجى .منذ أن تركتنا فى ذلك اليوم وقد بدا عليك الشحوب وأنا أصلى من كل قلبى من أجل صحتك الجسمية والعقلية . وانى لأتطلع الى رؤية ابتسامتك التى لا كلفة فيها وسماع صوتك النبيل ، فأرجو أن ترسل الى سطرا تخبرنى فيه عن حالك . بنود . زوجة أخيك » .

وطلبت من الخادم أن يذهب بالخطاب الى بيت بيهارى .

لم يكن بيهارى يتخيل أن ماهندرا يمكن أن يتهمه يوما بهذه الحدة وهذه الصراحة بأنه يحب آشا . فهو نفسه لم يسمح يوما لهذه الفكرة بأن تسرب الى عقله فى أية صورة واضحة ، وسرعان ما أخلى أثر الصدمة الأولى مكانه لثورة من الغضب والاحتقار واستمر يتمتم : « اتهام وضيع ظالم قذر ! » .

ولكن الفكرة اذا أخذت شكلا يلوكه اللسان لا يمكن أن تستمر مكبوتة كبتا تاما ، فقد بدأت بذرة الصدق الصغيرة فى هذا الاتهام تنبت بسرعة — فتذكر بيهارى ذلك المساء عندما ذهب مع صديقه لرؤية آشا لأول مرة وجلسا فى الشرفة ثم ظهرت أمامهما الفتاة الجميلة الحيية وقد غلفها شذى الأزهـــار السابح فى الهواء منبعثا من الحديقة . ولما كان يعتقد وقتها أنها ستكون زوجته ، فقد نظر اليها برغبة لا خجل فيها .

وهكذا أخذت تطارده الآن ذكرى تلك الصورة الجميلة ونظرته الفاحصة وهى تخنقه وتضجره وقضى الليل الطويل بأجمعه اما راقدا على شرفة السطح واما سائرا جيئة وذهابا أمام البيت يفكر ويتدبر فكان كلما ازداد تفكيره ازداد السر الخفى وضوحا ، وأصبح ما كان مكبوتا فى داخله حرا طليقا ؛ وقفز الى الحياة ما كان راقدا نائما غير معروف حتى له بسبب كلمات ماهندرا التى غمرته .

وبدأ بيهارى يرى المجــرم فى نفسه ، فأى حق له فى أن يغضب من ماهندرا اذا كان ما قاله صحيحا . والحق أن الشىء المهذب الوحيد الذى يستطيع أن يفعله الآن هو أن يطلب عفو ماهندرا ثم يستودعه الله . « لقد تركت ماهندرا فى حنق كما لو كان مخطئا وكنت أنا الحكم ، انه لظلم ويجب أن أعترف الآن بالخطأ الذى ارتكبته فى حقه » .

وظن بيهارى أن آشا قد رحلت الى كاشى ولذا فقد سار ذات مساء الى بيت ماهندرا متباطئا وعند الباب قابل ساد هوشاران وهو عم من بعيد لراجلاكشمى . فاعتذر لساد هوشاران لأنه لم يأت الى البيت مدة طويلة وسأله عن أخبار أقاربه ، فأكد له هذا أن كل شىء على ما يرام وســأل بيهارى : « متى رحلت آشا الى كاشى ؟ » .

— « انها لم ترحل وليس هناك احتمال بأن ترحل » .

وتملك بيهارى دافع قوى الى دخول البيت ، ولكنه تردد وتذكر وهو فى ألم وحسرة ان الأمر قد تغير ولم يعد من الصواب أن يصعد درجات السلم المألوفة لديه التى تؤدى الى الجناح الداخلى بنفس المرح البسيط الواثق ، كما كان يفعل من قبل فلسوف يكون من المستحيل عليه الآن أن يبتسم والابتسامة الودية الطبيعية التى اعتاد أن يحيى بها كل شخص . آه لو استطاع ولو مرة واحدة ولآخر مرة أن يدخل البيت كما كان يدخله

من قبل كواحد من المقربين وأن يتبادل بعض الكلمات مع راچلاكشمى ويخاطب آشا المحجبة ويناديها يا زوجة أخى ، كم يكون سعيدا لو فعل !

وقال ساد هوشاران : « لم تقف فى الظلام ؟ ادخل ! » .

وذعر بيهارى وأفاق من حلمه ثم أسرع الى الداخل ، ولكنه توقف فجأة ؛ ثم عاد يتقهقر مسرعا وهو يعتذر لساد هوشاران بأن هناك عملا عاجلا ينتظره ، وفى نفس الليلة غادر كلكتا متجها الى الغرب .

فلما أخذ الخادم خطاب بنودينى اليه كان بيهارى قد ترك البيت ، فلما عاد الخادم كان ماهندرا يسير جيئة وذهابا فى الحديقة أمام الدهليز فرآه والخطاب فى يده فسأله : « خطاب من هذا ؟ » .

وأخبره الخادم عمن أعطاه الخطاب ولمن كان الخطاب فأخذه ماهندرا وكان دافعه الأول أن يعطيه الى بنودينى دون أن يفتحه ودون أن يتفوه بكلمة ثم يلاحظ رد فعلها الآثم المتسم بالعار ، فلم يكن عنده شك فى أن الخطاب كان يحمل سرها الآثم ، وتذكر المناسبة السابقة عندما لاحظ فى يدها خطابا مشابها كان موجها لبيهارى ، ولكنه وجد من العسير هذه المرة أن يقاوم الاغراء على فضه ، فبنودينى على كل حال كانت تعيش تحت سقف بيته وتحت اشرافه ، فهو مسئول عن صالحها ، بل ان من واجبه أن يتأكد من أنها لا تضل ولا تهوى ، ومن ثم فهو مضطر من الناحية الأدبية الى أن يعرف محتويات الخطاب .

وفضه ، كان خطابا موجزا ، كتب ببساطة وفى اخلاص واضح ، ولكنه قرأه مرة وأخرى وأخذ يفكر فيه ، ومع ذلك فقد فشل فى أن يسبر أحاسيس بنودينى ، ولم يستطع أن يفهم مدى ما تعنيه كلماتها ، وتملكه خوف غامض أن تكون بنودينى ، وقد آلمها ولفظها ، تحاول أن تدير

اهتمامها فى اتجاه آخر « انها غاضبة ولقد يئست من كل أمل فيما يتعلق بى كلية » .

وظل الشك ينخر فى عقله حتى أقلقه وأصبح تفكيره فى أن حماقته الوقتية سوف تكلفه سيطرته على بنودينى التى كانت على استعداد لأن تقدم نفسها له بنفسها شيئا لا يحتمل . لقد حاول أن يداهن نفسه أن حب بنودينى له انما هو فى مصلحتها وأنه كان كفيلا بانقاذها من الآخرين فقال يخاطب نفسه « أنا أعرف نفسى ، أنا لا أستطيع أن أكون سببا فى زلتها وفى مكنتها أن تحبنى دون أن يكون هناك خطر من ذلك ، انها فى مأمن وهى معى ما دام قلبى قد وهبته لآشا ، أما اذا هى شعرت بالميل نحو شخص آخر فمن يدرى أية مصيبة يمكن أن تصيبها ! » وأحس بأن واجبه يفرض عليه أن يجذب بنودينى اليه دون أن يدع نفسه يضل .

وعندما دخل ماهندرا البيت تقابل مع بنودينى صدفة فى الدهليزو قد بدا عليها كأنها تنتظر بقلق شيئا ما أو شخصا ما ، فغمرته فى الحال موجة من الكراهية المنبعثة من الغيرة .

وقال فى فحيح : « يا سيدتى ، انك تضيعين وقتك ، انه لن يأتى ، وها هو خطابك يرد اليك » .

ورمى بالخطاب اليها .

فصاحت بنودينى : « مفتوحا ! » .

وابتعد عنها ماهندرا دون أن يعنى بالرد عليها ، فتخيلت أن بيارى قد فتح خطابها ورده اليها باحتقار ، فتصلب كل عصب فى جسمها وشعرت بوخز الألم والغضب وأرسلت تدعو الخادم الذى حملته الخطاب ، ولكنه كان قد خرج فى مهمة أخرى ، فحبست نفسها فى حجرتها ، وكما تنحدر نقط

الزيت على المصباح المصنوع من الطين كذلك قلبها المحترق آخذ الآن يفيض دمعا .

ومزقت الخطاب قطعا صغيرة عديدة ولكنها لم تجد فى ذلك عزاء لها ، ولكن ألا توجد طريقة لمحو خزى ما سطرته فى هذه السطور القليلة من الذاكرة ؟ وكما تلسع النحلة السوداء اذا استثيرت أى شيء يقف فى طريقها فقد استعدت بنوديني ، وقد جنت من الغضب ، لتنصب نقمتها على العالم من حولها ، عالم بدا كأنه مصمم على احباطها وغيظها ؛ أفكتب على كل ما كانت تصبو اليه أن يحبط ويفشل ؟ ، واذا كانت السعادة كلها قد أنكرت عليها وحكم عليها بوجود جدب عقيم فان هناك طريقة واحـــدة ما زالت باقية أمامها لتنقذ حياتها المحبطة — أن تقهر وتجر الى التراب كل أولئك الذين منعوها من حقها فى السعادة وثنوا ورود أنوثتها المزدهرة وسلبوها حقها الطبيعى الأصيل .

٢٣

انتهى الشتاء وبدأت نسمات الربيع الأولى تظهر فى الجو ، واستطاعت آشا بعد عدة أيام أن تجلس أخيرا فى شرفة السطح فى احدى الأمسيات وقد فرشت تحتها حصيرة وأمسكت بيدها مجلة شهرية راحت تقرأ فيها بعناية شديدة رواية مسلسلة فى ضوء الشفق المتضائل . كان بطل القصة فى طريق عودته الى وطنه ليستمتع بأجازة الباجو بعد سنة ظل فيها بعيدا عن بلده لما سقط فى أيدى اللصوص . وارتجف قلب آشا من الخـــوف والاضطراب . وفى نفس الوقت استيقظت بطلة القصة من نومها وهى تبكى وقد أرعبها حلم خبيث . وسالت دموع آشا ولم تكف عن السيل . كانت شديدة الاعجاب بالقصص البنغالى وكان كل ما تقرؤه يبدو لها مدهشا ،

فكانت تقول لبنوديني : « أرجــوك أن تقرئي هذه القصة يا عــزيزتي رمداء العين . انها قصة ممتازة ولن أستطيع أن أذكر لك كم بكيت وأنا أقرؤها » . فتبدأ بنوديني تشرح القصة فينزل حكمها الناقد كالماء المثلج على حماسة آشا المتدفقة .

وطوت آشا المجلة وعيناها تلمعان بالدموع وقررت أن تجعل ماهندرا يقرؤها . وفي تلك اللحظة وصل ماهندرا ، فلما رأت آشا وجهه غاص قلبها . وحاول ماهندرا جاهدا أن يبدو مرحا وسأل آشا : « فيم تفكرين وأنت جالسة وحدك في شرفة السطح ؟ » .

ونسيت آشا كل المحن التي صادفتها القصة وبطلتها .

وسألته في قلق : « ألست تشعر بأنك بخير ؟ » .

فأجاب ماهندرا : « ان صحتي على ما يرام » .

— « اذن لابد أن هناك ما يقلقك ، فأرجو أن تبوح لي بكل شيء » .

وأجاب ماهندرا وهو يلتقط مضيغة من صندوق آشا : « كنت أفكر في عمتي المسكينة التي لم تَرَكِ من مــدة طويلة . كم ستكون سعيدة لو أنك ظهرت أمامها فجأة ! » .

ونظرت آشا وهي ممتقعة اللون الى ماهندرا دون أن تقول كلمة واحدة ؛ وتساءلت في نفسها عما حدث حتى جعل ماهندرا يجيء الاقتراح فجأة ؛ فلما رآها صامتة لا تتكلم سألها : « ألا تريدين الذهاب ؟ » .

سؤال كانت الاجابة عنه عسيرة ، فقد كانت متشوقة الى رؤية خالتها ولكنها مع ذلك لم تكن راغبة في البعد عن زوجها .

— « سوف أذهب عندما تنتهي من كليتك وتستطيع أن تصحبني » .

— « سيكون من العسير على أن أسافر حتى عندما أنتهي من كليتي ، فان على أن أستعد للامتحان » .

— « اذن لن يهمنى السفر فى هذه الحالة » .
— « ولكن لماذا ؟ ألا تريدين أن تذهبى ؟ » .
— « لا ! » .
— « ولكنك كنت متشوقة الى الذهاب من بضعة أيام ، فلمَ هذا التغيير الفجائى ؟ » .

واستمرت آشا صامتة وعيناها مثبتتان على الأرض ، وبدا ماهندرا يشعر بالقلق فسوف تفلت منه فرصة يستمتع فيها بحرية غير مقيدة لكى ينمى علاقته مع بنودينى وضـايقه سكوت آشا فأطلق لغضبه المحبوس العنـان .

راح يسألها فى مرارة : « هل بلغ منك الشك مبلغا ترين فيه أن من واجبك أن تظلى تضعينى تحت مراقبتك ؟ » .

وفجأة وجد ماهندرا حلاوة آشا الطبيعية ولطفها وأناتها شيئا لم يعد يحتمل ، فاذا كانت تريد أن ترى خالتها فلم لا تعترف بذلك وتقول له : « أرجوك أن ترسلنى اليها بأية طريقة » بدلا من ذلك التردد — مرة نعم ، ومرة لا ، ومرة تصمت . يا لها من شخص متعب !

وصدمت آشا وارتعبت من ثورة ماهندرا المرة فجأة ، ولم تستطع أن تفكر فى اجابة عن سؤاله الساخر ، بل لم تستطع أن تفهم السبب فى رقته الفجائية أحيانا وقسوته الفجائية أحيانا ، وكانت كلما ازدادت حيرتها ازداد رعبها وشعرت وهى ممزقة بين الحب والخوف بالعجز والانهاك . كيف يتهمها ماهندرا بالتجسس عليه ؟ هل كان ذلك مجرد نكتة أم هو شك لا رحمة فيه ؟ هل يجب عليها أن تضحك وتشاركه النكتة أم تقسم له بشرفها وتنكر هذا الاتهام ؟ لم تدر ما تفعل .

وأخيرا لما رأى ماهندرا ، الذى عيل صبره ، آشا ساكتة محيرة سار

مبتعدا عنها بسرعة ، وأظلم الشفق تدريجا وتحول الى ليل وبدأ نسيم الربيع الرقيق فى المساء يتحول الى برودة مع الشتاء الراحل ، ورمت آشا بنفسها على الأرض وهى لا تلقى بالا لما أصاب بطل المجلة وبطلتها .

فلما دخلت آشا حجرة النوم فى ساعة متأخرة من الليل وجدت ماهندرا قد هجع الى سريره دون أن يناديها ، وتخيلت أنه كان مشمئزا من غلظة قلبها تجاه خالتها المحبة ، فدخلت الفراش وعانقت قدمى ماهندرا ثم رقدت ورأسها منحن فوق قدميه وتأثر ماهندرا لذلك كثيرا وحاول أن يرفعها بين ذراعيه ولكنها لم تتحرك وتمتمت « أرجوك اغفر لى ان كنت قد أخطأت » فقال ماهندرا وقد تغلبت عليه العاطفة « انك لم تخطئى ، بل أنا الغادر فقد آلمتك دون سبب »

وغسلت الدموع التى سالت من عينى آشا قدمى ماهندرا ، فنهض ورفعها وأجلسها بجانبه . وما ان عادت آشا الى وعيها حتى قالت : « أرجو ألا تتخيل أننى لست مهتمة برؤية خالتى ، كل ما أبغيه هو ألا أبعد عنك ، فلا تغضب منى » .

وقال ماهندرا متلطفا وقد أخذ يمسح جبهتها المبتلة : « لا يوجد ما يجعلك تغضبين يا تشونى ، انك لا تريدين أن تتركينى — فهل يمكن أن أغضب منك لهذا السبب ؟ لا ، انك غير مضطرة الى الذهاب الى أى مكان » .

— « لا ، بل يجب أن أذهب الى كاشى » .

— « ولكن لماذا ؟ » .

— « ما دمت قد تحدثت عن ذلك الشك وقلت اننى غير راغبة فى السفر حتى أبقى هنا لأتجسس عليك فيجب أن أسافر لبضعة أيام على الأقل » .

— « ولمَ تحتاجين الى التكفير عن خطأ أنا الذى ارتكبته ؟ » .

— « هذا ما لا أعرفه ، ولابد أننى أخطأت بطريقة ما . والا لما ولد هذا الشك المستحيل والا فلماذا اضطر الى الاصغاء الى اتهام لا يمكن أن يدور بخلدى حتى ولو فى المنام » .

— « ذلك لأنك ما كنت تستطيعين أن تفهمى حتى فى المنام الى أى حد يمكن أن أكون شريرا » .

— « مرة أخرى ، أرجو ألا تقول مثل هذه الأشياء ، أما عن كاشى فلابد أن أذهب اليها هذه المرة » .

فقال ماهندرا ضاحكا : « وهو كذلك ، سوف تذهبين ، ولكن ماذا يحدث لو أننى ضللت سواء السبيل أثناء غيابك ؟ » .

— « لست فى حاجة الى أن تخيفنى . كما لو كنت أحتضن مثل هــذا البعبع معى دائما ! » .

— « ولكن هــذا واجبك ، واذا سمحت لمثل هــذا الزواج أن يضل فمن سوف تلومين ؟ » .

— « على كل حال لن ألومك ، فلا تقلق » .

— « وهل ستلومين نفسك اذا حدث ذلك ؟ » .

— « نعم ! نعم ! » .

— « حسنا ، فى هذه الحالة سوف أرى خالك غدا وأحدد معه موعــد الرحلة » .

وتقدم الليل كثيرا ورقد ماهندرا يحاول أن ينام ، ولكنه التفت الى آشا بعد دقيقتين وقال لها فجأة : لا يا تشونى ، أظن أنه يجب ألا تسافرى » .

فقالت آشا بقلق : « لماذا تمنعنى ثانية ؟ اذا لم أذهب على الأقل مرة

واحدة فسوف يظل ترددك يخز فى نفسى ، ولذا أرجو أن تدعنى أذهب — ليومين أو ثلاثة على الأقل » .

فقال ماهندرا : « وهو كذلك » ، ثم استدار لينام .

وضعت آشا ذراعيها حول بنودينى فى اليوم السابق لرحيلها وقالت : « يا عزيزتى رمداء العين ، أرجو أن تعدينى وعدا واحدا » .

فأجابت بنودينى وهى تقرص وجنة آشا : « وهل هناك شىء لا يمكن أن أعمله من أجلك ؟ » .

— « لا أعرف ، ولكن يبدو أنك تغيرت كثيرا ، فأنت دائما متباعدة عن زوجى » .

— « انك تعرفين السبب ، لقد سمعت بأذنيك ما قاله ماهندرا بابو لبيهارى بابو ذلك اليوم ، فهل من الحكمة عندما تلقى مثل هذه الاتهامات أن أعرض نفسى لاتهامات أخرى ؟ ألا تتفقين معى يا عزيزتى رمداء العين ؟ » .

ولم تستطع آشا الا أن تعترف بأن بنودينى كانت على حق ، فلقد خبرت هى نفسها من وقت قريب جدا العار والضعة اللذين سببهما ذلك الحادث ، ومع ذلك فقد قالت : « ان هناك أشياء كثيرة تلقى هنا وهناك يا عزيزتى وما قيمة حبنا اذا كنا لا نستطيع أن نتحمل هذه السورات الصغيرة من الغضب ؟ يجب أن نتناسى كل شىء » .

— « حسنا ، سوف أتناسى » .

— « سأرحل الى كاشى غدا ، فأرجوك أن تعنى بزوجى فى غيابى ، وتتأكدى من راحته ، فلن يفيد تباعدك عنه كما فعلت فى هذه الأيام الأخيرة » .

واستمرت بنودينى صامتة ، فأمسكت آشا بيدها ورجتها قائلة : « أرجوك أن تعدينى يا رمداء العين يا عزيزتى » .

فأجابت بنودينى « فليكن ما تريدين » .

٢٤

يغرب القمر من جهة وتشرق الشمس من جهة أخرى ، ولكن بالرغم من أن آشا قد رحلت فلم يظهر لبنودينى أثر فى أفق ماهندرا ، فكان يتجول فى البيت حزينا ويدخل حجرة أمه فى كل وقت بذريعة أو بأخرى على أمل أن يرى بنودينى التى نجحت فى تجنبه .

ولاحظت راجلاكشمى كآبة ابنها وقلقه ، يا للمولد المسكين ! انه يفتقد زوجته ! ومع أنها كانت قد تألمت من أن زوجة ابنها قد جعلت وجودها شيئا سطحيا فى البيت ولم تبذل فى سبيل راحة ابنها الا قليلا ، فانها لم تستطع الآن أن تحتمل رؤية ابنها وحيدا مثقلا بالهموم . ونادت بنودينى وقالت لها : « لقد تركتنى نوبة الانفلونزا الأخيرة بربو ، فلم أعد أستطيع صعود درجات السلم أو نزولها وأنا آمنة ، فأرجوك اذن يا طفلتى أن تهتمى بماهن وأن تتأكدى بأن هناك عناية بحاجاته كلها . لقد اعتاد أن يدلل منذ طفولته فأصبح لا يمكنه الاستغناء عن التدليل . انك تستطيعين أن ترى كم يبدو حزينا وعاجزا منذ أن سافرت زوجته . تصورى كيف تتركه هكذا ! » .

وجلست بنودينى صامتة وقد أدارت وجهها قليلا وأخذت أصابعها تعبث بغطاء الفراش .

وسألتها راجلاكشمى « فيم تفكرين يا زوجة ابنى ? ليس هناك

ما يدعو الى التفكير فى هذا الأمر . دعى الناس يقولون ما يشاءون — انك لست غريبة على هذا البيت » .

فتوسلت اليها بنودينى قائلة : « أرجوك ألا تضغطى على يا أماه » .

فأجابت راچلاكشمى فى حزن « حسنا ، دعك من هذا ، وسوف أقوم بنفسى بما أستطيعه » .

وعنـدما نهضت واستعدت للصعود الى حجرة ماهندرا فى الطابق الثانى ، قلقت بنودينى وتوسلت اليها قائلة : « أرجوك ألا تصـعدى يا أماه ، انك لست فى صحة جيدة . سوف أذهب واغفرى لى ان أخطأت وسوف لا أعصى لك أمرا » .

كانت راچلاكشمى لا تبالى اطلاقا بقيل الناس وقالهم ، فمنذ وفاة زوجها وهى تركز كل اهتمامها على ابنها تركيزا جعلها لا تهتم كثيرا بأى شىء أو أى فرد آخـر ، ولذلك فان مجرد الاشارة الى أن النـاس ربما يتقولون عـلى ابنها وبنودينى كانت كافية لأن تثيرها . ألم تكن تعرف ابنها وما هو عليه من خلق ؟ بل أين نده فى الفضيلة ؟ واذا كان هناك انسان بلغ من الشر ما يجعله يطعن ابنها ويقدح فى حقه فليجف ويبلى لسان من يتناوله بالقيل والقال ! لقد كانت بطبيعتها تحتقر كل من يعارضون فيما تحبه وما لا تحبه .

ورجع ماهندرا من الكلية فدهش عندما رأى حجرته ، فلما ان فتح الباب حتى انتشرت رائحة بخور خشب الصندل العطرة ، ورأى لكلة السرير حاشية من الحرير القرمزى تتدلى فوق غطـاء للفراش ناصـع البياض ، وحل محل الوسادة ذات الطراز القديم وسائد مربعة ذات طابع أجنبى وقد طرزت بنماذج الأزهار من خيوط حريرية وصوفية . لقد كانت آشا قد رأت بنودينى وهى تطرزها على مدى أيام عديدة ، وكانت

قد سألتها مرات كثيرة عمن تعد له تلك الوسائد فكانت بنودينى تضحك وتجيب : « لمحرقة جنازتى ، فالموت هو الخطيب الوحيد الذى يمكننى أن أظفر به » .

أما صورة ماهندرا على الحائط فقد وجد لها أشرطة ملونة ربطت عند أطرافها الأربعة ، وتحتها على جانبى منضدة صغيرة وضعت بجوار الحائط فازتان من الزهور — كقربان الناسك الخفى لصورة ماهندرا فوق الحائط ! كانت الحجرة كلها تبدو مختلفة اختلافا تاما ، فالسرير قد نقل من مكانه وقسمت الحجرة نصفين بواسطة حاملين من الخشب كسيا بالجوخ ؛ السرير فى الخلف لليل ، والايوان على أرض الحجرة للنهار ، وأصبح للصوان الزجاجى الذى كانت تحتفظ فيه آشا بما لديها من دمى صينية وحلى ستار من القماش الأحمر جعد بأناقة أمام الزجاج حتى لا يرى أحد شيئا من الخارج . كان كل شيء فى الحجرة يدعو الى تذكر آشا قد غطى برشاقة جديدة تحمل دليل يد أخرى .

وما ان مد ماهندرا أطرافه المتعبة على الفراش الأبيض النظيف على أرضية الحجرة وأسند رأسه الى الوسائد الجديدة حتى أحس برائحة رقيقة تنبعث من الداخل ، فقد عطر حشو القطن بسخاء ومزج بلقاح أزهار الناجيشار . وعندما أغلق عينيه شعر بأن الشذى الذى استنشقه كان ينبعث من أصابع تشبه الزهور ، أصابع من طرزت أغطية الوسائد .

ودخلت الخادمة بصحفة من فضة عليها فاكهة وحلوى وكوب من شراب الأناناس المثلج . وهذا أيضا كان شيئا مختلفا يتحدث حديث المشتاق فى صمت . وبدا كل شيء رآه أو شمه أو ذاقه ايحاء لذيذا طغى على حواسه .

وما ان انتهى من الاستمتاع بما قدم له حتى دخلت بنودينى بصندوق

من فضة به مضيغة وتوابل ، ثم ابتسمت وقالت : « اغفر لى يا أخا زوجى ان كنت قد أهملتك أثناء وجباتك هذه الأيام الماضية ، وأرجو ألا تشكونى الى رمداء العين فتقول اننى لم أعن كما يجب فانى أبذل جهدى ولكن ماذا أفعل وعلى أن أعنى بالبيت كله ؟ » .

وقدمت الصندوق الى ماهندرا . حتى المضيغة بدت مختلفة بشذى خاص من الكادى (*) .

• قال ماهندرا : « من الخير أن يهمل الانسان أحيانا » .

فسألت بنودينى : « ولماذا ؟ أرجوك » .

— « حتى يعوض الانسان فينال فوائد تربو على ما اعتاده » .

— « وما مقدار الفوائد التى تجمعت حتى الآن أيها السيد صاحب الدين ؟ » .

— « ما دمت قد غبت أثناء الطعام فيجب أن تبقى بعده ، ويبقى بعد ذلك دين آخر عليك » .

فضحكت بنودينى وقالت : « يا لك من محتال ! اذا وقع الانسان فى قبضتك فلا فكاك منها » .

— « مهما قال دفتر الحسابات الجارية فماذا حققه بالفعل من مكاسب ؟ » .

— « وماذا هناك لأحققه ؟ ومع ذلك فها أنت تستبقينى أسيرة عندك » .

قالت بنودينى ذلك وزفرت تنهيدة وقد أضفت فجأة على الدعابة مسحة من الوقار وبدا على ماهندرا الوقار والرصانة كذلك .

وعاد يسألها : « وهل تنظرين اذن الى هذا البيت على أنه سجن ؟ » .

وفى هذه اللحظة دخل الخادم يحمل مصباحا وضعه على مائدة الشاى

(*) نبات .

وخرج .. وقالت بنودينى وهى تخفض عينيها وتحميهما بيدها من تطفل الضوء الفجائى : « لا أعرف وأنى لى أن أجاريك فى المناقشة ؟ دعنى أذهب الآن فعندى عمل » .

وأمسك ماهندرا بيدها فجأة .

وقال : « ما دمت قد اعترفت انك أسيرة فأين تستطيعين أن تذهبى ؟ » .

فصرخت بنودينى : « يا للعار ! دعنى أذهب ؛ لمَ تقبض على امرأة وتقيدها وهى على كل حال لم يعد لها طريق للهرب ؟ » .

وجذبت يدها وغادرت الحجرة .

وغاص ماهندرا مرة أخرى على الوسادة المعطرة وقد طغا دمه فى موجات حارة وجعله سحر المساء الساكن ومغامرة خلوته الحلوة ، وملاطفة نسيم الربيع الرقيقة له وقرب استسلام بنودينى يكاد يهذى من الشوق ومن الخوف على السواء . ثم قفز من الفراش وقد وهنت أعصابه وأطفأ المصباح بسرعة وأغلق الباب والنوافذ ثم عاد الى فراشه .

حتى الفراش نفسه بدا مختلفا ، فقد وضعت عدة حشيات جعلته ناعما لدنا ومرة أخرى نسيم العطر الذى يفوح منه وكان من العسير معرفة نوعه . وأخذ ماهندرا يتقلب على جنبيه يتحسس بجنون أثرا من الماضى يمكن أن يتعلق به ليعينه ويجد لنفسه فيه سلوى ولكنه لم يجد شيئا قريبا منه .

وفى التاسعة مساء كانت هناك طرقة على الباب ، ونادى صوت بنودينى من الخارج : « لقد أحضرت لك عشاءك يا أخا زوجى ، فأرجو أن تفتح الباب » .

وقفز ماهندرا من الفراش واندفع ليفتح الباب ، ولكن ما ان لمس المزلاج حتى تراجع فجأة من الخوف ، وغاص الى أرض الحجرة .

وصاح : « ليست عندى شهية للطعام ، لن آكل شيئا » .

فسأل صوت قلق من الخارج : « ألست بخير ؟ هل أحضر لك بعض الماء ؟ هل تحب شيئا أحضره اليك ؟ » .

— « لا شيء ، لا أريد شيئا » .

فتوسل اليه الصوت مرة أخرى : « أرجوك ألا تخفى على شيئا ، وحتى لو كان كل شيء على ما يرام أرجو أن تفتح الباب لحظة واحدة » .

فصاح ماهندرا : « لا ، لن أفتح الباب ، أرجوك أن تدعينى وحدى » .

ونهض مسرعا ثم غاص فى سريره مرة أخرى وهو يتطلع فى الظلام الى صورة آشا الغائبة ، فى فراغ الفراش ، فى اضطراب قلبه .

وعندما رفض النوم أن يستجيب له نهض مرة أخرى وأضاء المصباح وأمسك قلما وبدا يكتب خطابا لآشا :

« آ شا ، لا تتركينى وحيدا هنا أكثر من ذلك ، انك ملاكى الحارس ، وعندما لا تكونين معى تتجول أفكارى وتنطلق دوافعى من معقلها فلا أعرف كيف ولا الى أين تجرنى . أين الضوء الذى يضيء طريقى ؟ الضوء الذى ينبعث من عينيك المحبتين الصادقتين . تعالى سريعا يا ملاكى يا نجمى اللامع ، يا حبيبتى الوحيدة . انقذينى ، ارجعينى الى نفسى ، اجعلينى متكاملا مرة أخرى ، أستعيذ بك من خطيئة ارتكاب خطأ فى حقك ، من كابوس نسيانك ، مهما .. » .

وهكذا استمر يكتب معظم الليل يناجى آشا ليحرك حماسه لها فى نفسه . ودقت أجراس الكنيسة البعيدة معلنة الساعة الثالثة ، وكفت أصوات عجلات العربات فى الطريق فى الخارج ، حتى صوت الراقصة التى كانت تغنى فى الطابق الثانى من البيت المجاور ويصل الى سمعه سكت وضاع فى سكون النوم الذى غلف كل مكان ، وأخذ ماهندرا يفكر فى

صورة آشا ثم أطلق العنان لخياله المضطرب فى خطاب آخر مستطيل يكرر فيه نفس العاطفة بطرق وأساليب مختلفة حتى هدأت أعصابه المتعبة واستغرق فى النوم فى اللحظة التى رقد فيها فى الفراش .

وعندما استيقظ كان الصباح قد تقدم كثيرا وكان ضوء الشمس يغمر الحجرة فجلس فى فراشه مسرعا وقد استرخى ما أصابه من توتر فى الليل الى حد كبير ، وبينما كان يغادر فراشه وقعت عينه على الخطاب الذى دبجه فى الليلة الماضية وقد استقر تحت ثقل المحبرة على مائدة الشاى . وقرأ الخطاب ودهش لما فيه وصاح : « يا للسموات ! ماذا كنت أكتب ؟ انه يبدو كمشجاة ! شكرا لله على أننى لم أرسله ، والا ماذا كانت تظن آشا ؟ كان نصفه كافيا لكى يذهب بعقلها » وعاد يذكر ما اعتمل بنفسه من أثر ما حدث فى الليل . فشعر بالخجل من نفسه ومزق الخطاب قطعا وكتب خطابا آخر بسيطا ومختصرا لآشا :

« الى متى ستؤجلين عودتك ؟ واذا كان خالك لا يحتمل أن يعود قريبا فأخبرينى فلسوف أجىء لأحضرك . انى أشعر بالسأم من وجودى هنـا وحيدا » .

٢٥

انزعجت أنا برنا من ظهور آشا الفجائى فى كاشى بعد ظهور ماهندرا بأيام وبدأت تسألها كل أنواع الأسئلة .

— « حسنا يا تشونى ، رمداء عينك هذه التى كنت تتحدثين عنها — أتظنين انه لا توجد شبيهة لها فى كل الفضائل ؟ » .

— « فعلا يا خالتى وأنا لا أبالغ اطلاقا ، انها ذكية وجميلة ومثقفة » .

— « سوف ترين بالطبع القدوة فى صديقتك ، ولكن أخبرينى ما رأى الآخرين فى البيت فيها ؟ » .

— « حماتى لا تمل الثناء عليها وتفقد صوابها كلما تحدثت رمداء عينى عن الرحيل الى بيتها فى القرية . ولا عجب فهى تهتم بكل فرد اهتماما كبيرا ؛ بل لو مرض خادم من الخدم فهى تمرضه كما لو كانت له أختا أو أمـا » .

— « وماذا عن ماهندرا ؟ » .

— « أنت تعرفين كيف هو يا خالتى . انه لا يشعر بالراحة الا فى دائرة الأسرة المقربة ، كل فرد آخر يحب رمداء عينى — الا هو ، فقد فشل فى أن ينسجم معها » .

— « وكيف ؟ » .

— « على كل حال ، لقد نجحت بصعوبة كبيرة فى جعل أحدهما يتقرب من الآخر ومع ذلك فهو مقل جدا فى حديثه معها . انك تعرفين كم هو خجول ومتحفظ . ان الناس يظنونه متكبرا ولكن الحقيقة غير ذلك يا خالتى ؛ كل ما فى الأمر أنه لا يستطيع أن يتحمل أى فرد من خارج دائرته المحدودة المقربة الى نفسه » .

واحمرت خجلا الى حد ما عند هذه الكلمات ، وسرت أنا برنا وقالت لآشا وهى تبتسم لنفسها : « حقا ، ان الأمر كما تقولين . وعندما كان ماهن هنا لم يشر مرة واحدة الى صديقتك » .

فقالت آشا فى صوت متألم : « هذا أسوأ ما فى الأمر ، فهو اذن لم يهتم بشخص تجاهل وجوده كلية كأن عينيه لم تقعا عليه اطلاقا وكأنه لا يعرف من هو » .

فقالت أنا برنا وهى تبتسم ابتسامتها الحلوة الرقيقة : « ولكنه اذا



أحب شخصا فاخلاصه لا حد له كأنه لم يقابل أو يعرف شخصا آخر . حياة بعد حياة .. أليس كذلك يا تشونى ؟ » .

ولم تجب آشا وأخفضت عينيها ولعبت على شفتيها ابتسامة .

وسألتها أنا برنا : « وما أخبار بيهارى يا تشونى ؟ ألا ينوى الزواج اطلاقا ؟ » .

وتجهمت آشا فجأة ولم تدر ماذا تقول ، وانزعجت أنا برنا من سكونها وتغير لونها فسألتها بقلق : « أصدقينى القول يا تشونى ، ماذا حدث لبيهارى ؟ أليس بخير ؟ » .

لقد كانت لبيهارى فى قلب هذه المرأة التى لم تنجب مكانة الابن المحبوب ، وكان أسفها الوحيد أنه لم يتح لها أن تراه مستقرا فى الحياة كما يجب أن يستقر قبل أن تغادر منزلها . ان رغباتها الأخرى فى عالمها الشخصى البسيط قد تحققت فى جملتها ، وكان الفراغ المؤلم الوحيد الذى كان دائما يطارد عزلتها المقدسة هو صورة بيهارى ، الذى لم يتزوج . ولا يهتم به أحد .

وقالت آشا أخيرا : « أرجوك يا خالتى ألا تسألينى عن أخى زوجى بيهارى » .

ودهشت أنا برنا وسألتها : « ولماذا ؟ » .

فأجابت آشا « لأنى لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال . ثم خرجت من الحجرة واستمرت أنا برنا جالسة وهى غارقة فى التفكير . ماذا يمكن أن يكون قد حدث فى هذه الفترة القصيرة لشاب لطيف كبيهارى حتى تترك آشا الحجرة لمجرد ذكر اسمه ؟ يا لسخرية القدر . لماذا تحدثت اليه فى موضوع زواجه من تشونى اطلاقا ؟ ولماذا اختطفها ماهندرا منه ؟ » .

ومرت عدة أيام وعادت عيناها تمتلئان بالدموع مرة أخرى وهى تقول

لنفسها : « يا لبيهارى المسكين ! لو أنه كان فعلا قد ارتكب أمرا ادا ، فكم قاسى يا ترى حتى اندفع الى ارتكاب ما ارتكب ؟ فهو ليس الرجل الذى يعترض طريقه ما يشينه بسهولة » وتألم قلبها وهى تفكر فى آلامه .

وعند الشفق وبينما كانت أنا برنا تصلى صلواتها وقفت عربة بالباب وبدأ الحوذى يدق الباب وينادى من الخارج ، وصاحت أنا برنا من داخل حجرة الصلاة : « يا للسموات ! لقد نسيت تماما أن حماة كونجار وابنتى أختها سيصلن اليوم من الله آباد ، لابد أن يكن قد حضرن ، فأرجوك يا تشونى أن تأخذى معك مصباحا الى الباب وتفتحيه » .

ونزلت آشا وبيدها مصباح الى الباب وفتحته . ورأت بيهارى واقفا فى الخارج ، فصاح عند رؤيتها : « أهلا يا زوجة أخى . أنت هنا ؟ لقد قالوا لى انك لن تأتى الى كاشى » .

وسقط المصباح من يد آشا وجرت تصعد درجات السلم كما لو كان شبح قد أفزعها ولهثت بشكل يدعو الى الشفقة : « خالتى ! أرجوك أن تطلبى منه أن يذهب فى الحال » .

وذعرت أنا برنا ونهضت من مقعد الصلاة وسألتها : « من ؟ من هو يا تشونى ؟ » .

— « بيهارى أخو زوجى ، فلقد تبعنى الى هنا » .

واندفعت الى الحجرة الأخرى وأغلقت الباب عليها . وسمع بيهارى كل كلمة وأراد أن يهرول خارجا ولكنه شعر فجأة كأن كل ما فيه من طاقة قد تسرب من أطرافه ، وأسرعت أنا برنا بالنزول ولما تنتهى من صلواتها فوجدت بيهارى جالسا على الأرض بالقرب من الباب . ولم تكن قد حملت معها مصباحا فلم تستطع أن ترى وجه بيهارى ولم يستطع بيهارى أن يراها .

« بيهارى ! » .

وآسفاه ! كم كان صوتها مختلفا الآن عن النغمة المألوفة ، نغمة الحب والعاطفة ! لقد حملت نبراته الصارمة تقريعا وتعنيفا فزمجر كالصاعقة ، على رأس من ، أيتها الأم أنا برنا ، رفعت سيفك المهلك (*) ؟ لقد جاء بيهارى التعس فى هذا الظلام يبحث عن البركة عند قدميك المقدستين المباركتين !

وجفل بيهارى كما لو كان البرق قد مر خلال اطاره . ثم نهض وتمتم : أرجوك يا عمتى . فأنا لا أريد أن أسمع كلمة واحدة ، أكثر من ذلك . ولا كلمة ! فأنا ذاهب الى حال سبيلى » .

وانحنى أمام أنا برنا دون أن يلمس قدميها ، وكما تقدم الأم طفلها الميت الى مياه الجانجز المظلمة ، تركت أنا برنا بيهارى يذهب فى سكون الليل المظلم ، وسارت العربة به دون أن تناديه مرة واحدة لكى يعود .

وفى تلك الليلة كتبت آشا لماهندرا :

« جاء أخو زوجى بيهارى فجأة هذا المساء . عودة خالى الى كلكتا غير مؤكدة . أرجو أن تأتى سريعا لتأخذنى معك الى البيت » .

٢٦

شعر ماهندرا بعد الاضطراب النفسى ويقظة الليلة السابقة بالضعف والانقباض فى الصباح . كان الشهر شهر مارس وكان الجو قد أخذ فى الدفء ، وبدلا من أن يجلس الى مكتبه ويقرأ كتبه كما كانت عادته

(*) يعبد الهندوس فى البنغال كالى على انها أم العالم ويصورونها على أنها تحمل سيفا فى يد وتمثل الناحية المهلكة من القدرة الألهية . وأنا برنا أيضا اسم لنفس الآلهة فى ناحيتها المفيدة .

فى الصباح ، رقد على الايوان وأسند رأسه الى وسادة وتقدم به الصباح ولكنه ظل راقدا فى مكانه ، ساكنا لا يتحرك مهملا حتى حمامه ، وكان يسمع صياح الباعة فى الشارع مع صوت العربات الذى لا ينتهى وهى فى طريقها الى المكاتب ، وترنيم العاملات الممل وهن يعملن فوق سطح بيت مجاور لم يكتمل بناؤه وغناءهن الذى كانت تتفق نغمته ودقات الدقمان ، وأخذ دفء النسيم المعتدل يهدىء من أعصاب ماهندرا المتعبة — فلم يخلق مثل هذا الصباح المضنى من أيام الربيع لتصميمات صارمة أو مجهودات تحتاج الى بطولة أو معارك عقلية .

ودخلت بنودينى وسألته فجأة : « ماذا بك اليوم يا أخا زوجى ؟ أفلا تريد أن تستحم ؟ ان الطعام معد ، ولكن لم ترقد ؟ ألست فى صحة جيدة ؟ أتشعر بصداع ؟ » .

واقتربت منه ومست جبهته بيدها .

وتمتم ماهندرا بضعف وهو يكاد يغمض عينيه : « لا أشعر أننى على ما يرام اليوم ولست أعتزم الاستحمام » .

فتوسلت بنودينى قائلة : « ليس من المهم أن تستحم ، ولكن أرجوك أن تتناول شيئا من الطعام » .

ثم جعلت تلاطفه حتى نهض وأخذته الى حجرة المائدة حيث نجحت بعد أخذ ورد ودى فى أن تجعله يأكل ، فلما انتهى من طعامه عاد الى حجرته ورقد على الايوان وجلست بنودينى بالقرب من رأسه وبدأت تدلك جبهته برقة .

وقال ماهندرا وعيناه مغلقتان : « يا عزيزتى رمداء العين ، انك لم تتناولى طعامك فأرجوك أن تذهبى وتأكلى » .

ولكن بنودينى لم تذهب ، وأخذت الستائر فى الحجرة تتموج فى نسيم

الظهر الدفىء العليل الذى كان يطن بتمتمة فى شجرة جوز الهند القريبة من سور البيت ، وأخذت ضربات قلب ماهندرا تسرع وتعلو كما لو كانت تتبع نغمة معينة واشتد تنفس بنودينى كما لو كان يتبع نفس النغمة فأخذ يحرك الشعر فوق جبهة ماهندرا . لم يتفوه أحدهما بكلمة . وقال ماهندرا لنفسه : « اننى أطفو على أمواج فيض الحياة الدائم التى لا تتوقف عن الارتفاع والانخفاض فما قيمة المكان الذى تلمس السفينة الشاطىء عنده ، واذا كان لديك قيمة فالى متى ؟ » .

وربتت أصابع بنودينى على جبهته برقة وأحنت رأسها تدريجا وقد تثاقلت أطرافها تحت عبء شبابها الغض ، وأخذ النسيم يداعب بعض شعر رأسها السيب فيتثنى على جبهة ماهندرا ، فيرسل أمواجا حارة من الدم مندفعة فى أحشائه واشتد تنفسه حتى شعر أنه سيختنق وفجأة جلس وصاح : « لا ! دعينى أذهب الى الكلية ! » ووقف وهو يتحاشى عينى بنودينى .

وقالت بنودينى : « لا تغضب ! ولسوف أحضر لك ملابس الكلية » .

وأخرجت ملابسه فارتداها مسرعا وخرج الى الكلية ، ولكنه وجد من المستحيل أن يركز انتباهه على عمله ، فقد كان ملولا متبرما . وبعد مجهودات لا طائل تحتها رجع الى البيت مبكرا .

وعندما دخل حجرته وجد بنودينى راقدة على الأريكة ووجهها الى أسفل وصدرها يضغط على وسادة وهى تقرأ كتابا وشعرها الأسود الطويل ينساب فوق ظهرها . ولعلها لم تسمع وقع خطواته وهو يدخل ، ولكنه سار على أطراف أصابع قدميه فى هدوء حتى وقف قريبا منها فسمعها تزفر تنهيدة عميقة .

وقال فى رقة : أيتها السيدة اللطيفة ، لا تضيعى شفقتك على شخصيات خيالية . ماذا تقرئين ؟ .

وجفلت بنودينى وأسرعت تجلس وهى تخفى الكتاب فى طيات ساريها ، وحاول ماهندرا أن يغتصبه منها ، وبعد جذب ودفع غلبت بنودينى على أمرها ونجح فى اختطاف الكتاب منها . وقرأ العنوان فاذا به « شجرة السم » [1] وبقيت بنودينى صامتة وأشاحت بوجهها وهى تتنفس بثقل .

وصعد الدم الى صدر ماهندرا واستطاع بعد جهد جهيد أن يستجمع كيانه ثم قال ضاحكا : « كيف سخرت منى ! لقد كنت أظن أن فى الأمر سرا ، تخيلى بعد كل هذا الجذب والدفع يتبين أن كل السر هو (شجرة السم) » .

— « وأى سر كنت تتخيلنى أخفيه ؟ » .

وأجاب ماهندرا فى غير روية : « مثلا خطاب من بيهارى » .

وفجأة انبعث البرق من عينى بنودينى ، وبدا أن اله الحب الذى كان يعبث بسهمه طوال هذا الوقت قد احترق حتى عاد رمادا مرة أخرى [2] . وقفزت بنودينى من مقعدها كلهيب أضىء فجأة فأمسك بها ماهندرا وقال مستعطفا : « أرجو أن تغفرى لى ، اغفرى لى دعابتى » .

وتمتمت بنودينى وهى تجذب يدها منه : « دعابة ! وعلى حساب من ؟ لو أنك كنت جديرا بصداقته لغفرت لك دعابتك . ولكنك وضيع كل الوضاعة . أنت غير قادر على مصادقة الناس ومع ذلك فعندك من الصفاقة ما يجعلك تنتقده وتندد به ! » .

---

(١) سبقت الاشارة الى هذا الكتاب .

(٢) اشارة الى الأسطورة الهندوسية المعروفة « كاما » اله الحب الذى احترق الى رماد لأنه تجرا على أن يصوب سهمه الى شيفا .

وكانت على وشك أن تهرول من الحجرة عندما أمسك ماهندرا بقدميها يحتضنهما بيديه ، وفجأة رأى ظلا يخترق الحجرة فسحب يديه ونظر فوجد بيهارى واقفا .

وقال بيهارى فى هدوء وبنظرة باردة برود الثلج تخترق كليهما : انى أعتذر عن تطفلى فى غير موعده ولكنى لن أستمر هنا طويلا . لقد جئت لأقول اننى كنت فى كاشى ولم أكن أعرف أن زوجة أخى هناك ولم تتح لى فرصة أطلب فيها العفو عن تلك القحة غير المقصودة ، ولذلك فقد جئت اليك أقدم اعتذارى ، فاذا كنت قد ارتكبت خطأ ، عن معرفة أو عن جهل ، فأرجو ألا تحملها نتيجة خطئى .

واشتعل ماهندرا غضبا وقد أخذ على غرة فى لحظة من لحظات ضعفه حتى عجز عن أن يدرك دافعا كريما فى هذه اللحظة فابتسم بتأفف وتهكم وهو يقول « الضمير الآثم ؟ اننى لم أطلب منك أن تعتذر أو أن تنكر — فلم اذن مهزلة العفو هذه والقيام بدور القديس ؟ » .

ووقف بيهارى وقد تسمرت قدماه فى الأرض كقطعة من الخشب ؛ وارتجفت شفتاه كما لو كان يكافح ويناضل لكى يقول شيئا . فتدخلت بنودينى .

وصاحت : « لا تنبس بكلمة يا أخا زوجى بيهارى ، ان ما قاله هذا الشخص لم يدنس الا لسانه ولم يلوثك بأية طريقة » .

أما ان بيهارى سمع كلمات بنودينى أو لم يسمعها فأمر مشكوك فيه ، ولكنه استدار كمن يسير فى نومه ورجع بخطواته الى الوراء . وتبعته بنودينى ورجته فى قلق : « يا أخا زوجى بيهارى ؛ أليس عندك ما تقوله لى ؟ ان كان ما تشعر به احتقارا فأرجو أن تلقى بالاحتقار فى وجهى » .

ولكن بيهارى لم يجب وسار قدما ، فاندفعت بنودينى الى الأمام

وأطبقت على يد ه اليمنى بكلتا يديها ، ولكنه أبعدها عنه بشدة وفى حركة تدل على الاحتقار الكامل وسار فى طريقه دون أن يتنبه الى أن ضربته أسقطت بنودينى على الأرض .

واندفع ماهندرا الى بنودينى عندما سمع صوت السقطة ووجد مرفقها يدمى فقال معلقا : « جرح شـــديد » وسرعان ما قطع قطعة من قميصه الموسلين الرقيق ، وكان على وشك أن يضمد الجرح عندما جذبت بنودينى ذراعها منه وهى تصيح : « لا ، أرجوك لا تلمسه ، دعه يدمى ! » .

— « دعينى أضع عليه مرهما وأضمده حتى يخف الألم ويلتئم الجرح بسرعة » .

فقالت بنودينى وهى تبتعد عنه : « لا أريد أن يخف الألم ، دعه يستمر فهو ألمى أنا » .

واعتذر ماهندرا قائلا : « أنا آسف اذا كنت نسيت نفسى وارتكبت حماقة أمام الآخرين ، فهل يمكن أن تغفر لى ؟ » .

— « اغفر لك ماذا ؟ لقد أحسنت صنعا . أتظن أننى أخاف من الناس ؟ اننى لا أهتم اطلاقا ، فلم أجرى وراء أولئك الذين لا يعرفون الا الأذى ثم الهرب ؟ أولئك الذين يحتضنون قدمى ويشدوننى اليهم ألا يعنون شيئا بالنسبة الى ؟ » .

وســعد ماهنــدرا وسأل وهو يرتجف : « اذن فلن تنبذى حبى يا بنودينى ؟ » .

— « بل سوف أضعه على رأسى كالتاج ، اننى لم أقابل مثل هذا الحب فى حياتى فكيف يمكننى أن أرفض ما تعرضه على » .

وأخذ ماهندرا بكلتا يديها فى يديه وقال : « اذن تعالى الى حجرتى .

لقد آلم كل منا الآخر اليوم ، ولن أنعم بسلام حتى نمحو كل أثر لهذا الجـرح » .

— « لا ؛ ليس اليوم ، دعنى لنفسى اليوم ، وأرجو أن تعفو عنى اذا كنت سببت لك ألما » .

— « ويجب أن تغفرى لى أنت أيضا والا فلن أنم الليل » .

— « لقد عفوت عنك » .

وتحمس ماهنـدرا وأراد فى التو واللحظة أن يختطف من بنودينى برهانا على العفو والحب ، ولكن نظرة على وجه بنودينى جعلته يتراجع . ونزلت بنودينى درجات السلم ومشى ماهندرا ببطء الى الشرفة وبدأ يسير جيئة وذهابا . لقد شعر بالبهجة ولذة التحرر عندما تذكر أن بيهارى قد اكتشف سره أخيرا وفجأة ، فلقد استراح الى حد كبير من المجهود ومن الشعور بضعة النفس الناجمة عن التخفى المستمر والحجج الواهية وقال لنفسه : « لم أعد أريد أن أتظاهر بمظهر الرجل الطيب — انىأحب ؛ ان هذا ليس مجرد تظاهر وانما هو حقيقة » ، وأسكرته كبرياء الحب حتى بدأ يطرى نفسه على أنه استطاع أن يكف عن أن يكون رجلا طيبا ، وشعر بأنه يستطيع أن يتحدى العالم كله وهو جد واثق من نفسه « دعهم يفترون على اذا شاءوا — انى أحب ، انى أحب » . لقد ملأت صورة بنودينى عليه عقله ونفسه حتى حجبت عنه السماء والعالم أجمع وكل الالتزامات التى أجمع الناس عليها وبدا كما لو كان بيهارى قد قلب فجأة اناء حبر مقفول فكسره ليطلق ما كان مغلقا داخل عقله الباطنى تاركا سواد عينى بنودينى وشعرها يغمر كل شىء ويمحو فى لطخة واحدة منتشرة كل ما هنالك من بياض وكل كتابات الماضى .

٢٧

ما ان استيقظ ماهنـدرا فى الصباح التالى حتى غمرت قلبه نشـوة الابتهاج اللذيذ كما لو كانت شمس الصباح المبكرة قد مست كل أفكاره وآماله بلونها الذهبى ، فيا للجمال الذى تحلت به الأرض ويا للسحر الذى بدت عليه الشمس ! وبدا عقله كلقح الزهور دفعتها الرياح فأخذت تطفو بخفة فى الهواء .

وكان سائل من طائفة هايشنافى [1] يغنى على دقات الطبول والصنجان خارج الباب الرئيسى ؛ وكان الخادم على وشك أن يطرده عندما جذبه ماهندرا ورمى روبية الى السائل . وأسقط الخادم المصباح من يده اهمالا فكسره قطعا ونظر عاجزا متجمدا من الخوف الى ماهندرا ، ولكن ماهندرا قال له بلطف : « أرجـو أن تنظف المكان حتى لا يخطو انسان عـلى الزجاج » . وبدت أية خسارة وأى خطأ وكأنه لا ينطوى على خطأ .

لقد ألقى الحب الذى كان مستترا طوال هذه الأيام خلف سـتار بالحاجز الذى يحجزه فجأة وظهر أمامه واضحا ، وارتفع الستار ليكشف العالم له فى ضوء جديد كلية وتلاشت تفاهة الأرض ونزاعها ، وبدا كل شىء مدهشا ؛ الأشجار والطيور والناس فى الطريق وضجيج السوق ، أين كان كل هذا الجمال الشامل مختبئا من قبل ؟

وخيل الى ماهندرا أن المقابلة بينه وبين بنودينى فى هـذا اليـوم لن تكون مقابلةعادية ، مجرد لقاء يومى رتيب ، بل ستكون شيئا مختلفا يحتاج الى الشعر للحديث والموسيقى للتعبير ، سيكون اليوم صفحة من

---

(١) طائفة دينيـــة .

صفحات ألف ليلة وليلة يمتلىء جمالا وعظمة متحررا من عبودية الكبت والعرف ، سيكون حقيقة ومع ذلك فسوف يكون أشبه بالحلم غير مرتبط بوصايا المجتمع وحقائق العالم القاسية .

لقد شعر بالاثارة والقلق فأخذ يتجول فى البيت على غير هدى . ولم يذهب الى الكلية ، ولا يدرى متى تبدأ اللحظة المدهشة التى لا يستطيع أى تقديم فلكى أن يتنبأ بها . وكان يصل اليه من حين الى آخر صوت بنودينى من المطبخ أو الكرار ، فيستاء من ارتباطها بعالم الحقيقة . اذ رفعها فى خياله الى مستوى يعلو على مثل هذه الأمور العادية ، وبدا له الوقت ثابتا لا يتحرك ، فقد انتهت وجبة الغداء وسكن من فى المنزل فى هدوء الأصيل ومع ذلك فلم يكن هناك أثر لبنودينى — واهتزت أعصابه من ألم الحيرة والانتظار ومزقها الأمل واليأس والفرح والألم .

ووقعت عينه على كتاب الأمس وهو ما زال فى مكانه على الايوان ، وسببت له ذكرى صراعه اللذيذ مع بنودينى على الاستحواذ عليه هزة فرح سرت فى كل جسمه ، فأمسك بالوسادة التى كانت بنودينى تضع ثقلها عليها ووضع رأسه عليها وبدأ يقلب صفحات « شجرة السم » ثم ما لبث أن انهمك فى القصة تدريجا ولم يتنبه الى مرور الوقت الى أن دقت الساعة الخامسة .

لقد ظهرت بنودينى تحمل صينية نحاسية مطلية بالميناء تحمل عليها أطباق الفاكهة والحلوى وبطيخة مقطوعة مسكرة ومثلجة ومعطرة ، قالت وهى تضع الصينية أمام ماهندرا :

« ماذا بك يا أخا زوجى ؟ لقد بلغت الساعة الخامسة ولم تأكل أو تغير ملابسك بعد ! » .

وصمت ماهندرا . كيف لم تعرف بنودينى ما به ؟ وهل لمثل هذا السؤال

ما يبرره ؟ ألم تفهم ان اليوم يختلف عن سائر الأيام ؟ ثم شعر فجأة بالفزع خوفا من أن تتحول آماله الى تراب نتيجة اعراضها عنه ؛ ومن ثم فقد امتنع عن المطالبة بأى شىء على أساس ما حدث بالأمس .

وجلس ليأكل وذهبت بنـــودينى وأحضرت له من الشرفة الملابس الصوفية التى كانت قد نشرت لتجف فى الشمس ، وبدأت تطويها وتضعها فى الصوان فى حذق .

وقال ماهندرا : « انتظرى لحظة . دعينى آكل ثم أساعدك » .

فقالت بنودينى فى تضرع ساخر : « تساعدنى ؟ بالله عليك اعمـــل ما شئت ولكن لا تحاول أن تساعدنى » .

— « حقا ؟ أتظنيننى عديم الفائدة ؟ حسنا ؛ دعينا نرى » .

وبدأ يحاول محـــاولات ثقيلة الظل ليطوى الملابس ولكن بنودينى اختطفتها منه وقالت : « أرجوك يا سيدى ألا تزيد عملى جهدا » .

— « حسنا ، دعينى اذن أراقبك وأتعلم منك على الأقل » .

ثم جلس على أرضية الحجرة بجانب بنودينى التى راحت تطـــوى الملابس وترتبها وهى تنفض التراب على ظهره فى دلال من حين الى آخر .

وهكذا بدأت اللحظة التى كان ينتظرها منذ أمد طويل . لقد كانت لحظة تختلف كل الاختلاف عن الطريقة التى كان يتوقعها من بنودينى ، فقد كانت طريقة تعوزها كرامة الخيال الذى يستحق أن يخلد شـــعرا أو يغنى أرجوزة أو يروى قصصا ، ومع ذلك فلم يخب أمل ماهندرا بل شعر فى قرارة نفسه بالراحة ، فقد كان شديد الحيرة لا يعرف كيف يشكل حلمه الذى كان يتخيله ولا كيف تكون مقدمته ؛ ماذا عساه يقول ولا فيم يتحدث والى أى حد يتحدث ، وفوق ذلك كله كيف ينقـــذ حديثه من التورط فيما هو غث أو مسف فجاءت اليه هذه الطريقة السهلة البسيطة ، طريقة

التودد اللعوب بين نفض التراب وطى الملابس موفقة لتنقذه من الجرح الذى يتولد عن مثل أعلى خيالى بقدر ما هو مستحيل .

وفى هذه اللحظة دخلت راچلاكشمى فنظرت الى ماهندرا وسألته : « ماذا تفعل هنا يا ماهن وبنودينى تطوى الملابس ؟ » .

فشكت بنودينى قائلة : « انظرى اليه يا عمتى . انه يزيد أعبائى عبثا ! » .

فأجاب ماهندرا : « لقد كنت فى الواقع أساعدها يا أماه » .

فصاحت راچلاكشمى : « يا للسموات ! أنت تساعدها ! » ثم التفتت الى بنودينى وأضافت « انك تعلمين يا بنودينى أنه مدلل منذ طفولته وأنه لا يستطيع أن يعمل شيئا لنفسه » .

ثم نظرت برقة الى ابنها العزيز الذى لا حول له ولا قوة . كان موضوع حديثها الرئيسى مع بنودينى دائما هو كيف تدلل طفلها الكبير وتحيطه بكل رعاية وهو الذى لا يستطيع أن يعنى بشئون نفسه ، وقد لاحظت ، وهى تشعر بالراحة والرضا ، أن بنودينى كانت تهتم به الآن بالنيابة عنها ، وأن ماهندرا قد تعلم أخيرا أن يقدر كفاية بنودينى ؛ وأنه كان شغوفا بأن تبقى معهم ، وقد أسعدها ذلك كثيرا . وقالت لبنودينى متعمدة منفعة ابنها : « أما وقد وضعت ملابس ماهندرا الصوفية فى الهواء ووضعتيها فى مكانها فانى أفضل أن تقومى أنت يا عزيزتى بتطريز اسمه على المناديل غدا . يا للعار ! بدلا من أن أهتم بك أكلفك كل هذا العناء ! » .

فقالت بنودينى : « اذا تكلمت بهذا الأسلوب يا عمتى فسوف أتخيل أنك تنظرين الى على أننى غريبة عنكم » .

فقالت راچلاكشمى متطلفة : « لا يا عزيزتى ، بل أنت أقرب الى من ابنتى » .

وبعد أن وضعت بنودينى الملابس فى مكانها سألتها راچلاكشمى :
« هل نضع الشراب على النار الآن [1] ، أم هناك عمل آخر ؟ » .
— « لا يا عمتى ، لا يوجد عمل آخر . دعينا نذهب ونصنع الحلوى » .

فتدخل ماهندرا يقول : « ولكن يا أماه ، لقد كنت تأسفين من دقيقة واحدة مضت على أنك تكلفينها نصبا فلماذا تجرينها ثانية الى العمل ؟ » .

فأجابت أمه وهى تربت بنودينى بود تحت ذقنها : « هذا الملاك العزيز يحب العمل » .

فاستطرد ماهندرا قائلا : « لم يكن عندى عمل هذا المساء وظننت أننى قد أقرأ كتابا لرمداء العين » .

فاقترحت بنودينى قائلة : « يمكننا نحن الاثنتين أن نستمع الى القراءة فى المساء » .

وقالت راچلاكشمى لنفسها : « يا لماهن المسكين ! انه يشعر بالوحدة ويجب أن نتعاون جميعا لكى نسليه دائما » ، ومن ثم فقد قالت بصوت مرتفع : « اقتراح ممتاز ، فبمجرد أن تعد عشاء ماهن نصعد ونصغى الى الكتاب . ما رأيك يا ماهن ؟ » .

وألقت بنودينى بنظرة سريعة الى ماهندرا الذى أجاب : « حسنا » ولكن كان من الواضح أنه قد فقد حماسته لهذا الاقتراح . ونزلت بنودينى مع راچلاكشمى .

وشعر ماهندرا بالغيظ وقال لنفسه : « فلأخرجن ولأعودن متأخرا » . ثم قام فبدل ملابسه ولكنه لم يستطع أن ينفذ قراره أبعد من ذلك ، وأخذ يسير جيئة وذهابا فى الشرفة مدة طويلة وهو ينظر بقلق الى درجات السلم ،

(1) لعمل الحلوى .

وأخيرا دخل الحجرة وجلس متجها وهو يقول : « لن ألمس الحلوى هذه الليلة . سوف أجعل أمى تدرك أن الاحتفاظ بالشراب فوق النار كل هذا الوقت يفسد الحلوى » .

وعند العشاء [1] أحضرت بنودينى راچلاكشمى معها ، وكانت الأخيرة قلما تصعد السلم خوفا من الربو ، ولكنها صعدت اليوم تلبية لرغبة بنودينى الخاصة . وجلس ماهندرا ليأكل وقد بدا عليه الوجوم .

قالت بنودينى محتجة : « ماذا بك يا أخا زوجى ؟ انك لا تأكل شيئا » .

وسألته الأم فى قلق : « ألا تشعر أنك على ما يرام ؟ » .

وعادت بنودينى تقول : « لقد صنعت هذه الحلوى بعناية كبيرة ، ويجب على الأقل أن تجرب بعضها ؛ ولكن لعلى لم أجد صنعها ؟ وفى هذه الحالة أرجو ألا تأكلها . لا ، لا ، يجب ألا تلمسها ، فليس من الصواب أن تأكلها تحت ضغط » .

فقال ماهندرا ضاحكا : « يا للاحراج ! انها بالضبط الحلوى التى تغرى الانسان أكثر من أى حلوى أخرى وانى لأستمتع بها تماما . فلمَ تريدين أن تمنعينى عن أكلها ؟ » .

وأكل ما فى الطبق ولم يترك أثرا واحدا مما كان فيه .

وبعد أن انتهوا جميعا من طعامهم اتجه ثلاثتهم الى حجرة ماهندرا وجلسوا هناك وقد امتنع ماهندرا عن ذكر اقتراحه الأول ، ولكن راچلاكشمى قالت : « لقد تكلمت عن كتاب ما ، فلم لا تبدأ ؟ » .

---

(1) من التقاليد المتبعة أن تجلس النساء منفصلات عن الرجال وألا يجلسن الى الطعام الا بعد أن يهتممن بهم وهم يأكلون .

فأجاب ماهندرا : « لا أظن أنك ستهتمين بالانصات ، فليس فيه آلهة ولا آلهات » .

وقالت راجلاكشمى لنفسها : « يا له من قول ؟ » لقد جاءت وهى مصممة كل التصميم على أن تستمتع بأى شىء يقرؤه ماهندرا حتى ولو كان ما يقرؤه تركيا . يا للولد المسكين ! انه يشعر بالوحدة — والزوجة بعيدة فى كاشى — ان ما يسره لابد أن يسر الأم » .

واقترحت بنودينى : « هنالك تلك المختارات الشعرية من الشرائع الخلقية فى حجرة عمتى فلمَ لا تقرؤها علينا هذا المساء ؟ انها سوف تسرها ويمر المساء فى سرور » .

وأطلق ماهندرا نظرة فيها توسل الى بنودينى ، وفى تلك اللحظة دخلت الخادمة وأعلنت أن سيدة قد جاءت وأنها تنتظر فى حجرة راجلاكشمى فى الدور الأول : كانت السيدة كايت صديقة ودودة لأسرة راجلاكشمى فلم يكن من اليسير على راجلاكشمى أن تضحى بمتعة الحديث معها هذا المساء ، ومع ذلك فقد قالت للخادمة : « أرجوك أن تعتذرى للسيدة كايت بأننى مشغولة فى حجرة ماهن ، وقولى لها اننى أرجوها أن تحضر غدا على وجه التأكيد » .

فاقترح ماهندرا مسرعا : « ولكن لماذا يا أماه ؟ لم لا تنزلين اليها ؟ » .

فقالت بنودينى : « لا تهتمى بالذهاب اليها . سوف أذهب أنا وأجلس مع السيدة كايت » .

وقالت راجلاكشمى وهى لا تستطيع مقاومة اغراء فرصة للانغماس فى حديث نسائى لاذع : « اجلسى أنت هنا يا عزيزتى ودعينى أنزل لأتخلص من السيدة كايت . وأنت أرجوك أن تبدأ القراءة وألا تنتظرنى » .

وما أن تركت راچلاكشمى الحجرة حتى انفجر ماهندرا قائلا : « لماذا تعذبيننى عمدا ؟ » .

فأجابته بنودينى وهى تتظاهر بالدهشة : « يا له من قول تقـوله ! أعذبك ؟ كيف ؟ لعل الواجب كان يقتضينى ألا أقحم نفسى عليك . دعنى أذهب » .

وحاولت أن تنهض وقد بدا عليها الحزن ، فصاح ماهندرا وهو يمسكها من يدها : « هذه بالضبط هى الطريقة التى تعذبيننى بها ! » .

— « أنا آسفة ولكننى لم أكن أدرك أننى وباء هكذا ، ولابد أنك قوى جدا حتى استطعت أن تتحملنى طول هذه المدة ، دون علامات تدل على الألم أو الضجر » .

فتنهد ماهندرا وقال وهو يجذب يدها ويضعها على قلبه : « كيف تعرفين من الخارج ؟ » .

وصرخت بنودينى فأطلق يدها وعاد يسألها بقلق : « هل آلمتك ؟ » ولاحظ أن جرح الأمس قد بدأ يدمى من جديد .

واعتذر ماهندرا وقد بدا عليه الأسى : « انى آسف ، لقـد نسيت الجرح . لابد أن أضع عليه شيئا وأضمده اليوم . بل أنا مصر على ذلك » .

فقالت بنودينى : « انه غير ذى بال فأرجو ألا تهتم ، ولن أعمل له شيئا » .

— « ولماذا ؟ » .

— « لا محل لأن تسألنى لماذا ؟ فأنا لن أدعك تطببنى . دع الجرح يستمر كما هو » وتجهم ماهندرا فقد كان من العسير والمؤلم أن يفهم عقل امرأة .

ونهضت بنوديني لتذهب ، ولم يحاول ماهندرا أن يمنعها فقد استبد به الغضب من جرح كبريائه ، وانما سألها : « وأين تذهبين ؟ » .
فأجابته بنوديني وهي تغادر الحجرة ببطء ، « هناك أشياء كثيرة عليّ أن أعملها » .

واستمر ماهندرا جالسا دقيقة أو بعض دقيقة — ثم قفز من مقعده وجرى وراءها ليرجعها ، ولكن ما ان وصل الى رأس السلم حتى أوقفه شيء ما ، فرجع ثم بدأ يسير في الشرفة جيئة وذهابا .

كانت بنوديني تغويه باستمرار ، ولكنها مع ذلك لم تكن تسمح له بأن يقترب منها ولو لحظة ، لقد فقد بالفعل اعتزازه بمناعته ، فهل يفقد الآن ماء وجهه كلية ويعترف بأنه لا يستطيع أن يظفر بقلب آخر مهما بذل في سبيل ذلك ؟ — أن يهزم دون أن يكسب نصرا مقابل ذلك ؟ — لقد خدشت هزيمته في الجهتين تقديره لنفسه ، وديست كبرياؤه كرجل مبادىء وكعاشق في التراب . لقد فقد كبرياءه ولم يجن شيئا مقابل ذلك . واضطر كالسائل الذي يستجدي الناس أن يظل يقظا على عتبة باب مغلق وهو خاوي الوفاض في الظلام الحالك .

كان بيهاري في شهر أبريل من كل عام يتسلم بعض العسل من زهرة الخردل من ضيعته وقد اعتاد أن يرسله الى راجلاكشمي . فلما وصل العسل هذه السنة أخذت بنوديني الاناء الى راجلاكشمي وقالت : يا عمتي ، لقد أرسل أخو زوجي بيهاري هذا العسل .

وأشارت راجلاكشمي بأن يخزن الاناء في الكرار ، ونفذت بنوديني ما أشارت به ثم جلست بجوارها .

— « ان بيهاري أخا زوجي لا ينسى اطلاقا أن يذكرك . انه مسكين لا أم له وهو يهيم بك كأمه » .

لقد كانت راچلاكشمى تنظر دائما الى بيهارى على أنه ظل ماهندرا ، وتعتبره تابعا حرا لا يتقاضى آجرا شديد الحرص على ملازمتهم لا يستغنى عن قربه منهم ، ولكن عندما أشارت اليها بنودينى كأم لهذا البيهارى يتيم الأم ، تأثر قلب راچلاكشمى كأم وقالت لنفسها : « هذه هى الحقيقة ، فهو ينظر الى فعلا كأم » ثم تذكرت كيف كان بيهارى يخدمها دائما ويساعدها باخلاص لا حد له فى المرض وفى أوقات الشدة دون أن يطلب أحد منه ذلك ، وكان اخلاصه طبيعيا تتقبله عن طيب خاطر حتى كادت لا تشعر معه بحاجتها الى الاعتراف بالجميل تماما كما كانت لا تشعر بحاجتها الى التنفس ؛ وكانت لا تكاد تهتم اطلاقا بالاستفسار عنه . وتذكرت الآن كيف كانت تتبرم من سؤال أنا برنا الدائم عنه وكانت تقول لنفسها : « انها تتظاهر بجزعها على بيهارى حتى تحتفظ به تحت ابهامها » .

وتنهدت وقالت : « نعم ؛ ان بيهارى هو فى مرتبة الابن » وجال بخاطرها أن بيهارى قد قام فعلا نحوها بأكثر مما قام به ابنها بكثير دون أن يأخذ منها شيئا فى مقابل ذلك ؛ وأن اخلاصه كان ثابتا منزها عن الأنانية ، ثم زفرت تنهيدة أخرى .

وقالت بنودينى : « ان أخا زوجى بيهارى يحب ما تطهينه حبا جما » .

فأجابت راچلاكشمى وفى صوتها فخر وكبرياء : « انه لا يلذه أى كارى سمك آخر » .

وخطر ببالها فجأة أنها لم تر بيهارى منذ عدة أيام فسألت بنودينى : « كيف أننى لا أرى بيهارى هذه الأيام يا بنودينى ؟ » .

فأجابت بنودينى : « لقد كنت أنا الأخرى أتساءل يا عمتى ، ولكن

هل من عجب ، وقد ملأت عروس ابنك عليه قلبه وجوارحه وأعطاها كل وقته الا أن يجد أصدقاءه ضرورة لزيارته ؟ » .

وأصابت المناقشة هدفها فى الحال . أدركت راچلاكشمى أن افتتان ماهندرا بزوجته قد أبعد عنه كل محبيه . لقد كان بيهارى فعلا على حق فى شكواه . فلماذا اذن يأتى لزيارته ؟ وزاد عطفها على بيهارى عندما أدرجته معها فى شكواها من سلوك ماهندرا المخجل فأخذت تقص على بنودينى كل ما فعله بيهارى من أجل ماهندرا وكم قاسى بسببه منذ أول صباهما ؛ وهكذا نفست عن شكواها المكبوتة من ابنها وهى تتحدث بلسان بيهارى . نعم فماذا يحدث لهذا العالم وما فيه من واجبات والتزامات اذا أهمل الرجال اخلاص العمر من أجل زوجة ظهرت فى حياتهم حديثا ؟

وقالت بنودينى : « غدا الأحد ، وأعتقد أن أخا زوجى بيهارى سيكون سعيدا لو أنك دعوتيه للغداء » .

— «اقتراح ممتاز ! دعينى أطلب الى ماهن أن يرسل اليه دعوة » .

— « لا يا عمتى ؛ يجب أن تدعيه أنت بنفسك » .

— « وهل أعرف القراءة والكتابة كما تعرفونها أنتم ؟ » .

— « ليس هـذا بالأمر المهم ، سوف أكتب لك الخطاب » ثم كتبته وأرسلته .

لقد كان يوم الأحد هذا يوما مشهودا يتركز فيه الأمل ، فمنذ الليلة السابقة أخذ خيال ماهندرا يتنبه ويشتعل رغم أنه لم يحدث شىء مما كان يتوقعه حتى الآن ، ومع ذلك فقد طلع عليه فجر اليوم حلوا كالشهد وكانت جلبة المدينة المستيقظة المتجمعة ترن فى أذنيه كأنها نغمات موسيقى .

ولكن هذه الجلبة المنتشرة فى البيت ؟ هل كانت والدته مشغولة فى طقوسها الدينية ؟ لقد كانت فى هذا اليوم تشرف بنفسها على كل أعمال

المنزل بدلا من أن تستريح وتترك كل شيء لبنودينى كعادتها . لقد قاربت الساعة العاشرة ولم تقع عينه على بنودينى بالرغم من جميع المحاولات التى قام بها . وحاول أن يقرأ كتابا ولكنه وجد من المستحيل أن يركز عقله عليه ، فالتقط جريدة ولكنه لم يستطع أن يصل الى أبعد من العناوين ، وظلت عيناه خمس عشرة دقيقة تحدقان فيها بينما عقله يتجول بعيدا ، وأخيرا لما لم يعد يستطيع أن يسيطر على نفسه نزل درجات السلم ، فوجد آمه جالسة فى الشرفة خارج حجرتها تطهو على موقد تساعدها بنودينى وقد شدت طرف ساريها السيب الى وسطها .

وسأل ماهندرا : « ما الخبر اليوم ؟ ولم كل هذه الضجة ؟ » .

فسألته راچلاكشمى : « ألم تخبرك زوجة ابنى ؟ لقد دعوت بيهارى للغداء » بيهارى للغداء ! وانطلق لهيب من الحنق والغضب فى كيان ماهندرا .

وقال : « ولكنى لن أكون هنا يا أماه » .

— « ولماذا ؟ » .

— « لأنى مرتبط بموعد فى الخارج »

— « يمكنك أن تغادر المنزل بعد الغداء ، فالطعام لن يتأخر » .

— « ولكنى مدعو لتناول الغداء فى الخارج » .

ورمته بنودينى بنظرة سريعة ثم التفتت الى راچلاكشمى وقالت : « دعيه يذهب يا عمتى ان كان مدعوا فى الخارج . ولن يحدث شيء اذا أكل أخو زوجى بيهارى منفردا » .

ولكن الأم لم تستطع أن تروض نفسها على قبول اقتراح ابنها بألا يشارك فى الطعام الذى طهته بيديها ، وكانت كلما زاد ضغطها على

ماهندرا ازداد رفضه صلابة واستمر يقول : « انها دعوة هامة لا يمكن تجاهلها ، وكان يحسن أن يؤخذ رأيي قبل دعوة بيهاري » .

لقد غضب ماهندرا وكان يعرف أنه يستطيع أن ينزل بأمه أشد ألوان العقاب اذا ما امتنع عن تناول طعامها . وفقدت راجلاكشمي كل حماسها للطهو وشعرت كما لو كانت تريد أن تقذف بكل شيء ، وحاولت بنوديني أن تهدئها قائلة : « أرجو ألا تغضبي يا عمتي ، ان أخا زوجي يخدعنا ولن يخرج اليوم » .

وهزت راجلاكشمي رأسها وقالت : « لا يا ابنتي . انك لا تعرفينه المعرفة الكافية . انه عنيد ، واذا صمم على شيء فلا يمكن أن يغير رأيه » .

وعندما حان الموعد اتضح أن بنوديني كانت تعرف ماهندرا أكثر مما تعرفه أمه ، فلقد أدرك ماهندرا أن بنوديني هي المسئولة عن دعوة بيهاري ، ومن ثم فقد اشتدت غيرته وسخطه ، ثم زادت رغبته في عدم التغيب ، اذ يجب أن يكون هناك يلاحظ ما يقوله بيهاري وما يعمله وما تقوله بنوديني وما تعمله . نعم سيكون الموقف مؤلما ولكن لا مفر من مشاهدته .

* * *

دخل بيهاري منزل ماهندرا ذلك اليوم بعد عدة أيام لم يدخله فيها ، وقد تردد لحظة قبل أن يدخل باب بيت كان منذ طفولته بيته الثاني يلعب فيه وينهمك في حيله الكثيرة ، ولكنه بعد أن تغلب على ما كان يفيض في قلبه من ذكرى مؤلمة بسبب بعده عنه الآن تصنع ابتسامة على شفتيه واتجه الى حيث كانت تجلس راجلاكشمي بعد أن فرغت من حمامها . وانحنى أمامها ولمس قدميها — وكان مجرد عمل شكلي لا يلقى له بالا حين كان زائرا كثير التردد على البيت . أما اليوم فقد كان سلوكه كمن عاد من حج بعيد ، ووضعت راجلاكشمي يدها بعطف وحنان على رأسه .

كانت ودودة اليوم بصفة خاصة تمتلىء شوقا ورقة ، فسألته : « كيف لم نرك طوال هذه الأيام يا بيهارى ؟ كنت أقول لنفسى كل يوم سوف يأتى بيهارى ولكننا لا نراك » .

وضحك بيهارى وأجاب : « لو أننى جئت كل يوم لما كنت تفكرين فى يا أماه . ولكن أين ماهندرا ؟ » .

وغيم وجه راچلاكشمى وهى تقول : « لقد دعى ماهن اليوم فى الخارج ولم يستطع أن ينتظر » .

وشعر بيهارى بالألم ، هل كانت هذه نهاية صداقة العمر ؟ وبعد أن بذل مجهودا يزيل به كل الأفكار المؤلمة التى راودته عاد يسألها وهو يحاول أن يتكلم بلهجة مرحة : « وما هى الأطباق التى أعددتيها لى اليوم ؟ دعينى أسمع » وبدأ يتحدث عن أطباقه المفضلة التى تطهوها بيدها ، فقد كان من عادته كلما أكل فى بيت راچلاكشمى أن يتعمد الظهور بمظهر الشراهة والنهم ويبدى شوقه الى طعامها وهى حيلة يرضى بها أمومتها ويشبع بها عاطفتها الفياضة . وضحكت راچلاكشمى فى سرور وبيهارى يستفسر عن أطباقها وأكدت لضيفها النهم أنه لا يوجد ثمة ما يخشاه .

وفى هذه اللحظة دخل ماهندرا وسأل فى نغمة جافة رسمية : « كيف حالك يا بيهارى ؟ » .

ودهشت أمه وصاحت : « ظننتك خرجت » .

فأجاب ماهندرا وهو يحاول أن يخفى ارتباكه : « لقد تمكنت من تأجيل الدعوة » .

وعندما ظهرت بنودينى وقد خرجت لتوها من الحمام لم يستطع بيهارى فى أول الأمر أن يقول لها شيئا ، فقد كانت ذكرى المنظر الأخير

ما زالت تؤلمه . وقالت بنودينى وهى تقترب منه : « ما هذا يا أخا زوجى ؟ يبدو عليك أنك لا تعرفنى ؟ » .

فأجاب بيهارى : « وهل يمكن أن يعرف كل فرد ؟ » .

فتمتمت بنودينى : « نعم ، اذا كانت عندك قوة ادراك » ثم أعلنت فى صوت أكثر ارتفاعا : « لقد أعد الطعام يا عمتى » .

وجلس ماهندرا وبيهارى للغداء ووقفت راجلاكشمى تراقبهما وهما يتناولان الطعام ، بينما راحت بنودينى تلبى طلباتهما .

كانت شهية ماهندرا الى الطعام ضعيفة فأخذ يرقب بنودينى وهى تخدمهما فأخذ يراوده الشك بأنها تحس بمتعة خاصة وهى تخدم بيهارى . ويلاحظ أن ألذ المشهيات توضع فى طبق بيهارى . فلم يكن ماهندرا فى مزاج يسمح له بأن يدرك أن ما تفعله انما هو ما يجب أن يكون ، طالما كان هو المضيف وبيهارى الضيف ، وعلى أى حال فلم يكن أمرا يستطيع أن يحتج عليه صراحة . وقد نجم عن ذلك أن زاد احتراقه داخليا . وعندما كانت بنودينى على وشك أن تقدم لبيهارى طبقا معينا من سمك المنغو الذى يندر فى هذا الفصل من السنة ولكنهم حصلوا عليه بصعوبة شديدة صاح : « أرجوك ليس لى .. أعطه لماهندرا فهو مغرم به غراما خاصا » ولكن ماهندرا أزاحه بغضب وقال فى فظاظة « لا ! لا أريده » فراحت بنودينى تضع كارى السمك فى طبق بيهارى فى هدوء ودون ن تنبس بكلمة أخـرى .

وما ان انتهت الوجبة وخرج الصديقان من الحجـرة حتى أسرعت بنودينى خلف بيهارى وقالت له « يا أخا بيهارى ، أرجوك ألا تغادرنا الآن ؛ تعال واجلس فى الدور العلوى » .

— « ألا تتناولين طعامك ؟ » .

— « لا . انه الأكاداشى (*) — وأنا صائمة اليوم » .

ولعبت ومضة من ابتسامة ساخرة باردة على شفتى بيهارى كما لو كان يريد أن يقول : « هكذا كل زخارف الفضيلة فيها ! » ولكن بنودينى تجاهلت السخرية والتهكم كما تحملت جرح مرفقها وكررت رجاءها بلطف قائلة : « أرجوك أن تأتى وتجلس لحظة . انى أتوسل اليك » .

واستشاط ماهندرا غضبا وصاح ككلب ينبح : « يا له من أمر يدعو الى السخرية ! لم تضجريه وتضطريه الى أن يبقى فى الوقت الذى قد يكون عنده عمل يعمله ولا يريد أن يبقى ؟ أنا لا أفهم معنى هذا الضجيج والتملق » .

وضحكت بنودينى بصوت مرتفع وقالت : « انظر اليه يا أخا زوجى بيهارى ، اصغ الى ما يقوله ماهنـداك ! ان الضجيج والتملق معناهما الضجيج والتملق كما ينبئك بذلك أى قاموس » ثم أضافت وهى تلتفت الى ماهندرا :

« قل انك سوف تبقى يا أخا زوجى ، فلا يوجد من شرب جسمه بالضجيج والتملق منذ الطفولة مثلك » .

والتفت بيهارى الى ماهندرا وقال : « ماهندرا . هناك شىء أريد أن أقوله لك فأرجو أن تقترب منى » .

وأخذ بيهارى ماهندرا جانبا دون أن يهتم ببنودينى أو يستأذن منها فى الانصراف . ووقفت بنودينى فى الشرفة وهى تمسك بالسياج وتحملق دون هدف فى فراغ الفناء القصى .

فلما خرج الاثنان قال بيهارى : « أحب أن أعرف يا ماهندرا ان كانت هذه هى نهاية صداقتنا » .

وكان ماهندرا يغلى ويزبد ، وكانت آخر سخرية من سخريات بنودينى

(*) اليوم الحادى عشر من الشهر القمـــرى ويعتبره الهنود الورعون يوم صيام .

تدور دورانا سريعا فى رأسه وتحرق مخه من صميمه كأنها ضربة صاعقة ، فانفجر قائلا : « ان التهاون قد يناسب خطتك ولكنى لست تواقا اليه . وأنا لا أريد متطفلين على حياتى العائلية ، فخلوة بيتى يجب أن تستمر شخصية بحتة » .

وغادر بيهارى المنزل دون كلمة وأقسم ماهندرا والغيرة تلتهمه أنه لن يرى بنودينى ولكنه أخذ يتجول فى البيت طول الوقت استراقا وهو يتطلع الى رؤيتها .

٢٨

سألت آشا خالتها : « هل غالبا ماتفكرين فى زوجك يا خالتى ؟ » .

فأجابت أنا برنا : « لقد ترملت وأنا فى الحادية عشرة ، وليس لدى عن زوجى الا ذكرى معتمة » .

فسألتها آشا ثانية : « فيمن تفكرين اذن ؟ » .

— « فيه ، فيمن امتزج فيه زوجى الآن » .

— « وهل يسبب ذلك لك أية سعادة ؟ » .

وربتت أنا برنا بحنان على رأس آشا وأجابت : « كيف أستطيع أن أشرح لك يا بنيتى ما يشعر به عقلى وما يعرفه هو ؟ » .

وتساءلت آشا فى نفسها ، « ترى وهل يعرف من أفكر فيه ليـلا ونهارا ما أشعر به . اننى لست متعلمة تعلما يمكننى من أن أكتب خطابات مسهبة فهل هذا هو السبب فى أنه لا يكتب الى ؟ » .

وكانت لا تريد أن تكتب هى نفسها اذ كانت تعرف أن خطها سىء وأنه لن يسر زوجها ، وكانت كلما حاولت أن تكتب بعناية زاد الخط سوءا وكلما حاولت أن تعبر عن أحاسيسها زاد التعبير ارتباكا . ترى لمَ لم يكن الأزواج

كالآلهة الذين يرون ويسمعون ويعرفون كل شيء دون أن يراهم أحد ؟ لم لا تستطيع أن تكتب هاتين الكلمتين « سيدى المحبوب » ثم تدعه يفهم ما بعد ذلك من صفحة الخطاب البيضاء ؟ لقد غرس الله فى قلبى حبا متدفقا — فلم لم يمدنى ولو بقوة بسيطة على التعبير ؟

وجاء المساء وكانت آشا قد عادت لتوها الى المنزل من صلاتها المسائية فى المعبد وجلست عند قدمى خالتها وهى تحكهما بلطف ؛ ثم قالت فجأة، بعد فترة من السكون : خالتى ، غالبا ما كنت تقولين أن ديانة المرأة هى فى خدمتها المخلصة لزوجها ، ولكن ماذا حظ المرأة الحمقاء التى ينقصها الفهم الضرورى لحاجات زوجها — كيف يمكنها أن تخدم ؟ » .

ونظرت أنا برنا الى آشا ولم تقل شيئا للحظة ؛ ثم أجابت بعد أن زفرت تنهيدة تكاد تكون مكتومة « اننى أيضا امرأة حمقاء يا بنيتى ، ومع ذلك فانى أستمر فى عبادتى واخلاصى لله » .

— « انه يعرف قلبك وهو راض عن ذلك ، ولكن لنفرض أن زوجا ضل عن اخلاص زوجة حمقاء ؟ » .

— « لم يعط الجميع القوة حتى يصبح كل فرد سعيدا يا بنيتى ، ولكن اذا بذلت المرأة جهدها لكى تحب زوجها وتخدمه وتؤدى واجباتها الأخرى فان الله نفسه يقربها الى زوجها حتى لو لفظ الزوج اخلاصها » .

ولم تجب آشا وظلت صامتة تحاول جاهدة أن تجد الطمأنينة والراحة فيما قالته خالتها ولكنها فشلت فى أن تقنع نفسها بأن الله نفسه يستطيع أن يكمل قلب امرأة لفظها زوجها . واستمرت تدلك قدمى خالتها ورأسها منحن وعيناها متجهتان الى الأرض الى أن أخذتها أنا برنا من يدها وجذبتها اليها وقبلت جبهتها ، ثم قالت وهى تبتلع ريقها بشدة لتطلق صوتها الذى اختنق حنانا وعطفا « يا عزيزتى تشونى انك لا تستطيعين أن تتعلمى

عن طريق القاعدة نظرية الحكمة التى تتأتى عن تجربة الحزن الحية ، لقد كانت خالتك كذلك وهى فى سنك تؤمن ايمانا ساذجا بقانون الأخـذ والعطاء وقد شعرت مثلك أن حبى واخلاصى يجب أن يجعلا الآخر سعيدا ، اذ لم لا تؤتى عبادتى ثمارها ؟ لم لا يكون لى على الأقل فضل الرغبة فى الخير والكفاح المجيد من أجله ؟ ولكننى كنت لا آخذ الا الصدود فى كل خطوة من خطواتى ، وأخيرا كنت أصل الى النتيجة اليائسة وهى أن حياتى كلها كانت ضياعا وتفاهة .. لقد هجرت العالم فى ذلك اليـوم نفسه وجئت الى هنا ، ولكنى أدرك الآن أن أى شىء قمت به لم يذهب سدى . أوه يا بنيتى ، ان تجارتنا الحقيقية والأخيرة ليست مع بعضنا البعض وانما هى معه ، مع العاطى الأعظم والآخذ الأعظم . لقد تقبل كل شىء قدمته ، ولو كنت أعرف ذلك وقتئذ ، لو كنت أعرف أن مساومتى الحقيقة كانت معه ، وأننى فى حياتى وفى حبى انما كنت أؤدى نصيبى معه من الصفقة وأننى كنت أحيى حياته التى وهبنيها وأحب عالمه الذى أبدعه ، لكنت أرحت نفسى من عذاب شديد !

وأخذت آشا تفكر كثيرا وهى فى فراشها فى الليل ، ولكنها لم تستطع أن تفهم أو تعى شيئا ، لقد كانت تحترم خالتها القديسة احتراما لا حد له ولم تستطع أن تتجاهل ما قالته تجاهلا تاما ، ولذا فقد تعلقت بطريقة ما بكلماتها دون أن تدرى تماما ما تعنيه ، وجلست فى فراشها وانحنت فى ظلام الليل الساكن أمامه ، وأمام من يحكم من عل فى قلب خالتها وتمتمت : « اننى طفلة ولا أعرف من أنت ولا ما أنت ، انى لا أعرف الا زوجى ، فأرجو ألا تغضب منى بسببه ، أرجوك يا سيدى أن توحى الى زوجى بأن يتقبل الحب الذى أمنحه اياه ، فانه اذا لفظه فلن أعيش بعد ذلك ، اننى

لست قديسة كخالتى فاذا لم تدركنى رحمتك فسأكون أعجز من ألتمس فيك الراحة والملجأ » وانحنت مرة ثم مرة أخرى .

وفى المساء قبل اليوم الذى كانت سترحل فيه الى كلكتا مع خالها ، أخذتها خالتها أنا برنا فى حجرها وقالت : « تشونى يا أمى الصغيرة ، ليست عندى القوة التى تحميك من ألم الحياة وفشلها ومصائبها ، وانما عندى نصيحة واحدة أقدمها لك — تشبثى بايمـانك وكونى ثابتة فى اخلاصك أينما كنت ومهما حدث » .

فتمتمت آشا بعـد أن انحنت ولمست قدمى خـالتها : « باركينى يا خالتى ، وادعى لى أن أنجح فى ذلك » .

٢٩

عندما عادت آشا الى المنزل أخذت بنودينى تصب عليها لومها وتقريعها . قالت لها : « ألم يكن فى وسعك أن تكتبى لى ولو خطابا أثناء كل هذا الغياب الطويل ؟ » .

— « ولمَ لم تكتبى أنت يا عزيزتى ؟ » .

— « ولماذا أكون أنا البادئة ؟ لقد كان الواجب عليك .. » .

وهنا طوقت آشا عنق بنودينى بذراعيها وأخذت تعتذر اليها :

« انك تعرفين يا عزيزتى رمداء العين أننى لا أستطيع أن أكتب اليك كما يجب ثم انى أشعر بالخجل بصفة خاصة حين أكتب لمن له مثل مهارتك وتعليمك » .

وسرعان ما عادت الصديقتان الى ما كانتا عليه من ود واخلاص .

قالت بنودينى : لقد أفسدت صحبتك المستمرة زوجك فأصـبح لا يستطيع أن يستغنى عن التدليل .

— « وهذا ما دعانى الى أن أجعلك تشرفين عليه ؛ فمن يعرف كيف يسلى الناس أفضل منك ؟ » .

— « لقد كان ذلك سهلا أثناء النهار — كنت أرسله الى الكلية ثم أشعر بعد ذلك بالراحة ؛ أما بالليل فقد كان من الصعب تجنبه فكان لابد لى من أن أجلس وأتحدث معه أو أقرأ له كتابا .. ولا نهاية لهذه المطالب » .

— « هذا ما تستحقينه فيجب أن تدفعى ثمن سحرك » .

— « حذار يا عزيزتى ، فانه يسلك أحيانا سلوكا كله سخرية وهزء مما جعلنى أشك فى أننى ساحرة فعلا » .

— « بل انك لكذلك ، واذا لم تكونى فمن يكون ؟ كم أتمنى أن يكون لى بعض سحرك » .

— « ولماذا ؟ من تريدين أن تسحريه ؟ تشبثى بما عندك ولا تحاولى أن تغرى شخصا آخر فالأمر لا يستحق ذلك » .

وتجهمت آشا ودفعت بنودينى عنها وهى تؤنبها : « لا تكونى سخيفة يا عزيزتى » .

* * *

كانت أولى كلمات ماهندرا لآشا فى مقابلتهما الأولى منذ عودتها من كاشى هى « يبدو أنك أمضيت وقتا طيبا فى كاشى ، فأنت تبدين منتفخة الأوداج بل تكادين تكونين سمينة نوعا » .

واحمرت آشا ارتباكا ، فليس من حق جسمها أن يبدو مناسبا لائقا هكذا ولكن كل شىء كان خطأ مع آشا الحمقاء ؛ فعندما كان عقلها يتعذب كان جسمها يزدهر . كانت تنقصها القوة على التعبير عن أحاسيسها ولكن جسمها كان يعطى البرهان والدليل ضدها .

وسألته بلطف : « وكيف أمضيت وقتك ؟ » .

كانت اجابته فيما مضى خليطا من التلاعب والاخلاص ، فكان يقول : « كنت أشعر بالسقم بدونك » أما اليوم فقد اختنقت نفس الألفاظ قبل أن تخرج من شفتيه وهو يقول : « بين .. بين » .

ونظرت اليه آشا ولاحظت أنه قد زاد نحافة وصار جلده شاحبا ولمع فى عينيه بريق غير طبيعى كما لو كان هناك جوع عميق الجذور يلتهمه بلهيبه ، وأحست آشا بضميرها يؤنبها ويعتصر قلبها ، لم تركت زوجها وذهبت الى كاشى وهو ليس فى صحة جيدة ؟ أهو يزداد نحافة وهى تزداد سمنة — لقد ملأ هذا التناقض السمج عقلها خجلا وكرهت صحتها من أجل ذلك .

وبقى ماهندرا صامتا بعض الوقت لا يعرف ما يقول بعد ذلك وأخيرا سألها : « أرجو أن تكون صحة عمتى جيـــدة » . فلما أكدت له ذلك وطمأنته على صحتها . وجد نفسه فى حيرة يبحث عن موضوع آخر يمكن أن يدور حوله الحديث ، لم يدر ماذا يفعل ، ولكى يخفى ارتباكه التقط جريدة قديمة وتظاهر بأنه منهمك فى قراءتها . وأحنت آشا رأسها واستمرت تحملق فى أرضية الحجرة وهى تتساءل فى نفسها : « لم لا يجد شـــيئا يقوله لى بعد هذا الغياب الطويل ؟ لم لا يستطيع حتى أن ينظر الى ؟ أهو غاضب منى لأنى لم أكتب اليه لبضعة أيام ؟ ألأنى مكثت مدة طويلة لكى أرضى خالتى ؟ كانت تتمنى أن تعرف بالضبط ما هى خطيئتها حتى تستطيع أن تصححها ، وأخذت تنظر حولها تبحث عن زلاتها وقد غمرها الحزن وتأنيب الضمير والخوف .

وعندما عاد ماهندرا من الكلية وجلس ليتناول مرطبات بعد الظهر كانت راجلاكشمى هناك وكانت آشا تستند الى الباب وعلى وجهها نقاب ، مع أنه لم يكن هناك شخص غريب .

وسألته راچلاكشمى بقلق : « هل تشكو من شيء يا ماهن ؟ » .

فأجابها ماهندرا متضايقا : « لا ؛ لا ، ولمَ يكون هناك ما أشكو منه ؟ » .

— « اذن لماذا لا تأكل كما يجب ؟ » .

فأجابها بصوت غاضب حاد : « انى آكل بشراهة ، وكيف يستطيع الانسان أن يأكل أكثر من ذلك ؟ » .

وفى ساعة متأخرة من اليوم — وكانت أمسية من أمسيات الصيف — صعد ماهندرا الى شرفة السطح وراح يتجول هناك وقد تدثر فى وشاح من الموسولين . لقد كان يأمل أن تأتى بنودينى ليقرآ معا كالعادة فلم يبق من كتاب « أنا ندامت Ananda Math » [1] الا فصلان ، ووجد من العسير أن يصدق أن تبلغ بنودينى من القسوة حد حرمانه من متعة الاصغاء اليهما ، ولكن المساء صار ليلا ولم يبدو أى أثر لبنودينى ، فعاد ماهندرا الى فراشه وقد أنهكه ثقل الفشل وخيبة الأمل .

ودخلت آشا حجرة النوم متباطئة وقد تزينت فى ملابس رقيقة وبدا عليها الخجل فوجدت ماهندرا فى الفراش . وترددت فلم تدر ما تعمل وقد تغلب عليها حياؤها وجعلت فترة بعدها عن زوجها من العسير عليها أن تواصل ما اعتادته . لقد كانت فى حاجة الى أن ينادمها ماهندرا من جديد وانتظرت كما لو كانت تنتظر دعوة جديدة ، ووقفت طويلا بالقرب من الباب ، ولكن لم تكن هناك استجابة منه . فتقدمت خطوة خطوة فى بطء وهدوء وقد أرعبها وأربكها رنين حليها ؛ وبنفس كسيرة وقلب ينبض بشدة اقتربت من الكلة (الناموسية) فرأت ماهندرا نائما ، فبدا لها رداؤها الجميل وحليها فى تلك اللحظة سخرية مؤلمة وشعرت كما لو كان كل عضو

---

(١) قصة مشهورة كتبها بانكين تشاترجى .

من أعضائها قد غلل بغلالة من الاستهزاء حتى أرادت أن تجرى من الحجرة وتخفى نفسها فى مكان ما .

ولكنها استطاعت أن تسيطر على الدافع العنيف ودخلت الفراش بهدوء وفى حذر شديد وبالرغم من حذرها فقد أحدثت من الصوت والحركة فى الفراش ما يوقظ ماهندرا لو كان نائما فعلا ، ولكنه لم يكن نائما ولذا فقد استمر ساكنا دون حركة وعيناه مغمضتان . كان راقدا على جنبه ووجهه متجه الى الناحية الأخرى وظهره الى آشا ، ومع أنه لم يستطع أن يرى وجهها فقد استطاع أن يدرك أنها كانت تبكى فى صمت . وثقلت عليه فظاظته كحجر الرحى تطحن قلبه فى ألم ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل ؟ لم يدر ماذا يقول لها ولا كيف يلاطفها . كان غاضبا من نفسه ، وبالرغم من عذابه النفسى فقد ظل فاترا لا يستطيع أن يجد مخرجا . كان خائفا من الصباح عندما لا يعود يستطيع أن يتظاهر بالنوم وعندما يضطر الى مواجهة آشا .

ولكن آشا نفسها أنقذته . فقبل أن يبزغ الفجر تسللت من الفراش وهى ما زالت فى رونقها وبهائها ، وتركت الحجـرة وقد غلبتها الاهانة والتحقير .

٣٠

لم هذا التغير ؟ ماذا صنعت ؟ أخذت آشا تفكر وهى لا تستطيع أن تفهم شيئا ، ولم يخطر على بالها اطلاقا مصدر البلية الأساسى فلم يتطرق اليها أدنى شـك فى أن ماهندرا يمكن أن يكون قد وقع فى شراك حب بنودينى ، ولم تستطع بسبب سذاجتها وعدم درايتها بأساليب الحياة أن تتخيل أن زوجها يمكن أن يختلف عن الصورة التى كونتها عنه بعـد الزواج .

لقد غادر ماهندرا البيت الى الكلية فى هذا اليوم مبكرا عن العادة . كانت عادة آشا أن تقف عند النافذة لتراقبه وهو يغادر المنزل وتقابل نظرته الأخيرة وهو ينظر اليها من العربة ، وقد جاءت اليوم كعادتها ووقفت بجانب النافذة عندما سمعت صوت العربة . ونظر ماهندرا كذلك بحكم العادة فرأى آشا واقفة بالقرب من النافذة ولم تكن قد غسلت وجهها بعد كما كانت ملابسها رثة وشعرها مهوشا ووجهها شاحبا فأرخى نظرته فى الحال وتظاهر بالنظر الى كتاب فى حجره ، وسارت العربة به دون أن تتقابل عيونهما فى نظرة أخيرة متمهلة ودون الابتسامة العادية ذات الدلالة والمعنى .

وسقطت آشـا على أرض الحجرة وذهب كل طعم لحياتها والعالم كله . كانت الساعة العاشرة والنصف صباحا ، وكان صوت المدينة المستيقظة فى الخارج قد وصل فى الطريق الى أقصى علامات التصـعيد ، وكانت مواكب العربات التى لا نهاية لها تدمدم فى طريقها الى المكاتب فى المدينة ، وعربات الترام تسير الواحدة اثر الأخرى ؛ وفى ضجة عالم العمل اليومى وصخبيه بدت آشا وهى تمرض قلبها الجريح الحائر وكأنه قد خرج من مكانه بطريقة غريبة .

وفجأة خطر ببالها أن ماهندرا قد أساءته زيارة بيهارى لكاشى ، فقد كان هذا السبب الوحيد الذى استطاعت أن تفكر فيه اذ لم يحدث شيء آخر فى أثناء هذه الفترة ، ومن ناحية أخرى فقد بدا لها هذا السبب بعيدا عن المنطق اذ ما هو خطؤها اذا كان بيهارى قد ذهب الى كاشى ؟ الا اذا .. الا اذا — وهنا كاد قلبها يقف عندما بدأ الشك الفظيع يبزغ لها — شك ماهندرا فى أن تكون قد رتبت سرا مع بيهارى اجتماعا فى كاشى : يا له من شك وضيع ! يا للعار ! لقد كان أمرا سيئا مجرد ارتباط اسمها به ، أو أن يشك ماهندرا فى علاقة ما فهو أمر مخجل لا يمكن أن تحتمله امرأة .

ولكن حتى لو كان هناك سبب للشك والريبة ، وحتى لو كانت قد ارتكبت خطأ فلم يذكر ذلك ؟ لمَ لم يقتص منها ؟ انه بدلا من أن يتهمها صراحة يتجنبها كما لو كان يشعر سرا بالخجل من ريبته ، بل الواقع أنه كان لا يرى الا بوجه مذنب ، والقاضى الغاضب لا يسير بين الناس وعلى وجهه تعبير من كان ذليلا ممتعضا .

وأخذت صورة وجه آشا بما فيه من ألم يدعو الى الرثاء كما رآها ماهندرا تطارده طول اليوم ، وسواء أكان يصغى الى محاضرة فى الكلية أم يجلس مع زملائه فى الدراسة لم يستطع أن يتخلص من منظر النافذة وآشا واقفة بالقرب منها ، لم تغسل وجهها بعد ، وشعرها مهوش ، وملابسها رثة ، ووجهها كأنه قناع من الألم .

فلما انتهت الدراسة أخذ ماهندرا يتجول فى ميدان جولديفى حتى غربت الشمس ، وهو لا يستطيع أن يقرر أى سلوك يسلك تجاه آشا — بنفاق الكريم أم بوحشية الفظ ! أما أن يهجر بنوديني فلم يخطر بباله مرة واحدة . فلقد كان ممزقا فى نضاله بين الشفقة والحب على ما بينهما من صراع .

وأخيرا وجد عزاءه فى أنه لا توجد بين الزوجات من تستطيع أن تفخر باستمتاعها بحب زوجها بمثل ما أتيح لآشا أن تستمتع به من حبه ، فلم لا تقنع اذن بهذا الحب والحنان ؟ ان قلبه من الكبر بحيث يستطيع أن يحوى كلا من بنوديني وآشا ، ان حبه لبنوديني حب أفلاطوني وليس من المحتمل أن يقف فى طريق واجباته الزوجية .

وهكذا نجح فى رفع عبء جريمته الجائرة عن كاهله : سوف لا يهجر أيا منهما وسوف يحب بنوديني وآشا وهما تدوران حوله الى الأبد ككوكبين من الكواكب المضيئة . وانتفخ قلبه فرحا وكبرياء من الفكرة ،

وصمم على أن يعود الى فراشه فى تلك الليلة مبكرا وأن يأخذ آشا بين ذراعيه ويضفى عليها كل حنان وحب ويزيل كل شكوكها وأحزانها بكلمات عذبة ، فلما أسكره ما كان يتوقعه أسرع الى البيت .

لم تكن آشا موجودة أثناء الطعام ، ولكنها سوف تأتى قطعا الى الفراش كالعادة ! وهكذا رقد فى الفراش يحدوه الأمل ، ولكن طيفا أخذ يطارده ، لم يكن طيف ذكرى الساعات الخيالية الساحرة التى امتلأت بحرارة العاطفة المتجددة التى قضاها مع آشا فى أيام زواجهما الأولى هو الذى ملأ الحجرة وحشة والفراش فراغا ، وانما شىء آخر مختلف كل الاختلاف ، وكما أن الشمس عندما تشرق يذبل ضوء القمر ، فقد تضاءلت ذكرى آشا فى ضوء ساطع لكوكب أكثر قوة وضياء وبهتت الصورة الرقيقة للزوجة التى هى فى حياء البنت وخجلها وضاعت فى الضوء الباهر لامرأة جميلة كاملة النضج ، وتذكر الآن بنودينى وهى تبادله المداعبة بشأن كتاب Visha Vriksha ، وتذكر وهى تقرأ له من Kapalakundala (*) الى أن ينتهى المساء ويحل الليل ، ويسكن كل من فى المنزل فى النوم عدا هذين الاثنين : ماهندرا يصغى وبنودينى تقرأ بصوت مرتفع فى سكون الليل ووحدته ، وصوتها يزداد عذوبة حتى يشحن بالانفعال فيكاد لا يسمع شيئا ، ثم تعود الى نفسها بمجهود كبير وترمى الكتاب ، ويقول لها ماهندرا « دعينى أصحبك حتى السلم » . وأخذ ماهندرا يستعيد هذه الصورة مرارا وتكرارا وهو يرتجف فى نشوة من السرور والمتعة .

وتقدم به الليل فأخذ يراوده بعض الخوف من حين الى آخر بأن آشا قد تأتى ، ولكن آشا لم تأت . وقال لنفسه . لقد كنت على استعداد لأن

(*) قصة أخرى لبانكين تشاترجى .

أقوم بواجبى ؛ ولكن اذا كانت آشا نكدة بصورة غير معقولة فلا تأتى الى فماذا عساى أن أفعل أكثر من ذلك ؟ وهكذا نجح فى ابراء نفسه من واجباته الأدبية والخلقية فازداد استغراقا فى تفكيره فى بنودينى فى ظلمات الليل .

فلما دقت الساعة الواحدة لم يستطع ماهندرا أن يبقى فى الفراش ، فرفع الكلة ، وخرج من الفراش واتجه الى شرفة السطح . كان ضوء القمر فى الصيف ساحرا ، وكاد سكون المدينة فى النوم الممتـد المنتشر يكون ملموسا كالمياه الراكدة فى بحر هادىء ، وكان نسيم عليل يهب فوق أسطح بيوت المدينة العديدة يهدهدها الى نوم عميق .

ولم يستطع ماهندرا أن يحتمل الشوق الذى ظل مكبوتا بين ضلوعه طيلة هذه الأيام أكثر من ذلك . انه لم ير بنودينى منذ عودة آشـا من كاشى ، وسحرته وحدة الليل الغارق فى ضوء القمر الساطع ودفعته وهو غير قادر على المقاومة الى بنودينى ، فنزل السلم ووقف فى الشرفة التى تواجه حجرتها . كان الباب مفتوحا فدخل الحجرة ولكنه وجد الفراش خاليا لم ينم فيه أحد . وعندما سمعت بنودينى وقع أقدام فى غرفتها سألت من الشرفة المؤدية الى الحجرة من جهة الجنوب : « من هناك ؟ » .

فأجاب ماهندرا مذعورا وفى صوت خفيض «انهأنا يا بنود» ثم خرج الى الشرفة فوجد راچلاكشمى وبنودينى راقدتين على حصير على أرض الشرفة الرطبة . وسألته راچلاكشمى : « ماذا جاء بك الى هنا يا ماهن فى هذه الساعة المتأخرة من الليـل ؟ » وأطلقت عينا بنودينى من تحت حاجبيها لهبا من السخط نحوه . ولم يجب ماهندرا وتقهقر مسرعا .

٣١

كان صباح اليوم التالى ملبدا بالغيوم فتجمعت فى السماء كتل داكنة من السحب المهدئة للنفس بعد أن ظل الجو حارا عدة أيام يكاد يشوى الوجوه ، وغادر ماهندرا المنزل الى كليته مبكرا ملقيا بملابسه التى خلعها فوق الأرض . وكانت آشا قد جمعت الملابس المتسخة لكى تغسل وتنظف . كانت تعدها وتبحث فى جيوبها قبل أن ترسلها الى الكواء فقد سبق أن نبهها ماهندرا الى أنه كثيرا ما ينسى أشياء فى جيوبه وطلب منها أن تبحث فيها جيدا وتتأكد من أنها خالية قبل ارسالها الى الكواء . وفى أحد الجيوب وجدت خطابا .

ولو أن هذا الخطاب قد اتخذ صورة حية سامة وعض اصبعها لكان ذلك أهون عليها فى تلك اللحظة ، فالسم المميت لا يستغرق أكثر من خمس دقائق بعد دخول الجسم حتى ينهى عمله المهلك ، أما السم الذى يدخل العقل فهو أسوأ من ذلك بكثير — انه يسبب ألم الموت ولكنه لا يسبب الموت نفسه .

كان الخطاب مفتوحا وقد كتب بيد بنودينى ، وما ان تعرفت آشا على الخط حتى شحبت كالرماد ثم أسرعت الى الحجرة المجاورة وأخذت تقرؤه :

« هكذا لم تقنع بسلوكك المشين فى الليلة الماضية فأرسلت فى السر خطابا هذا الصباح مع خيمى (*) . يا للعار ! ماذا تخيلت يا ترى ؟ هل أنت مصمم على امتهانى أمام العالم أجمع ؟ » .

« ماذا تريد منى ؟ حبا ؟ انك لم تلق منذ طفولتك الا الحب ، ومع ذلك

(*) احدى الخادمات .

فلا حد لشراهتك ونزواتك . لم هذا الاشتهاء الفطرى وهـذا التلهف المستجدى ؟ » .

« ليس لى الحق فى أن أحِب أو أن أحَب فى هذا العالم ؛ وهـذا ما يدعونى الى اللعب بالحب كى أضىء حزنى وكآبتى . لقد اشتركت أنت كذلك فى هذه اللعبة التى لا جدوى منها حين كنت حرا ، ولكن وقت اللعب لا يستمر الى الأبد ، والآن وقد أصبحت عليك واجبات قبل بيتك لماذا تتسلل الى الملعب ؟ انفض غبارها وعد الى بيتك ، أما أنا — من لا بيت لها — فسوف أواصل اللعب فى عقلى دون أن أدعوك الى الاشتراك معى » .

« انك تكتب الى لتقول انك تحبنى ؛ والتظاهر بالصدق قد يكون مسموحا به فى اللعب أما اذا كنت تعنى ما تقول فعلا فأنا لا أصدقه . لقد كنت تظن فى وقت ما أنك تحب آشا ، واتضح أن ذلك كذب ، والآن تتخيل أنك تحبنى وهذا أيضا كذب . أنك لا تحب الا نفسك » .

« لقد لفح عقلى تعطش حارق الى الحب . أنا أعرف ذلك حق المعرفة ، فاستحلفك بالله وأرجوك أن تتركنى وألا تقلقنى وألا تخجلنى بعدم خجلك وحيائك فليست لى رغبة فى أن أستمر فى اللعبة ، ومهما ناديتنى فلن تحصل على اجابة منى . لقد دعوتنى قاسية لا قلب لى فى خطابك وقد يكون ذلك حقيقيا ؛ ولكن شفقتى صادقة كذلك ؛ اننى اليوم أنبذك بدافع من الشفقة ، واذا أقحمت علىّ اجابة على هذه الرسالة فسوف أعرف أن طريق سلامتى الوحيد منك هو فى الهرب » .

وما ان قرأت آشا الخطاب حتى بدت الأرض وكأنها تميد تحت أقدامها وبدت عضلاتها وأعصابها وكأنها قد خرجت عن سيطرتها وشعرت بأنه لا يوجد من الهواء ما يكفى لتنفسها ، وكأن الشمس قد سحبت كل الضوء

من عينيها . وتحسست الحائط حتى لا تقع ، وتحسست ظهر الكرسى قبل أن تقع تدريجا فى اغماءة . وعندما عادت الى رشدها بعد ذلك حاولت أن تعيد قراءة الخطاب ولكنها كانت من الشرود بحيث لم تستطع أن تفهم ما تقرؤه . كانت الحروف السوداء تتراقص أمام عينيها ، ماذا حدث ؟ وكيف حدث ؟ هل معنى ذلك نهاية كل شيء ؟ماذا تفعل ؟والى من تلجأ؟ والى أين تهرب ؟ لم تستطع أن تفهم ، ولم تستطع أن تفكر ، حاولت فى جنون ، كمن يغرق وهو يلوح بذراعيهويمسك بالهواء ، أن تتعلق بكل ما فيها من قوة بسند ما ، أى سند حتى جاءت الصرخة أخيرا من أعماق قلبها المروع تقول : « خالتى ! » .

وما ان نطقت بالاسم المحبوب حتى أطلق سراح فيضان من الدموع المتجمدة . فجلست على أرض الحجرة وانفجرت فى نوبات متكررة من البكاء ، وعندما سكنت النوبات سألت نفسها « وماذا عساى أفعل بالخطاب ؟ » ان الزوج اذا علم أن الخطاب قد وقع فى يدها فما أشد ما سيشعر بالخجل والضعة ! يجب اذن أن تعفيه من هذا التحقير . وهكذا قررت أن تعيد وضع الخطاب فى جيب ردائه وتعلق الرداء فى الصوان بدلا من أن ترسله ليغسل .

وعادت الى حجرة النوم والخطاب فى يدها فوجدت الكواء قد استغرق فى النوم ويده على كومة الملابس . فأخذت الرداء وكانت على وشك أن تعيد الخطاب الى جيب السترة عندما سمعت من ينادى « عزيزتى رمداء العين ! » فأسرعت ترمى بالرداء والخطاب على السرير وجلست فوقهما . ودخلت بنودينى الحجرة وهى تشكو من أن الكواء كثيرا ما يبدل الملابس وقالت : « دعينى آخذ الملابس التى لا علامة لها وأضع فوقها علامة مميزة » .

لم تستطع آشا أن تواجه بنودينى فانتحت بالقرب من النافذة خوفا من أن تكشف عن تعبيرات وجهها وحملقت فى السماء وشفتاها ترتعشان والدموع تفيض من عينيها . ووقفت بنودينى ساكنة ونظرت الى آشـا وقالت لنفسها : « لقد فهمت . انها علمت بحادث الليـلة الماضية وهى غاضبة منى ، ولكن لمَ تغضب منى كما لو كنت أنا الجانية الأثيمة ؟ » ثم التقطت بعض الملابس وخرجت من الحجرة مسرعة دون أن تتحدث مع آشـا .

وأثقلت حسرة آشا على أيام صداقتها الخالصة التى لا رياء فيها مع بنودينى عقلها حتى وهى وسط حزنها المرير ، وشعرت بالرغبة فى اعـادة قراءة الخطاب لترى أية علاقة يمكن أن تكون بين محتوياته القاسـية وتتبين المثل الأعلى الذى كونته عن أخلاق صديقتها ، حتى اذا فتحت الخطاب اندفع ماهندرا فجأة الى الحجرة . لابد وأن يكون شىء ما قد حدث فجعله يترك الكلية فجأة وسط المحاضرة ويعود مسرعا الى البيت .

وأخفت آشا الخطاب فى ساريها ، ووقف ماهندرا عندما رآها فى الحجرة ساكنا مرتبكا فترة من الزمن ، ثم نظر حوله فى قلق . وفهمت آشا ما يبحث عنه ولكنها لم تعرف كيف تهرب من الحجـرة دون أن يلاحظها وتترك الخطاب فى المكان المناسب حتى يلتقطه .

وأخيرا بدأ ماهندرا يلتقط الملابس ويبحث فيها ، واحدة واحدة . ولم تستطع آشا أن تحتمل هذا البحث الجنونى الذى لن يؤدى الى نتيجة أكثر من ذلك ، فرمت بالرداء والخطاب على الأرض ثم أمسكت بعمود السرير بيدها اليمنى حتى لا تفقد توازنها وأخفت وجهها فى ذراعها . وقفز ماهندرا الى الخطاب بسرعة البرق ثم وقف ساكنا لمدة ثانية ينظر الى آشا ، ثم سمعت وقع أقدامه وهو يهرول على درجات السلم . وتوسل

الكواء اليها : « الى متى أظل أنتظر الملابس ؟ ان الوقت يمر ولقد تأخرت والمكان الذى سأذهب اليه بعيد » .

٣٢

لم ترسل راچلاكشمى فى طلب بنودينى أو تتحدث اليها فى الصباح . وذهبت بنودينى الى الكرار كالعادة ولكن راچلاكشمى لم تعرها التفاتا ، ففهمت بنودينى الأمر ولكنهابالرغم من ذلك سألت راچلاكشمى : « أأنت متعبة اليوم يا عمتى ؟ لا عجب فى ذلك فان سلوك أخى زوجى الليلة الماضية وهو يندفع الى الحجرة كشخص مجنون كان ممضا ! اننى لم أستطع النوم بعد ذلك » .

وظلت راچلاكشمى صامتة متضجرة دون أن تجيب .

واستطردت بنودينى تقول : « ربما حدثت بينه وبين رمداء العين مناقشة طفيفة وجاء يجرى يقدم شكوى أو يبحث عن نصيحة — انه قلق لا يستطيع الصبر حتى ينتهى الليل ، يجب ألا تغضبى منه يا عمتى ، فمهما كانت فضائل ابنك فان الصبر ليس واحدا منها ، وهذا ما يجب أن تسلمى به ، بل كثيرا ما يتخاصم معى لهذا السبب » .

فأجابت راچلاكشمى ببرود : « انك تضيعين وقتك فى كلام لا طائل تحته يا بنودينى فاننى لست فى مزاج يسمح لى بالمناقشة اليوم » .

— « ولا أنا يا عمتى ، لقد كنت فى الواقع أخترع أعذارا لأخفى عار ابنك حتى أعفيك من الألم ، ولكن يبدو أنه أصبح من العسير اخفاء الطريقة التى تحلل بها من كل عرف » .

— « انى أعرف تماما فضائل ابنى وزلاته ، أما الشىء الذى كنت لا أعرفه فهو أنك مضللة مغوية بهذه الصورة » .

وابتلعت بنودينى ردا وصل الى شفتيها وأجابت : « انك على حق يا عمتى ؛ لا يوجد من يعرف الآخر ، ومعظمنا نكاد لا نعرف أنفسنا ، ألم تتمنى مرة بسبب حقدك على زوجة ابنك أن تعمل هذه التى تسمينها المضللة المغوية على اجتذاب عقل ابنك ؟ انظرى الى دخيلة نفسك وابحثى اذا لم يكن الأمر كذلك ! » .

واستشاطت راجلاكشمى غضبا كلهيب حار .

— « أيتها المخلوقة الملعونة ، كيف تجرئين على اتهام أم بمثل هـذه السفالة ضد ابنها ! ألا فليبل لسانك ! » .

فأجابت بنودينى فى هدوء واطمئنان : « عمتى ، اننا جنس ماكر خداع ، لقد كنت تفهمين احتيالى ودهائى أكثر مما أفهمه ؛ وكنت أنا الأخرى أفهم دهاءك أكثر مما تفهمينه ، ان الدهـاء كان موجـودا فى الحالتين — والا لما حدث كل هذا . لقد نصبت الشراك وأنا بين الادراك واللاشعور ، وأنت كذلك نصبت الشراك قاصدة وغير قاصدة وهذه هى طريقة جنسنا . اننا جنس غاويات مضللات » .

فاندفعت راجلاكشمى من الحجرة وهى تختنق من الغضب واستمرت بنودينى واقفة حيث كانت فترة وعيناها تشتعلان نارا ، وعندما انتهى عمل الصباح فى المنزل أرسلت راجلاكشمى فى طلب ماهندرا الذى فهم أن الأمر يتعلق بحادث الليلة الماضية . كان قد تسلم خطاب بنودينى عـلى التو وكان أشبه بالمجنون ، فلقد أطلق صدود بنودينى له موجة رغبته الجامحة التى كانت تكتسحه الآن اليها اكتساحا لا يمكن مقاومته . ولذلك لم يكن فى مزاج يسمح له بمناقشة أمه . كان يعرف أنها سوف تعنفه بشأن بنودينى ، وكان يخشى أن يثيره تعنيفها الى افشاء الحقيقة وينتهى الأمر الى شقاق عائلى مرير . فوجد أن أفضل شىء هو أن يهرب من البيت بعض

الوقت ليستعرض الموقف فى هدوء ، ومن ثم فقد ترك رسالة لأمه م
الخادمة يخبرها فيها بأنه مطلوب على وجه السرعة ولأمر هام فى الكل
وانه سوف يراها عند عودته الى البيت ؛ ثم أسرع يرتدى ملابسه وهرو
من البيت كطفل شارد دون أن ينتظر ليأكل ، ولم ينتبه فى عجلته الى
ضرورة أخذ الخطاب المشئوم الذى قرأه مرارا وتكرارا طول الصباح
ثم نسيه فى جيب ردائه المنزلى الذى كان يحمله فيه .

كانت السماء لا تزال ملبدة بالغيوم بالرغم من المطر الذى كان قد
نزل مدرارا ، وكانت بنودينى وقد زاد عقلها حساسية من شدة الجرح
فى حالة من التوتر والانفعال فأخذت كعادتها فى مثل هذه الأحوال تعمل
بعنف وغضب لتصرف عنها أفكارها . فجمعت ملابس البيت فى كوما
وجلست تعلم كل واحدة منها ، ولما ذهبت لتجمع باقى الملابس من آشا
ورأتها فى هذه الحالة ازدادت ثورتها اشتعالا ؛ فاذا كانت توسم كمخطئة
آثمة فلمَ كان عليها أن تتحمل عار الخطيئة وحده ولا تتذوق متعة
الخطيئة !

وقرع المطر مرة أخرى فى الخارج ، وجلست بنودينى على أرض
حجرتها وأمامها برج من الملابس ، وكانت كلما ناولتها خيمى قطعة من
الملابس خطت بنودينى عليها حرفا بحبر ليكون علامة مميزة لها . وفجأة
اندفع ماهندرا الى الحجرة دون أن يطرق الباب ، فرمت الخادمة الملابس
مرتبكة وهرولت من الحجرة وقد غطت رأسها . ووضعت بنودينى الملابس
التى كانت فى يدها فى حجرتها وقفزت واقفة وكأنها وميض برق .

وقالت فى فحيح : « اخرج من حجرتى » .

— « لماذا ؟ ماذا صنعت ؟ » .

فقلدته بنودينى وقالت « ماذا صنعت ؟ أيها الجبان ! انك تتكلم كما

لو كانت عندك الشجاعة لتقوم بشىء ما ؟ ليست عندك الشجاعة لكى تحب ولا الشجاعة لكى تقوم بواجبك ! لمَ تجرنى وحدى الى هــذا العـــار ؟ » .

— « أتقصدين أنى لا أحبك ؟ » .

— « هذا بالضبط ما أقوله . فهذا التلبث كاللص تارة حارا وتارة باردا ، من هذه الجهة أحيانا ومن تلك أحيانا أخرى — انى أشمئز من عقلية المتسلل التى تتسم بالجبن . انها تشعرنى بالغثيان . اخرج من هنا ! » .

ووقف ماهندرا مشدوها .

— « أتحتقريننى يا بنود ؟ » .

— « نعم ، انى أحتقرك » .

— « ما زال فى امكانى التوبة ، فاذا كففت عن التذبذب وقررت أن أترك كل شىء وأذهب فهل تأتين معى ؟ » .

ثم قبض على يديها كلتيهما وجذبها بين ذراعيه بكل قوته .

فصاحت بنودينى : « دعنى — انك تؤلمنى » .

— « فلتتألمى ، اخبرينى ، هل ستأتين معى ؟ » .

— « لا ، أبدا » .

— ولم لا ؟ لقد أوقعتيننى فى هذا الجحيم ولا يمكنك أن تقذفى بى بعيدا . يجب أن تأتى معى » .

ثم ضمها الى صدره بقوة واستمر يقول وهو يمسكها بشدة :

— « لن يبعدنى عنك ما عندك من احتقار ، سوف آخذك معى ، وسوف أجعلك تهتمين بى » .

وتخلصت بنودينى من قبضته بعد جهد عنيف .

واستطرد ماهندرا يقول : « لقد أشعلت البيت نارا ولن يمكنك اطفاء النار وحدك أو الهروب بنفسك » .

وارتفع صوته وهو يتكلم حتى كاد ينقلب كلامه صياحا :

-- « لمَ جعلت منى ألعوبة يا بنود ؟ لا يمكنك الذهاب الآن بتسمية ذلك مجرد لعبة . ان أمامنا الآن موتا واحدا لنا نحن الاثنين » .

ودخلت راچلاكشمى الحجرة وقالت : « ماذا تفعل يا ماهن ؟ » .

واستقرت عينا ماهنـــدرا المغيظتان على أمه لحظة ، ثم حولهما الى بنوديني وتوسل اليها قائلا : انني سأهجر كل شيء وسأرحل . قولى انك ستأتين معى .

ونظرت بنوديني الى وجه راچلاكشمى الساخط ، ثم تقدمت وأمسكت بيد ماهندرا فى هدوء وقالت : « سوف آتى » .

فقال ماهندرا : « امهليني يوما واحدا . انني سأذهب الآن ولن يكون هناك من الغد الا أنت وأنا » .

ثم خرج ماهندرا وجاء فى تلك اللحظة الكواء وهو يتوسل قائلا : « يا سيدتى ، أنا لا أستطيع أن أتأخر أكثر من ذلك ، فان لم يكن عندك متسع من الوقت اليوم فسوف أحضر غدا وآخذ الملابس » .

ثم جاءت خيمى لتقول ان الحوذى يطلب طعاما للحصان ، وكانت بنوديني قد اعتادت أن تكيل له ما يكفى لسبعة أيام وترسله الى الاسطبل ، كما اعتادت أن تراقب الحصان وهو يأكل وهى واقفة بالقرب من النافذة .

ثم جاء أحد الخدم وكان اسمه جوبال ليشكو قائلا : « لقد حدث شجار بين جهادو الحمال وساد هوشاران وهو يقول انه بمجرد أن يدفع له ثمن الكيروسين سيأخذ مرتبه من الوكيل ويذهب بلا عودة » .

وهكذا استمر روتين البيت اليومى كالعادة .

هجر بيهارى كلية الطب قبل الامتحان النهائى مباشرة وكانت اجابته لكل من أظهر دهشته لذلك « دعنى أهتم أولا بصحتى قبل أن أهتم بصحة الآخرين » .

كان بيهارى غير مستقر بطبيعته ، نشيطا يشغل نفسه دائما بشىء ما رغم أنه كان ينقصه الدافع الطبيعى الى الطموح أو الحاجة الى كسب قوته « فبعد تخرجه من كلية الآداب التحق بكلية شيبىر الهندسية ، وما ان تعلم من الهندسة ما يكفى لاشباع حب استطلاعه عن هذا العلم واعداد نفسه ببعض المهارات اليدوية حتى التحق بكلية الطب . وكان ماهندرا قد التحق بها من سنة قبل ذلك . وكانت صداقتهما شائعة بين زملائهما فى الكلية الذين اعتادوا أن يشيروا اليهما كتوأمين سياميين وقد صارا الآن فى نفس الفصل اذ كان ماهندرا قد رسب فى الامتحان الاول ؛ ثم كان انفصام الصداقة بينهما لغزا لزملائهما فى المدرسة الذين لم يستطيعوا أن يفهموا السبب الذى دعا بيهارى الى أن يتجنب حتى مقابلة ماهندرا . لقــد كان كل فرد يتوقع نجاح بيهــارى نجاحا باهــرا ، ولكن بيهارى لم يدخل الامتحان .

وكان بجوار منزل بيهارى مســكن من حجرة واحدة يقطنها أحــد الفقراء البراهمة يدعى راجندرا تشاكرا فارتى وكان يعمل جامع حروف فى احدى المطابع لقاء اثنتى عشرة روبية فى الشهر . وقد عرض عليه بيهارى أن يتبنى ابنه وأن يعلمه القراءة والكتابة ، وقد سر الرجل لذلك كثيرا وأعطاه ابنه باسنتا الذى كان يبلغ الثامنة من عمره .

وبدأ بيهارى يعلم الولد بأسلوبه الخاص ، قال لنفسه : « لن أدعه

يلمس شيئا مكتوبا حتى يبلغ العاشرة ، والى أن يبلغها يجب أنيكون كل شيء شفويا » فكان يلعب معه ويأخـذه الى المتنزه وحـدائق الحيوان والنبات والمتحف ويمضى معظم النهار معـه ، وكان يتحدث معه باللغة الانجليزية ويقص عليه قصصا من التاريخ ويحاول أن يكتشف قدرات الطفل الطبيعية وينميها عن طريق الاختبـارات والتجارب المختلفة ، وقد انهمك فى هذا العمل حتى لم يعد يجد من وقت الفراغ مايسمح له بعمل شيء آخر الا قليلا .

وفى احدى الأمسيات كان الخروج عسيرا ، فالمطر الذى كان قد توقف فترة فى منتصف النهار بدأ منذ العصر . ومن ثم فقد جلس بيهارى فى حجرة المعيشة الكبيرة فى الطابق الاول من البيت بالقرب من المصـباح وانشغل فى أحدث هواياته مع باسنتا .

— « قل لى يا باسانتا ، كم عارضة فى هذه الحجرة ؟ لا تعدها الآن ، وانما قل العدد على الفور » .

— « عشرون » .

— « خطأ — ثمانى عشرة » .

ثم نهض بيهارى وفتح احدى النوافذ فجأة وسأله : « وكم لوحا فى هذه النافذة ؟ » .

فأجاب باسانتا : « ستة ألواح » .

— « صح ، والآن قل لى ما طول هذا المقعد ؟ وامسك هـذا الكتاب وقل لى وزنه » .

وبينما كان بيهارى منهمكا فى هذا التدريب الحسى جاء خادم ليقول : « سيدى ، سيدة .. » وقبل أن يكمل الجملة كانت بنودينى قد دخلت الحجرة ..

وصاح بيهارى فى دهشة : « ما هذا يا زوجة أخى ؟ » .

فسألته بنودينى : « هل لك قريبة فى البيت ؟ » .

— « لا توجد امرأة — قريبة أو غير قريبة — وليس لى الا خالتى وهى فى بيتنا فى القرية » .

— « اذن أرجوك أن تأخذنى اليها » .

— « وماذا أقول لها ؟ » .

— « قدمنى لها كخادم ، سوف أقوم بعمل البيت » .

— « انها سوف تدهش فهى لم تبلغنى عن حاجتها الى خادم ، ولكن خبرينى أولا لم تريدين ذلك ؟ باساتنا ، أرجوك أن تذهب لتنام » .

فلما غادر باساتنا الحجرة قالت بنودينى : « من العسير أن تفهم المشكلة الحقيقية من مجرد سرد ما حدث » .

— « ليس بذى بال اذا فشلت فى أن أفهم أو أسأت الفهم ، فليس فى ذلك ضرر جسيم » .

— « حسنا ، أنت حر اذن فى أن تسىء الفهم ؛ وها هى المشكلة — ان ماهندرا يحبنى » .

— « ليس هذا بجديد ، وليس هو بخبر أحب تكرار سماعه » .

— « ولا أنا متشوقة الى تكراره . لقد جئت اليك لتحمينى » .

— « ولمَ ذلك ؟ ألست سعيدة بذلك ؟ منذ متى تغيرت ؟ ومن المسئول عن قيادة ماهندرا الى ممر الحديقة ؟ » .

— « أنا ، ولن أخفى عنك ذلك . انى مسئولة عما حدث ، ولكن سواء كنت شريرة أو غير شريرة فأرجو أن تفهمنى ولو مرة واحدة . لقد أشعلت بيت ماهندرا بقلبى المحترق . لقد خيل الى مرة اننى أميل اليه ؛ ولكن الأمر ليس كذلك » .

— « وهل يشعل أحد بيت أحد آخر بدافع الحب ؟ » .

— « هذا مجرد مثل مما فى الكتب من أمثال ؛ ولست أدرك معنى مثل هذه الحكمة المطروقة ، فأرجوك يا أخا زوجى أن تضع هذه الأمثال جانبا مرة وتنظر الى دخيلة قلبى ، اصغ الى ؛ دعنى أقول لك كل شىء عن نفسى ، خيرا كان أو شرا » .

— « أنا لا أتعلق بما فى الكتب من أمثال دون سبب ، دعى القلب وأعماله الغامضة لله السميع العليم الذى يعلم الباطن أما نحن المخلوقات فمن الجائز أن نخطىء اذا نحن لم نتمسك بشدة بما تقوله لنا هذه الكتب » .

— « اصغ الى يا أخا زوجى ؛ دعنى أعترف لك بلا خجل انك كنت تستطيع أن تغيرنى ، ان ماهندرا يحبنى فعلا ولكنه بليد وأعمى ولا يستطيع أن يفهمنى . اعتقدت مرة أنك فهمتنى وأنك تحترمنى الى حد ما — أرجوك ألا تلثم الحقيقة » .

— « لقد كنت فعلا أحترمك احتراما كبيرا » .

— « ولم تكن مخطئا يا أخا زوجى ؛ ولكن لم وقفت عند هذا الحد اذا كنت فهمتنى واهتممت بى ؟ ما الذى منعك من حبى ؟ لقد نفضت عنى الخجل اليوم وجئت اليك ، لأقول لك دون حياء لمَ لم تحبنى ؟ من سوء حظى أنك أيضا أحببت آشا ! لا ، لا يمكنك أن تغضب منى ! أرجوك أن تجلس يا أخا زوجى ، فانى أريد أن أتحدث فى صراحة ودون أى تحفظ ، لقد عرفت حبك لآشا حتى قبل أن تدرك أنت ذلك ولكن ما يحيرنى هو : « ماذا ترون فى آشا أيها الناس ؟ أى شىء يجذب فيها ، خيرا كان أو شرا ؟ هل أعطاكم الله أيها الرجال عيونا

ولم يعطكم بصيرة ؟ يا لأسرع ويا لأيسر ما تخدعون أيها الرجال ! أغبياء ! وعمى ! » .

ونهض بيهارى وقال : « انى مستعد أن أصغى الى أى شىء تقولينه اليوم ؛ ولكن لى رجاء واحد — أرجوك ألا تناقشى ما لا داعى لأن يناقش » .

— « انى أعرف موطن الألم منك يا أخا زوجى ، فأرجو أن تتحملنى وتحاول أن تفهم ما تحملته من ألم دفعنى الى أن أجرد نفسى من كل حياء وكل خوف وأن آتى اليك أجرى هذا المساء — الى من كان يحترمنى فى وقت من الأوقات ، الى من كان يستطيع أن ينقذنى ويحول فشلى نجاحا لو أنه أحبنى . انها الحقيقة التى أذكرها لك ، لو لم تكن تحب آشا لما تحطمت حياتها اليوم » .

فسأل بيهارى فجأة وقد شحب لونه : « ماذا ؟ ماذا حدث لآشا ؟ » .

— « ان ماهندرا يستعد لكى يهجر بيته ويأخذنى معه » .

فزأر بيهارى وقال : هـذا لا يمكن أن يكون — تحت أى ظرف من الظروف ! » .

فكررت بنـودينى : « تحت أى ظرف من الظروف ؟ من ذا الذى يستطيع أن يمنع ماهندرا اليوم ؟ » .

— « أنت تستطيعين ذلك » .

وظلت بنودينى صامتة فترة ثم قالت بعد أن استقرت عيناها عـلى بيهارى : ولأجل من أعمل هذا ؟ لأجل آشا ؟ أليس هناك شىء اسمه سعادتى أو تعاستى ؟ اننى لست قديسة حتى أتخلى عن كل حقوقى فى هذه الحياة من أجل آشاك ومن أجل منفعة أسرة ماهندرا ؛ ولا ألم كل

الالمام بالأخلاق التى جاءت بها الكتب المقدسة ، فلابد أن يكون هناك شيء فى مقابل ما أتخلى عنه » .

وتصلب وجه بيهارى حتى صار تعبيره قاسيا ، ثم قال : « لقد حاولت أن تذكرى لى حقائق عارية كثيرة ، فدعينى أنا أيضا أكون صريحا معك . ان الضرر الذى سببتيه اليوم والكلمات التى تتلفظين بها الآن مشتقة فى معظمها أو هى بالأحرى مسروقة من القصص التى قرأتيها ، ومعظمها من نوع الدراما العنيفة والأسلوب المسرحى ! » .

— « دراما عنيفة ! وأسلوب مسرحى ! » .

— « نعم ، دراما عنيفة وأسلوب مسرحى . بل ليست من مستوى عال كذلك . انك تظنين أن ما تقولينه هو من عندك ، ولكن الأمر ليس كذلك . انه صدى ما تقرئينه . ولو كنت جاهلة بالكلية أو فتاة حمقاء غبية لما كنت تحرمين حتى فى مثل موقفك من بعض الحب فى هـذا العالم — ولكن بطلة المسرحية لا تكون جذابة الا على المسرح ، ولا يريدها أحد فى بيته » .

وهدأت فجأة نغمة بنودينى المتكبرة المنفعـلة كحية اختفت بسحر ساحر . فجلست ساكنة فترة طويلة وقد أحنت رأسها ، ثم سألت فى رقة ودون أن ترفع رأسها « وماذا تريد منى أن أفعله ؟ » .

— « لا شيء مسرحى أو مثير للعاطفة ، اعملى ما يمليه عليك حسن تصرف المرأة العادية . ارجعى الى قريتك » .

— « وكيف أذهب ؟ » .

— « سوف أصطحبك الى محطة السكة الحديد وأضعك فى عـربة السيدات » .

— « وهل أمضى الليلة هنا اذن ؟ » .

— « لا ، لا أستطيع أن أثق بنفسى الى هذا الحد » .

وسقطت بنودينى فجأة الى الأرض واحتضنت قدمى بيهارى بذراعيها وضغطتهما الى صدرها وتمتمت : « اذن فعندك بعض الضعف من ناحيتى يا أخا زوجى ، استحلفك أن تحتفظ به وألا تدع طهرك يجعل منك شخصا متجمدا كاله من الحجر ، كن انسانا وكن طالحا قليلا بحبك للطالحين » .

ثم قبلت قدميه مرارا وتكرارا ، وصعق بيهارى من هذا السلوك المتهور الذى لم يكن يتوقعه والذى شل ارادته لحظة ، وبدا التوتر فى جسمه وعقله يسترخى كما لو كانت كل العقد قد حلت ، وشعرت بنودينى برعشة أطرافه الصامتة فتركت قدميه ورفعت نفسها على ركبتيها أمام مقعد ثم احتضنت عنقه فى كلتا ذراعيها ، وتمتمت :

« يا أعز الأعزاء ، انى أعرف أنه لا يمكن أن تكون لى الى الأبد ، ولكن دعنى أشعر بحبك ولو مرة واحدة حتى ولو كان ذلك للحظة قصيرة وسوف أختفى بعد ذلك فى تيه قريتى ، ولن أطلب شيئا آخر من أى شخص . اعطنى شيئا ولو قليلا لأرعاه وليكون ذكرى حتى مماتى ؟

ثم أغلقت عينيها ورفعت شفتيها قريبا من شفتيه ، واستمر الاثنان لحظة دون حراك فى سكون الحجرة ، وعندئذ زفر بيهارى تنهيدة عميقة وأبعد ذراعى بنودينى عن عنقه بلطف ونهض وجلس فى مقعد آخر ، وبذل جهدا عنيفا حتى استطاع أن يستعيد صوته المختنق وقال : « هناك قطار للمسافرين فى الساعة الواحدة صباحا » .

ظلت بنودينى صامتة فترة ثم تمتمت فى صوت خافت : « سوف أسافر بهذا القطار » .

وفجأة دخل باساتنا الحجرة عارى القدمين ودون قميص ، وجسمه

الصغير تشع منه الصحة ثم جاء ووقف بالقرب من مقعد بيهارى وهو ينظر الى بنودينى برصانة .

وسأله بيهارى : « لم تركت سريرك ؟ » .

وظل باساتنا يحملق فى بنودينى دون أن يجيب فمدت ذراعيها نحوه ، وبعد لحظة من التردد تقدم اليها باساتنا . وضمت بنودينى الطفل الى قلبها وبدأت تبكى .

٣٤

ان ما لا نفكر فيه قد يحدث وما يبدو غير محتمل يتضح احتمـــاله والا لما استطاع أهل بيت ماهندرا أن يعيشوا تلك الليلة وذلك اليوم . لقد أرسل ماهندرا خطابا الى بنودينى بالبريد فى تلك الليلة التى طلب منها فيها أن تستعد للرحيل ، ووصل الخطاب الى البيت فى الصـــباح التـــالى .

وكانت آشا ما زالت فى الفراش ، فلما حملت الخادمة الخطاب اليها اندفع الدم الى قلبها بقوة وهبت فى أعماقه عاصفة من الأمل والخوف . وأسرعت فرفعت نفسها من الفراش ونظرت الى المظروف فرأت اســـم بنودينى مكتوبا بيد ماهندرا . وغاصت الى الوسادة وأعادت الخطاب الى الخادمة .

فسألتها الخادمة : لمن أعطى هذا الخطاب ؟

— « لا أعرف » .

* * *

كانت الساعة الثامنة مساء عندما جاء ماهندرا مسرعا كالعاصفة وتوقف عند حجرة بنودينى . كان الظلام مخيما على الحجرة فأخذ علبة الثقاب من جيبه وأشعل عودا منها ولكنه لم ير بنودينى أو حاجاتها فى الحجرة ،

فاتجه الى الشرفة الجنوبية ولكنها كانت مهجورة فنادى « بنودا ! » ولكنه لم يسمع ردا .

فأخذ يعنف نفسه ويقول : « كم كنت أحمق ! أحمق تماما ! كان يجب أن آخذها معى فى التو واللحظة . لا شك ان أمى عاملتها معاملة جعلت بقاءها فى المنزل مستحيلا » .

وما أن راود الشك عقله حتى اقتنع بأن الأمر لابد كذلك ، فاندفع الى حجرة أمه وهو ينفجر قلقا ، ولكن الحجرة كانت فى ظلام دامس هى الأخرى ، ومع ذلك فقد استطاع أن يرى ظل راچلاكشمى وهى راقدة فى الفـراش . فنبح بغضب « أمـاه ! ماذا كنتم أيها النـاس تقولون لبنودينى ؟ » .

فأجابت راچلاكشمى : « لا شىء » .

— « وأين هى اذن ؟ » .

— « وكيف أعرف ذلك » .

فقال ماهندرا مرتابا : « أنت لا تعرفين ! حسنا ، سوف أذهب لأبحث عنها وسوف أجدها أينما كانت » .

ثم استدار على عقبيه ، فقامت راچلاكشمى من الفراش مسرعة وجرت وراءه وهى تصيح باكية : « ماهن ، لا ترحل . عد . استمع الى » .

ولكن ماهندرا كان قد اندفع خارجا من البيت ، ولكنه رجع الى البواب بعد لحظة وسأله : « أين ذهبت زوجة أخى ؟ » .

— « لا نعرف يا سيدى . انها لم تقل شيئا » .

فعلا ماهندرا يسأله فى صوت قاس متهكم : « ألا تعرف ؟ » .

فأجاب البواب وراحتاه مطويتان : « لا يا سيدى » .

فتمتم ماهندرا لنفسه : « لقد دربتهم أمى » ثم قال للبواب بنظافة :
« حسنا . فليكن كذلك » .

وفى ظلمة الشفق التى أخذت تشتد وقد أخذت تخفف منها أضواء مصابيح الغاز كان الباعة فى الطريق ينادون على الثلج والسمك الذى يبيعونه . واستمر ماهندرا فى سيره حتى ضاع وسط الحشد الصاخب .

٣٥

لم تكن عادة بيهارى أن يفكر فى نفسه كثيرا فى الليل ، والواقع أنه لم يكن يعتبر نفسه فى وقت من الأوقات موضوعا مناسبا للتأمل ، لأنه كان يعتبر العالم الذى حوله أكثر أهمية من نفسه فقد كان سعيدا بكتبه وعمله وأصدقائه وبكل ما حوله . ثم جاء يوم تطاير العالم من حوله من أثر صدمة شديدة تركته وحيدا فوق قمة عذابه وألمه ، ومنذ ذلك الحين وهو فى خوف متزايد من أن يترك وحيدا مع نفسه ، فحاول أن يغرق نفسه فى العمل حتى لا يعطى نفسه فرصة تبرز فيها .

ولكنه اليوم وجد من المستحيل عليه أن يتجاهل السجين بداخله ، كان قد صحب بنودينى الى بيتها فى القرية فى اليوم السابق ، ومنذ ذلك الوقت وقلبه يتلوى من الألم فى كهفه العميق ، لا ينقطع عن اشعاره بوجوده سواء وهو فى وسط العمل أو فى صحبة الناس ، حتى شعر بالحزن والكآبة والكلل وتغلب عليه التعب والاعياء .

كانت الساعة التاسعة مساء ، وكان النسيم الجنوبى يهب من البحر بجنون على شرفة السطح التى تؤدى الى حجرة نوم بيهارى — وكانت الليلة مظلمة احتجب فيها القمر ، وكان بيهارى جالسا فى الظلام مسترخيا فى مقعد مريح . ولم يكن فى مزاج يسمح له بتعليم باسانتا فسمح لتلميذه

بالانصراف مبكرا فى المساء . وكان قلبه — كطفل هجرته أمه — يمد ذراعيه يتحسس فى الظلام باحثا عن بعض الراحة والصحبة والحلاوة التى يستشعرها من وجوده الحر الطليق ، وبدا لبيهارى أن شاطئى شخصيته المنظمة المنسقة كليهما قد انهارا وأرخا العنان لمياه عقله الباطنى الآسنة التى ظلت محتجزة دهرا طويلا ولكنها اكتسحته الآن صوب خيالات وأفكار كان قد أقسم ألا يثيرها من مرقدها .

لقد نشرت أمام عقله الآن صفحات القصة الطويلة ، من بدايتها الى نهايتها ؛ قصة صداقته مع ماهندرا . وانطبعت بألوان مختلفة على ورقة ذاكرته المطوية كأنها خريطة ظهر فيها اليابس والماء ، والأنهار والجبال . وتذكر الصدمات التى قلبت توازن العالم الصغير الذى كان حياته ، تذكرها صدمة صدمة — فى اصطدامها بالكواكب الأخرى الجانبية . متى حدثت الصدمة الأولى ؟ لقد استطاع أن يرى محفورا فى الظلام أمامه ، وجه آشا الحيى الذى يشبه وجه البنت وهو يشع بذهب غروب الشمس الرقيق ، واستطاع أن يسمع نفير المحاورات وهى تعلن الحادث الميمون ، لقد جاء هذا الكوكب الميمون الطالع من أفق فضاء مجهول ووقف بين الصديقين فسبب شقة طفيفة بينهما وألما مبهما لم يجرؤ على الاعتراف به شعوريا فى عقله ، ومع ذلك فقد أضاء هذا الألم بنور محبة نادرة ؛ كانت فى حد ذاتها عملا كاملا .

ثم فى أثر هذا الكوكب الميمون جاء زحل يبعثر فى الرياح اخلاص الصديقين ورباط الحب وسلام الأسرة وقداستها ، وحاول بيهارى بكل الاحتقار الذى يمكن للسلوك المستقيم أن يحشده أن يطرد صورة بنودينى من عقله ، ولكن العجيب حقا أن احتقاره ذاب بمجرد أن أحس به دون أن يشوه صورة الجمال الساحر المحير التى ظلت تضىء بثبات فوق صدر

الظلام الذى انعكس عليه ، وكان نسيم الجنوب الصيفى المقلق اللاهث يشبه تنفس الصورة المضطرب الذى كان يلاطف أطرافه ثم بدأ بهر النظرة النارية الراسخة يخبو تدريجا وبدت العينان الحادتان النافذتان المشتعلتان عطشا ترقان وتذوبان فى فيض الدموع وقد تحولت نظرتهما الى نظرة كلها رقة عميقة ، اقتربت الصورة ثم ضمت وهى تهبط الى الأرض ركبتى بيهارى الى صدرها فى عناق عاصفى ، ثم بدت تنمو كنبات متسلق خيالى ساحر يغلف بنودينى بخيوطه الرقيقة ويرفع رأسه الجميل كزهرة متفتحة تتنفس عطر الرغبة فى شفتى بنودينى . وأغمض بيهارى عينيه وهو يحاول أن يبعد الصورة عن شاشة عقله ولكن ارادته بدت مجردة من كل حول لا تستطيع أن ترفع يدها أمامها وارتعشت قبلة محمومة فاشلة على طرف شفتيه فى ألم من الاحباط ، وهكذا احتوته اثارة من النشوة وسيطرت عليه بسحرها .

وأسرع الى حجرة النوم المضاءة بعد أن لم يعد يستطيع احتمال الظلام والوحدة فسقطت عيناه على منضدة الشاى فى ركن من أركان الحجرة وعليها صورة مغلفة فى الحرير — وفك غلاف الصورة وجلس وسط الحجرة تحت الضوء مباشرة وأخذ يحدق فيها .

كانت صورة ماهندرا وآشا معا بعد الزفاف ، وقد كتب وراءها اسم « ماهندرا » بخط ماهندرا و « آشا » بخط آشا . لقد حفظت الصورة نشوة هذا الحب الجديد الحلو الذى ألف بين الاثنين فى أول عهد زواجهما . كان ماهندرا جالسا فى مقعد ووجهه يشع بالفرح بسبب حب اكتشفه حديثا ، بينما وقفت آشا بجانبه . لقد نجح المصور فى رفع حجابها ولكنه لم ينجح فى رفع خجلها من وجهها . ان آشا المسكينة الآن فى حالة ضيق يأكل قلبها الأسى بينما ماهندرا قد ابتعد عنها ، وهكذا أحالت الصورة

التى لا عقل لها نشوة الحب التى احتفظت بها الى دليل على سخرية القدر رسمته فوق وجه بيهارى .

حاول بيهارى وهو يحتفظ بالصورة فى حجره أن يتوسل بصاحبتها كتعويذة يطرد بها صـــورة بنودينى ، ولكن ذراعى بنودينى الرقيقتين النابضتين بحــرارة الحب الأصيل استمرتا متعلقتين بأطرافه . حاول أن يحتقرها فأخذ يسأل هذا السؤال فىعقله ويعيده مرة بعد مرة : « كيف تستطيعين أن تحطمى هذا البيت الجميل الذى تنتشر السكينة فى أرجائه ؟ » ولكن شفتى بنودينى المحموتين ارتفعتا بالقرب من شفتيه كأنهما تدعوانه فى تضرع عاطفى وبدتا كأنهما تتمتمان : « أحبك . أنت وحدك لى فى هذا العالم أجمع » .

أى نوع من الاجابة كانت هذه ؟ وهل يمكن أن تكون كلمة « أحبك » اجابة كافية لتخفف من النواح الذى يدعو الى الشفقة من بيت تحطم ؟ يا للساخرة الشريرة ! ومع ذلك فقد كان حتى وهو يتمتم بهذه الكلمات التى كان يود أن تكون معبرة عن احتقاره الكامل كان ما زال لديه شك فى أن نغماتها كانت فيها رجفة من الرقة ، وكيف يستطيع بحق ومن كل جوارحه أن يلفظ هبة الحب الذى لا حد له ذلك الذى عرض عليه دون مقابل فى وقت هو نفسه قد نبذ وألقى به فى عرض الشارع كأحد الشحاذين وحرم من حقه فى صداقة تدوم دوام العمر ، ان صداقة كهذه لم تصادفه من قبل فى حياته ومع ذلك ما عاد عليه من اخلاصه ونكران نفسه لم يزد عن بضع فتات حقيرة من مخزن الحب ، والآن حين تضع له سيدة الحب نفسه أشهى أطباقها من الحب التى أعدتها خصيصا له أمامه وتقدمه على صحفة من ذهب ، كيف يستطيع البائس الجوعان المسكين أن ينكر على نفسه مثل هذه الوليمة ؟ .

وبينما كان منهمكا فى تفكيره على هذا النحو والصورة ما زالت فى حجره اذا بصوت يجعله يجفل ، فرفع بصره فرأى ماهندرا فى الحجرة . فلما حاول أن ينهض من مقعده فى ارتباكه المفاجىء سقطت الصورة من حجره على السجادة دون أن يلاحظها .

وسأل ماهندرا بأسلوب لا كلفة فيه : « أين بنودينى ؟ » .

وتقدم بيهارى ليحيى ماهندرا فأخذه بيده وهو يقول بود : « يا عزيزى ماهندرا . أرجوك أن تجلس فترة وسوف نناقش كل شىء » .

— « ليس عندى وقت للجلوس والمناقشة . اخبرنى أين بنودينى ؟ » .

— « لا يمكن أن يجاب سؤالك بمثل هذه البساطة ، فيجب أن تجلس فترة وتصغى بصبر وأناة » .

— « هل ستبدأ فى الوعظ ؟ لقد قرأت ما يكفى من العظات فى طفولتى » .

— « لا ، فليس لى الحق فى أن أعظ بل ليست لى القوة على الوعظ » .

— « سوف تلعننى اذن ؟ انى أعرف اننى نذل ومحتال وأستحق كل صفة تنعتنى بها ، ولكن ما أريد أن أعرفه هو ما يأتى : هل تعرف مكان بنودينى ؟ » .

— « نعم — أعرف ذلك » .

— « هلا أخبرتنى به ؟ » .

— « لا » .

— « بل يجب عليك ، لقد سرقتها وأخفيتها ، وهى لى ويجب أن تعيدها الى » .

واستمر بيهارى صامتا مدة دقيقة ، ثم قال ببرود : « انها ليست لك ، ولم أسرقها ، لقد جاءت الى بمحض ارادتها » .

واستشاط ماهندرا غضبا وصاح : « انك تكذب ! » ثم اندفع الى

الباب المغلق المؤدى الى الحجرة المجاورة وبدأ يطرقه بشدة ويصيح :
« بنود ! بنود ! » .

فوصل اليه نشيج من الداخل فصاح : « لا تخافى يا بنود . اننى ماهندرا وقد جئت لأنقذك ، ولا يجرؤ انسان على أن يجعل منك سجينة » .

ثم دفع الباب بكل قوته واندفع الى الحجرة الغارقة فى الظلام فاستطاع أن يرى شكلا غير واضح فى الفراش جالسا القرفصاء من الخوف ومتعلقا بوسادة يبكى بكاء مكتوما . واندفع بيهارى الى الحجرة ورفع باسانتا فى ذراعيه وهو يتمتم ليطمئنه « لا ترتعب يا باسنتا فلا يوجد ما يخيف » .

وخرج ماهندرا من الحجـرة مندفعا وأخذ يتجول فى البيت يبحث فى كل مكان ، فلما عاد اليها كانت الحجرة قد أضيئت وكان باسانتا قد رجع الى فراشه ولو أنه كان مازال ينتحب خوفا بينما جلس بيهارى بجانبه يربت عليه بلطف ليحمله على النوم .

وسأل ماهندرا بقلق : « أين وضعت بنودينى ؟ » .

فرد بيهارى : « أرجوك ألا تصيح يا ماهندرا ، لقد أرعبت هذا الولد الصغير وربما تسببت فى مرضه ، أما عن بنودينى فليس من شأنك أن تعرف أين هى » .

فقال ماهندرا ساخرا : « أيها القديس يا سامى الروح ، لا تتشدق بالمثل العليا المقدسة ، فماذا كنت تعمل فى الليل بصورة زوجتى فى حجرك ؟ فى أى لاهوت كنت تتأمل ؟ وأى آيات مقدسة كنت تهمس بها ؟ أيهـا المنافق ! » .

ثم رمى بالصورة واطارها الى الأرض وداس عليها بحذائه فتهشم زجاجها ، ثم رفع الصورة ومزقها اربا وألقى بها فى وجه بيهارى . وعـاد باسنتا وقد أرعبه هذا الجنون العنيف الى نوبة جديدة من النشيج .

وأشار بيهارى وهو يختنق من غضب صامت الى الباب وأمر ماهندرا قائلا : « اخرج ! » .

فاندفع ماهندرا من الباب كالعاصفة .

٣٦

شعرت بنودينى ، وهى ترقب المنظر الخلوى من نافذة عربة السيدات التى لم يكن بها غيرها والقطار يمر مسرعا بالحقول المزروعة والقرى بحدائقها الظليلة ، بحنين الى حياة الريف بما فيها من سكينة وهدوء ، وصور لها خيالها عشا وسط الغابات حيث تستطيع فى صحبة كتبها المحببة اليها أن تبرىء نفسها من الألم المرير والأحزان التى نجمت عنه والتى أقحمها اغترابها فى المدينة على قلبها . وحدقت فى الحقول الخاوية التى لا نهاية لها بلونها السنجابى فى الصيف وقد اصطبغت بضوء الغروب المنتشى ، وشعرت بعدم حاجتها الى أى شىء . كل ما كانت تريده هو أن تغمض عينيها وتغرق كل ذكرياتها فى ضوء السكينة الذهبى الذى يشبه فى لونه لون المنظر الممتد أمامها وأن تنقذ قاربها الصغير من أمواج الحياة العاصفة المضطربة وتقوده فى هدوء الى الشاطىء ثم تربطه تحت فروع شجرة الباقيان الساكنة وهى تنعم النظر فى سكون اليوم المنتهى . نعم انها لا تريد شيئا آخر ، وكان شذى زهر المانغو من حين الى آخر يسبح فى العربة فتزيد شوقها الى هدوء بيتها الريفى ، وتمتمت لنفسها : « ذلك أفضل ، فلقد سئمت نفسى ولا أتطلع الآن الا الى أن أنسى نفسى فى نوم عميق . سأكون فتاة قروية مرة أخرى وأعيش فى سلام وأجد الراحة فى واجباتى فى البيت وفى القرية » .

وبعد أن هدأت بنودينى قلبها المضطرب بآمال السلم دخلت الى

كوخها ؛ ولكن وآسفاه ! أين هو السلم ؟ فليست هناك الا الوحدة والفقر ، كان كل شيء فى الكوخ رثا مهلهلا وقذرا متداعيا ، وكانت رائحة الرطوبة الكريهة المنبعثة من الحجر المغلقة تخنقها ، وكان ما بها من أثاث على قلته قد تداعى بفعل النمل الأبيض والفيران والتراب معا . ودخلت بنودينى الكوخ عند الشفق وكان يغلف الحجرة ظلام دامس ، وبطريقة ما نجحت فى اشعال المصباح الذى ملأ الهواء على الفور بدخان زيت الخردل الزنخ ولم يكن لضوئه المعتم من أثر الا أن يزيد الحجرة وحشة . لقد بدا لها مالم تكن تهتم به من قبل شيئا لا يحتمل الآن . وثارت روحها الثائرة على ما رأته واندفعت فى احتجاج عنيف : « لا أستطيع أن أعيش هنا دقيقة واحدة » وكانت فى كوة فى الحائط بعض كتبها ومجلاتها القديمة وقد غطاها التراب ، فلم تجد لديها الشجاعة لتلمسها ، وكانت الرياح فى الخارج قد توقفت ولم يعد يسمع من غابة المانغو الا شقشقة صراصير الليل وطنين البعوض الذى لا ينتهى .

وكانت المرأة العجوز قريبة بنودينى من جهة أبيها التى اعتادت أن تمكث معها وتعنى بشئونها قد ذهبت لزيارة ابنتها التى كانت تعيش مع زوجها فى مكان بعيد . فذهبت بنودينى بعد ذلك لتزور جيرانها الذين نظروا اليها فاغرى الأفواه — نظر كل منهم الى الآخر وتبادلوا نظرات ذات معنى كما لو كان الدليل قد أكد ما بلغهم من اشاعات « تصورى ! من كان يظن ذلك ؟ انظرى اليها ، كم هى جميلة ورشيقة كما لو كانت سيدة من الأشراف ! » .

وأدركت بنودينى فى كل خطوة من خطواتها أنها قد ابتعدت كثيرا عن حياة القرية وأنها فى الواقع فى حكم المنفية فى كوخها لا تستطيع أن تلتمس السكينة فى أى مكان .

وكانت تعرف ساعى البريد منذ طفولتها ، وقد رأته فى صباح اليوم التالى وهى فى طريقها الى صهريج القرية لحمامها ، وهو يسير فى الطريق وعلى كتفه حقيبة البريد ، فلم تستطع أن تكبح تلهفها فرمت فوطة الحمام وجرت اليه مستفسرة : « يا نشودا ألا يوجد خطاب لى ؟ » .

فأجاب الرجل العجوز : « لا » .

فقالت بنودينى بقلق : « قد يكون هناك خطاب ، فأرجو أن تدعنى أرى بنفسى » .

وتناولت بعض الخطابات فى يدها ونظرت الى العناوين بعناية ، ولكن لم يكن بينها خطاب لها ، فلما وصلت الى درجات صهريج الاستحمام شعرت بالكآبة والحزن وغمزت بنات الجيران وابتسمن فى خبث .

وصاحت واحدة منهن : « يا الله يا بنيدى ! لم كل هذا التلهف على خطاب ؟ » .

فقالت واحدة أكثر سلاطة : « حسنا ، حسنا ، كم واحدة منا لها حظ تسلم خطاب بالبريد ؟ ان أزواجنا واخواننا وأنسباءنا يعملون كذلك فى المدن ، ولكن هل أشفق ساعى البريد علينا يوما ؟ » .

وهكذا أصبح التهكم أكثر وضوحا والنظرات أكثر سخرية ، وكانت بنودينى قد توسلت الى بيهارى أن يكتب اليها مرتين فى الأسبوع ان لم يكن كل يوم ، ولم يكن هناك الا احتمال قليل فى أن يصل خطاب هذا الصباح ، ولكن لهفتها على خطاب منه كان من الشدة بحيث تعلقت حتى بأبعد الاحتمالات . وبدا لها كما لو كان قد مر دهر طويل منذ أن غادرت كلكتا .

فلقد سبقت وصولها الى القرية اشاعات مخزية عنها وعن ماهندرا ، وسرعان ما عرفت مقدار ما فى هذه الاشاعات من حقد والمدى الذى

انتشرت فيه من أصدقائها وأعدائها على السواء . أين اذن السكينة ؟ لقد حاولت أن تبتعد عن الجيران فزادهن ذلك غضبا ، وبرمن بحرمانهن من لذة التهكم والسخرية بأخت لهن زلت .

ولم تكن هناك فائدة ترجى من محاولة الاختفاء فى قرية صغيرة ، اذ من المستحيل أن تجد ركنا مظلما تستطيع جروح الانسان أن تلتئم فيه فى عزلة عن الناس فالعيون التى تختلس النظر تنظر محاذرة فى كل مكان لتتجسس على المواضع الموجعة ، وكانت كلما ناضلت بنوديني وهى تتلوى من الألم كسمكة حية فى سلة ازداد ايذاؤها لنفسها ، وحتى الحق فى أن تلذ بطعم الألم الكامل حرمت منه هنا .

وفى اليوم التالى بعد أن مرت ساعة توزيع البريد أغلقت بنوديني على نفسها الحجرة وكتبت :

« لا تخف يا أخا زوجى ، لن أقحم عليك خطاب حب ، أنت قاضى وأنا أحنى هامتى أمامك ، لقد اقتصصت منى بشدة للخطيئة التى اقترفتها ؛ وأنا أنفذ حكمك الذى أصدرته على ، ولكن أسفى الوحيد هو أنك لا تستطيع أن ترى بنفسك مدى قسوة حكمك .. ولو أنك رأيته لتحركت فيك الشفقة ، ولكنى حرمت حتى من هذه الفرصة ؛ ومع ذلك فسوف أحتمل حكمك كله وأنا أفكر فيك وانحنى أمامك ، ولكن قل لى يا سيدى ، أليس للسجين الحق فى نصيبه من الزاد على الأقل ؟ — لا المشهيات ولا الكماليات بل أقل ما يمكن منه ليبقى حيا ! ان كل الزاد الذى أتطلع اليه هو خطاب من سطرين منك ، فاذا حرمتنى ذلك فسيكون حكمك على بالموت لا بالنفى ؛ فأرجوك أيها القاضى ألا تضعنى أمام اختبار شديد لا قبل لى بقسوته ، لم يكن هناك حد للكبرياء فى قلبى الآثم ، ولم أكن أتخيل حتى فى المنام أننى سأحط من قدر نفسى فى يوم من الأيام الى هذا

الحد من الذلة أمام أى انسان ، لقد انتصرت على ولن أثور ، ولكنى أرجوك أن تشفق على وأن تساعدنى على أن أعيش . اعطنى قدرا قليلا من الزاد يساعدنى على تحمل قسوة هذا النفى فى التيه ؛ ولن يقف بعد ذلك أى شىء فى سبيل تنفيذ حكمك فى صدق واخلاص . ان هذا هو الاشارة الوحيدة التى أنقلها اليك عن ألمى وما أقاسيه ؛ أما ما عدا ذلك مما فى عقلى فقد أقسمت ألا أقحمه عليك حتى ولو كان قلبى ينفجر ليجد له منفذا ، ولكنى سأحافظ على عهدى — المخلصة بنود زوجة أخيك » .

وأرسلت الخطاب ، وافترى الجيران ما شاءوا — يا للفتاة عديمة الحياء ! تغلق على نفسها كوخها وتكتب الخطابات وتخاطب ساعى البريد ! هل البقاء فى كلكتا بضعة أيام يقتل الخجل كله ويضيع حاسة الصواب والخطأ ؟

ولم يصل خطاب فى اليوم التالى كذلك وأمضت بنودينى اليوم فى ذهول وقد تصلب وجهها ، وتحركت فجأة القوى المدمرة التى كانت نائمة فى أعماق عقلها الباطن وقد مزقها سوط الاهانة والسخرية من كل جانب ، من الداخل ومن الخارج ، وتحولت الى غضب شيطانى متوحش قاس ، وأخذ منها الرعب كل مأخذ فأغلقت على نفسها الحجرة .

ولم يكن معها شىء من بيهارى — لا تذكار محسوس ولا صورة بل ولا حتى مخطوط ، وتحسست فى الفراغ حولها عن رمز من الرموز ، تذكار ما . يمكن أن تضمه الى قلبها فقد يؤدى دفؤه الى اطلاق الدموع فى عينيها ؛ شىء يساعدها على أن يذيب مرارة القلب المتجمد ، ويطفىء مع فيضان الدموع لهيب الثورة الذى أخذ يتأرجح فى داخلها حتى تستطيع أن تنفذ بحب واخلاص النظام الصارم الذى فرضه عليها ، ولكن قلبها

كسماء منتصف النهار الصافية ، استمر يحترق ولا يخمد دون أثر واحد لدمعة فى عينيها .

وكانت قد سمعت أن التأمل الصادق له من القوة حد اذا استعان به الانسان على طلب شخص آخر فلا يمكن لهذا الشخص الا أن يأتى اليه . وهكذا أغلقت عينيها وطوت راحتيها وهى فى صلاة عميقة وبدأت تدعو بيهارى « ان حياتى خاوية ، وقلبى خاو ، ولا يوجد حولى الا الفراغ — تعالَ الى هذا الفراغ ، تعال ولو لدقيقة واحدة ، يجب أن تأتى فانى لن أهجرك » .

وقد شعرت بنودينى وهى تكرر هذه الكلمات فى حماس واخلاص مركز انها تزداد قوة ، وشعرت بأن هذه القوة لابد أنها قوة الحب وقوة التأمل التى لا يمكن أن تروح سدى ، غير أن مجرد الرغبة ومجرد صب دم الانسان ليغذى جذور اليأس شىء لاطائل تحته ولا يسبب الا اجهاد القلب ، أما اذا جمع الانسان أفكاره فى نظام مخلص من التأمل والرغبة القوية المركزة فانها تصبح قوة هائلة فى حد ذاتها ، تتخطى كل شىء آخر فى العالم فى طريقها وتركز نفسها على هدفها المطلوب وتجتذبه اليها بثبات وتأكيد .

ولم تلاحظ بنودينى وقد نسيت نفسها فى تأملاتها أن المساء قد حل وأن الحجرة قد ظلت غير مضاءة فى الظلام الدامس . فلقد كان عقلها وحواسها قد استولى عليها ادراك أكثر عمقا أغرق — كما لو كان فيضانا جارفا — كل أفكارها عن القرية والمجتمع والعالم الخارجى . وفجأة سمعت طرقة على الباب ، فجفلت ونهضت بسرعة من فوق الأرض واندفعت نحو الباب وفتحته وهى تصبح فى نشوة من ايمانها الجديد :

« آه لقد جئت ! » كانت واثقة بأن هناك شخصا واحدا فى هذا العالم الواسع كله يمكن أن يأتى الى بابها فى تلك اللحظة .

وأجاب ماهندرا « ها أنذا يابنود »

وصرخت بنودينى وقد تغلبت عليها خيبة الأمل وعضها الاحتقار :

« اخرج ! اليك عنى ! » .

وصعق ماهندرا .

— اسمعى يا بيندى — اذا جاءت قريبتك العجوز غدا ..... » .

وتجمدت الكلمات على شفتى جارتها ، وكانت قد جاءت الى الباب ، وصاحت فى دهشة مختنقة : « ياللفضيحة ! » ورفعت ساريها فوق وجهها وهربت على عجل .

٢٧

كانت القرية وقد أخنقتها الفضيحة فى هرج — واجتمع الكبار فى فناء المعبد وقالوا : « هذا لا يمكن احتماله ، فقد يمكننا أن نمر مر الكرام على ما حدث فى كلكتا — أما هذه الصفاقة الوقحة — كتابة خطاب أثر خطاب لماهندرا ثم احضاره هنا فى هذا المكان — هذا العار والخزى هو النهاية — اننا لا يمكننا أن نؤوى مثل هذه العاهرة بيننا » .

لقد كانت بنودينى متأكدة بأن خطابا من بيهارى سوف يصلها فى الصباح التالى ولكن لم يأت شىء . فعادت تسأل نفسها : « ماحق بيهارى على ؟ ماذا جعلنى استمع اليه ؟ ماذا جعلنى أفهمه بأننى سوف أنفذ ارادته باخلاص وصدق ؟ ان اهتمامه الوحيد بى هو أن يستخدمنى لمصلحة حبيبته آشا . أما أنا فليس لى عنده حقوق اطلاقا — ولا مطلب — ولا حتى خطاب من سطرين — يا لتفاهتى ويا لحقارتى ! « واشتعل فى صدرها

لهب من الغيرة » كان يمكن أن أتحمل هذا الجحيم فى سبيل أى شخص غيره — الا آشـا بالطبع — كم كنت حمقاء عندما قبلت هـذا الفقر الخسيس وهذا النفى فى التيه وهـذا العـار والخـزى وهذا الاحباط الشديد — كل هذا لأرضى آشا ! لمَ لم أواصل خططى المدمرة ؟ كم كنت حمقاء وغبية ! لم أحببت بيهارى ؟ » .

وبينما هى جالسة فى حجرتها تفكر وقد بدا عليها الجمود والقسوة كتمثال من خشب ، دخلت قريبتها العجوز بعد أن عادت من زيارتها لبيت زوج ابنتها .

وقالت فى صوت أشبه بنباح الكلب : « ما هذا الذى اسمعه أيتها السليطة عديمة الحياء ؟ » .

فأجابت بنودينى : « الحقيقة » .

فصرخت المرأة العجوز : « ولم جلبت هذا الخزى علينا ؟ لم جئت هنـا ؟ » .

وظلت بنودينى صامتة وقد تملكها الخجل والغضب ، واستطردت المرأة تقول « انظرى الى يا بنيتى . انك لا تستطيعين البقاء هنا الآن ، لقد كان من سوء حظى أننى فقدت كل قريب لى تقريبا ، وبالرغم من ذلك قد تمكنت من التغلب على كل مصائبى ، ولكن هذا النوع من العار — لا ، لا يمكننى تحمله ، أرجوك أن تغربى عن وجهى فى الحال » .

وقالت بنودينى : « حسنا ، سوف أرحل الآن » .

وفى تلك اللحظة وصل ماهندرا ولما يغسل وجهه الخشن ، شعره أشعث وعيناه شديدتا الحمرة من عدم النوم ووجهه لافح شاحب من عدم الأكل . كان قد قرر والوقت ما زال عند الفجر أن يقوم بآخر محاولة ليأخذ بنودينى معه ، ولكنه عندما تذكر رفضها وصدها له فى اليوم السابق

بدأت الوساوس تراوده وتردد . ولكنه حين تقدم به الصباح واقترب موعد قيام القطار ؛ خرج من استراحة المحطة طاردا كل الشكوك والمخاوف من عقله ، وركب عربة اتجه بها مباشرة الى كوخ بنوديني . وكان يشعر بعد أن قرر ما قرره بسرور فائض يشعر به الانسان حين يصل الى قرار يائس فيلقى بكل الوساوس الى الرياح ويتحدى العالم . لقد أزالت موجة شجاعته الطاغية الطائشة كل حزنه وشكوكه ، وبدا القرويون الفضوليون لعينيه المخبولتين وهم ينظرون اليه على جانبى الطريق كأنهم تماثيل صغيرة من الطين لا حياة فيها .

واتجه ماهندرا مباشرة الى بنوديني دون أن ينظر يمنة أو يسرة وقال : « بنود — اننى لست نذلا لأتركك هنا تواجهين وحدك صدمة اهانة هؤلاء الناس — يجب أن تأتى معى الآن ، ولن أقف فى طريقك اطلاقا ، أقسم بك أن رغبتك سوف تنفذ مهما كانت ، فان أشفقت على فستكون الحياة جديرة بأن أعيشها ؛ وان لم تشفقى فسوف أمحو نفسى من حياتك ، لقد ارتكبت أعمالا غادرة كثيرة ، ولكنى استحلفك أن تثقى بى اليوم . اننا نقف على حافة هاوية وليس هناك وقت للأعذار والحجج الباطلة » .

فأجابت بنوديني فى بساطة وهدوء : « يمكنك أن تأخذنى معك ، هل أحضرت عربة ؟ » .

— « نعم » .

وخرجت المرأة العجوز من حجرتها وخاطبت ماهندرا قائلة : « بالرغم من أنك لا تعرفنى يا ماهندرا فأنت لست غريبا عنى ؛ ان أمك راجلاكشمى من قريتنا ، وقد اعتادت أن تنادينى يا خالتى ، فهل لى أن أسألك ماذا تعنى بهذا السلوك ؟ ان لك زوجة وأما بالمنزل ومع ذلك تسلك هذا السلوك المشين ؛ كيف ترى وجهك للناس فى أى مجتمع نظيف ؟ » .

وشعر ماهندرا فجأة بالتضاؤل واتضح له لأول مرة أن له أما وزوجة وأن هناك شيئا يسمى مجتمعا نظيفا ، لقد جاء وقت بدا له فيه أن من الأمور التى لا يمكن التفكير فيها أن يستمع فى يوم من الأيام الى مثل هذه الكلمات على باب كوخ مجهول فى قرية نائية ؛ وأنه سيضيف الى تاريخ حياته حدثا شائنا — اغراء أرملة شابة محترمة على الهرب معه فى وضح النهار وتحت بصر القرية ، ومع ذلك فقد حدث كل هذا بالرغم من زوجته وأمه وحقوق المجتمع النظيف !

وعندما رأت السيدة العجوز ماهندرا وقد وقف لا يحير جوابا وتسمرت قدماه فى الأرض قالت فى صوت أشبه بالفحيح : « ان كان ولابد أن تذهب » فاذهب مباشرة ولا تتلكأ بالقرب من بابى ، اذهب فى الحال » .

ثم أغلقت الباب فى وجهه ودربسته من الداخل . وصعدت بنودينى الى العربة ولم تكن قد غسلت وجهها بعد ولا غيرت ملابسها وكانت خاوية الوفاض خاوية المعدة — وبينما كان ماهندرا على وشك أن يتبعها قالت : « لا — ان المحطة ليست بعيدة ، فأرجو أن تتبعنى على قدميك » .

واحتج ماهندرا قائلا : « ولكن ذلك سوف يعرضنى دون ضرورة الى نظرات القرية » .

— « اذن فما زال عندك بقية قليلة من الخجل ! » .

ثم أغلقت باب العربة وأمرت السائق بالاتجاه الى المحطة .

وسأل السائق : « والسيد ؟ أفلا يركب ؟ » .

وتردد ماهندرا ولكن كانت تنقصه الشجاعة ليركب ، وسارت العربة بها . أما ماهندرا فقد اتخذ طريقه خلال الحقول ، وسعى نحو المحطة ورأسه منكس حتى يتجنب الطريق الرئيسى .

وكانت زوجات القرية الشابات قد انتهين من حمامهن وغذائهن ،

وقليلات من ربات البيوت كن ما زلن متجهات الى صهريج القرية المنعزل المهدب بأشجار زهر المانغو للاستحمام .

٣٨

أصاب راچلاكشمى ذهول من رحيل ماهندرا الفجائى فلم تستطع أن تأكل أو أن تنام ، وبينما كان سادهوشاران ينقب فى كل الأماكن المحتملة وغير المحتملة بحثا عنه ، رجع ماهندرا الى كلكتا مع بنودينى ، ثم تركها فى مسكن استأجره لها فى باتالدانجا واتجه الى بيته ليلا . وعندما دخل حجرة أمه لاحظ أن الحجرة يخيم عليها الظلام فيما عدا ضوء معتم يصدر من مصباح خلف ستار . كانت راچلاكشمى راقدة فى الفراش كشخص مريض وآشا جالسة بالقرب من قدميها تحكهما برقة ؛ فقد اكتسبت زوجة الابن بعد وقت طويل شرف الجلوس بالقرب من قدمى حماتها .

وجفلت آشا عند دخول ماهندرا ونهضت ثم غادرت الحجرة . وجمع ماهندرا كل شجاعته وقال : « اننى أجد الدراسة فى البيت عسيرة يا أماه ، ولذا فقد استأجرت مسكنا بالقرب من الكلية حيث أنوى أن أقيم » .

فأشارت راچلاكشمى الى طرف السرير وقالت : « اجلس يا ماهن » .

وجلس ماهندرا وهو يشعر بالارتباك ؛ واستمرت راچلاكشمى تقول : « يمكنك أن تقيم حيث تحب يا ماهن ، ولكنى أرجوك ألا تضع زوجة ابنى على المخلعة » (*) .

وصمت ماهندرا واستطردت راچلاكشمى تقول : « من سوء حظى أننى فشلت فى معرفة قدر هذه الزوجة التى تستحق الاعجاب » ، ثم صار صوتها أجشا من تأثير العاطفة وقالت : « ولكن كيف تستطيع أنت الذى

(*) أداة للتعذيب كانت تستخدم قديما .

عرفتها وأحببتها هذا الحب أن تعرضها فى النهاية الى مثل هذا الحزن ؟ » .

وأخذت راچلاكشمى تبكى وهى لا تستطيع أن تسيطر على دموعها وتمنى ماهندرا لو استطاع أن ينهض ويخرج ، ولكنه وجد من العسير أن ينهى الموقف بهذه السرعة فاستمر صامتا لا يتحرك وهو يجلس عند طرف فراش أمه ، وبعد فترة طويلة سألته راچلاكشمى :

« انك ستمضى الليلة فى البيت — أليس كذلك ؟ » .

فتمتم ماهندرا : « لا » .

— « متى تذهب ؟ » .

— « الآن » .

— « الآن ؟ » وكررت راچلاكشمى وهى تحاول متألمة أن تجلس فى فراشها : « ألا تعتزم أن تتحدث مع زوجتك برهة ؟ » .

وبقى ماهندرا صامتا وتابعت راچلاكشمى كلامها :

« ألا تستطيع أن تفهم الجحيم الذى مرت به زوجتك أثناء هــذه الأيام القليلة الماضية ؟ أيها الولد عديم الحياء ، ان نذالتك تحطم قلبى ! » .

ثم هبطت على وسادتها كفرع سقط من شجرة .

وخرج ماهندرا من الحجرة وانسل صاعدا السلم فى بطء وهدوء الى حجرة نومه محاولا تجنب آشا ، وما أن وصل الى الدور العلوى حتى رأى آشا ملقاة على الأرض فى الشرفة المغطاة المواجهة لحجرته ، ولم تسمع وقع أقدامه فى أول الأمر ولكنها عندما رأته وجها لوجه جلست مسرعة وجذبت ساريها حولها . ولو كان ماهندرا قد نادى « تشونى ! » لكانت قد أسرعت اليه وألقت بنفسها عند قدميه كما لو كانت مذنبة تطلب العفو ، ولكانت قد بكت من قلبها وهى تتحمل كل هذا اللوم ، ولكن ماهندرا عجز عن أن ينطق بالاسم العزيز . كان يتمنى أن ينطق به ولكنه كان كلما ناضل

وحاول صار النطق به آكثر ايلاما ، وبدا له أن أية ايماءة تدل على الحب من جانبه سوف تكون سخرية لاذعة بآشا . ثم ما هى الراحة التى يمكنه أن يعطيها لها بكلمات حلوة خاوية بعد أن كان قد صفق الباب بيديه بشدة فقضى على كل احتمال من احتمالات نبذ بنودينى .

وجلست آشا متحجرة من الخجل والارتباك . لم تستطع أن تقف أو تذهب بعيدا أو تأتى بأية حركة ، ولم يقل ماهندرا كلمة واحدة وأخذ يسير جيئة وذهابا فى الشرفة . ولم يكن القمر قد ظهر بعد ، وكان فى ركن من أركان الشرفة أصيص للزهور به بعض نبات التاباريز فرعان منه مزدهران ، وفى السماء التى احتجب عنها القمر كان الدب الأكبر والأريون يتلألآن — ونفس الأجرام السماوية التى طالما شاهدت وهى صامتة مسرحية حبهما أثناء خلوتهما فى الشرفة فى أمسيات عديدة وقد تطلعت هذه الأجرام اليهما فى هذه الليلة كذلك ترقبهما بهدوء كما كانت ترقبهما من قبل .

وتمنى ماهندرا لو استطاع أن يزيل باسفنج الظلام الأسود المتكدس التغييرات العاصفية التى حدثت فى الأيام القليلة الماضية وأن يستعيد بساطة الأيام الغابرة وسهولتها فيجلس مرة ثانية بجوار آشا على حصيرة نشرت فى الشرفة المفتوحة : لا أسئلة ولا تفسيرات تعرض ، نفس الثقة القديمة والحب القديم والفرح القديم . ولكن وآسفاه ! لم يكن هنالك طريق قد ترك مفتوحا للعودة الى القديم ، لقد خسر حقه فى أن يشارك آشا الحصيرة . وكانت لعلاقته ببنودينى حتى الآن بعض مرونة الحرية — كان هنالك فرح الحب المجنون دون عبوديته التى تمحى ، أما الآن بعد أن اجتذب بنودينى بيديه من مكانها فى المجتمع ، لم يعد هنالك مكان تذهب اليه ولا مكان فى المجتمع يمكن أن تعود اليه . لقد أصبح الآن ملاذها

الوحيد ، وعليه أن يتحمل عبئها الكامل سواء أحب ذلك أم لم يحبه . وتلوى داخل نفسه عندما تبين له ما هو مقبل عليه ، فهذا العش العائلى الصغير على الشرفة ، هذا السلام الذى يتأتى من الود الزوجى فى عزلة الليل الهادئة — كل هذا بدا له فجأة حلو شديد الحلاوة ، ولكن هـذه السعادة السهلة التى كانت ملكه وملكه وحده بما له من حق مقرر قد تراجعت عنه الآن حتى أصبحت بعيدة عن مناله ، ولن تكون له بعد الآن فترة راحة من الحمل الثقيل الذى فرضه على كتفيه طول الحياة .

وبعد أن زفر تنهيدة عميقة نظر الى آشا . كانت جالسة لا تتحرك وقد تجمد الدم فى قلبها من أثر دموعها المتجمدة ، وغلف ظلام الليـل خجلها وحزنها كما يفعل سارى الأم السيب فوق طفلها . وتوقف ماهندرا فجأة وقد حطم نوبة القلق التى تساوره ووقف أمام آشا كما لو كان يريد أن يقول شيئا ، وبدا لها كأن كل الدم الذى فى عروقها على وشك أن يندفع الى رأسها وهو ينبض بقوة عند أذنيها ، فأغمضت عينيها . ولكن ماهندرا وقف هناك متجمدا لا يعرف ما كان ينوى أن يقوله ، وماذا كان هناك فعلا ليقال ! ومع ذلك فلم يستطع أن يتقهقر دون أن يقول شيئا ، فتمتم « أين المفاتيح ؟ » .

كانت حلقة المفاتيح تحت حشية السرير . ونهضت آشا ودخلت الحجرة وماهندرا يتبعها . فأخذت المفاتيح ووضعتها فوق السرير فالتقطها وبدأ يجربها مفتاحا مفتاحا فى الصوان الذى يحوى ملابسه ؛ فلما عيل صبرها همست « ان المفتاح الذى تريده لم يكن معى » .

ولم تستطع أن تقول مع من كان ، ولكن ماهندرا فهم . وتركت آشا الحجرة مسرعة وهى تخشى أن تنهار أمامه وأخفت نفسها فى ظل حائط فى طرف بعيد من الشرفة ووجهها الى الحائط ، ووقفت هناك صامتة تذرف

الدمع فى سكون واستطاعت بكل ما لديها من قوة أن تسيطر على موجة النشيج المتزايدة ، ولكن ذلك لم يدم طويلا لأنها تذكرت فجأة أن موعد غذاء ماهندرا قد حان ، فأسرعت تنزل السلم .

وسألتها راچلاكشمى عندما رأتها : « أين ماهن يا زوجة ابنى ؟ » .

— « فى الدور العلوى » .

— « لماذا نزلت اذن ؟ » .

— « غذاؤه » ..

— « سوف أهتم بذلك يا زوجة ابنى ، أما أنت فأرجو أن تذهبى وتغسلى وجهك وتغيرى ملابسك ، ارتدى السارى الجديد وانزلى وسوف أصفف شعرك » .

كان من المستحيل عليها أن تتجاهل أمر حماتها المتسم بالحب والحنان ، ولو أن فكرة التزين فى تلك اللحظة ملأتها خجلا ، وكما رحب بهيشما (*) بالموت عندما قدم نفسه للسهام المنهمرة نحوه كذلك خضعت آشا صابرة لاختبار التزين المفرط الذى وصفته لها راچلاكشمى .

وبعد أن اتخذت آشا زينتها فى بطء وهدوء ، صعدت ونظرت الى الشرفة . لم يكن ماهندرا هناك . فانسلت الى باب الحجرة ولكنه لم يكن هناك أيضا . وأعدت المائدة وبقى الطعام دون أن يمس .

كان ماهندرا قد فتح باب الصوان عنوة وجمع ملابسه الضرورية القليلة وكتبه الطبية وغادر البيت .

* * *

كان اليوم التالى يوم الصوم (ايكاداشى) . وكانت راچلاكشمى ترقد فى الفراش مريضة متألمة ، أما فى الخارج فكانت السحب قد تجمعت تنذر بعاصفة رعدية . ودخلت آشا الحجرة على أطراف أصابع قدميها وجلست

(*) البطل المبجل فى كتاب المهاباراتا .

بهدوء عند أسفل فراش راچلاكشمى وقالت وهى تحك قدميها « لقد أحضرت لك لبنا وفاكهة (*) يا أماه ، فأرجو أن تنهضى وتأكلى » .

وغمر عينى راچلاكشمى الجافتين سيل من الدموع وقد تأثرت من هذا العطف الذى لم تعتده من زوجة ابنها التى طغا عليها الحزن . فجلست فى الفراش وجذبت آشا بين ذراعيها وقبلت وجنتيها اللتين غمرتهما الدموع .

وسألتها : « ماذا يفعل ماهن يا زوجة ابنى ؟ » .

فتمتمت آشا وقد تغلب عليها الخجل : « لقد ذهب » .

— « متى رحل ؟ لم أعرف أنه قد رحل » .

فأجابت آشا ورأسها منحن : « الليلة الماضية » .

وتجمد عنق راچلاكشمى عند سماعها هذه الكلمات ، وتقلصت يداها اللتان كانتا تحتضنان آشا كما لو كانتا قد خلتا من كل عاطفة ، وأحست آشا بالتقريع الصامت فتركت الحجرة ببطء ورأسها منكس على صدرها .

٣٩

عندما ترك ماهندرا بنودينى فى أول يوم وصلا فيه الى كلكتا فى مسكنه فى پاتالدانجا وذهب الى بيته ليحضر ملابسه وكتبه ، جلست بنودينى تفكر فى حظها غير متنبهة الى ضجيج حياة المدينة وجلجلتها فى الخارج . لقد كانت حياتها حتى الآن تسير دائما فى محيط ضيق ، ولكن كانت أمامها جانب آخر تتجه اليه اذا ضاق بها الجانب الأول أما الآن فحتى هذا المحيط على ضيقه قد انكمش كثيرا ، والقارب الصغير الذى كانت تطفو فيه فوق التيار قد اختل توازنه وأصبحت أقل هزة كافية لأن تقلبه وتلقى بها فى المياه ، ومن ثم فقد وجب عليها أن تكون حذرة متيقظة وهى تمسك بدفة القارب

(*) يسمح للمرضى بشرب اللبن وأكل الفاكهة فى هذا اليوم .

وألا تخاطر اطلاقا ، وأى امرأة لا يرتجف قلبها لهذا الذى تتوقعه ؟ وأى مجال قد ترك للعبة الحب الحرة وحرية المرأة الضرورية حتى تستطيع أن تحتفظ بقبضتها على قلب الرجل ؟ لم يعد أمامها طريق آخر الآن سوى مستقبل حزين تعيش فيه سجينة مع ماهندرا ، هى تحدق فيه وهو يحدق فيها مع وجود هذا الفارق وهو أنه يستطيع أن يهرب أما هى فلا .

وكانت كلما ازدادت تحققا من عجز موقفها بدا أنها تستعيد قوة عقلها وبدا لها أنه يجب أن تجد لنفسها مخرجا . أما الاستمرار هكذا فمستحيل

لقد انهارت حصون دفاعها عن ملكيتها لنفسها فى اليوم الذى اعترفت فيه لبيهارى بحبها ، وكانت القبلة التى قدمتها له دون أن يطلبها ما زالت تثقل كاهلها ، ولم تستطع أن ترفع حملها عن نفسها كأنها هدية قصدت بها الآلهة ولا يمكن أن تقدمها بعد ذلك لأى شخص فوق الأرض . لقد كانت بنودينى بطبيعتها نشطة مستثرة لم تهجر دفة السفينة تحت أى ظرف من الظروف ، فاستمرت تكرر لنفسها : « يجب على بيهارى أن يقبل ما أعرضه بل انه سيقبله ! » .

وجذبتها حاجتها الملحة الى الحب والحماية الى بيهارى الذى بدا ملجأها الوحيد . كانت تعرف ماهندرا جيدا فقد كان ضعيفا لا يمكن الاعتماد عليه ، يجرى وراءك اذا ابتعدت عنه ولكنه يجرى منك اذا حاولت أن تمسكه ، ان الكتف التى يمكن للمرأة أن تستند اليها يجب أن تكون قوية حازمة يمكن الاعتماد عليها ، ومثل هذه الكتف كانت كتف بيهارى ، فلا يمكن اذن أن تستغنى بنودينى عن بيهارى تحت أى ظرف من الظروف .

وفى اليوم الذى غادرت فيه القرية جعلت ماهندرا يذهب الى مكتب البريد المجاور لمحطة السكة الحديد ويترك تعليمات واضحة بأن تحول خطاباتها الى عنوانها الجديد فى كلكتا ، فقد رفضت أن تصدق أن بيهارى

سوف يتجاهل خطاباتها تجاهلا تاما . وقالت لنفسها : « سوف أنتظر خطابه سبعة أيام ، وسوف نرى بعد ذلك » .

وبعد أن قالت ذلك فتحت نافذة الحجرة المظلمة وبدأت وهى شاردة الذهن تنظر الى الشارع الذى تضيئه مصابيح الغاز ، لابد أن يكون بيهارى فى لحظة الشفق هذه فى مكان ما فى المدينة ، وما عليها الا أن تعبر بضعة شوارع لتصل الى باب بيته ، ثم تعبر الفناء الصغير الذى فيه صنبور الماء ثم تصعد السلم الى حجرته التى تعرفها جيدا ، تلك الحجرة النظيفة الأنيقة الهادئة حسنة الاضاءة حيث يجلس بيهارى فى مقعده وحيدا فى سكون المساء الهادىء ! وقد يكون هناك كذلك الولد البراهمى الصغير بوجهه الجميل الرقيق المستدير وعينيه الواسعتين البريئتين يقلب صفحات كتاب مصور . وأخذت تتلكأ على هذا المنظر بعين عقلها وأخذت أطرافها تتألم من نشوة الرقة والحنان ، وبعد أن احتضنت هذه الفكرة ، فكرة الذهاب هناك فورا اذا شاءت بدأت تلعب بها . لقد كانت تذهب على الفور فى الأيام الغابرة سعيا وراء ما تريد ، أما الآن فهناك أشياء كثيرة يجب أن تفكر فيها ، فالمسألة لم تعد رغبة يجب اشباعها ، بل هدفا يجب تحقيقه . وقالت لنفسها : « دعنى أرى الاجابة التى سوف يرسلها ، وعندئذ سوف أقرر أى طريق أتخذ » فلم تعد تجرؤ على أن تقحم نفسها على بيهارى دون أن تتأكد أولا من صلابة الأرض التى تحتها .

وهكذا جلست تفكر حتى اقتربت الساعة من العاشرة مساء حين عاد ماهندرا متباطئا الى المسكن . كان قد تحمل الاجهاد وعدم النوم فى الأيام القليلة الماضية من أثر أعصابه المضطربة ، فلما حقق هدفه وأحضر بنودينى معه كان التعب والاعياء قد غلبه ، ولم تعد لديه القوة لمتابعة القتال ضد

نفسه وضد المجتمع وأحس بأن عبء مسئوليات المستقبل الثقيلة قد بدأ يحطم ظهره .

لقد وقف الآن خارج الباب المغلق وهو يشعر بالخجل حتى أنه لم يستطع أن يطرقه ، وبدأ الجنون الذى مكنه من تحدى العالم كله يضمحل وينكمش أمام نظرات المارة المجهولين فى الطريق . ثم أخذ يطرق الباب عدة مرات وينادى بصوت مرتفع حتى استيقظ الخادم الجديد الذى كان قد استغرق فى النوم ، وفتح الباب ؛ وسقط قلب ماهندرا وهو يخطو فى الممر المظلم فى هذا المسكن الذى لم يكن مألوفا لديه ، فعزيز أمه المدلل كان قد ألف طوال حياته فى منزله سلسلة طويلة من وسائل الرفاهية واعتاد الرياش الثمين والمراوح وما الى ذلك كله ، ومن ثم فقد بدا له افتقاد هذه الأشياء فى مسكنه الجديد أكثر كآبة فى الضوء المعتم وأصبح عليه الآن أن يعيد تأثيث المسكن ويتحمل المسئولية الكاملة لادارته ، وهو الذى لم يعتد من قبل أن يهتم بنفسه أو بغيره . نعم فقد أصبح عليه من الآن أن يهتم بكل التفاصيل المزعجة لمسكن جديد غير مهيأ ؛ كذلك مصباح الكيروسين الرث الموجود عند منبسط السلم ؛ الذى يخرج دخانا أكثر مما يخرج ضوءا ، يجب أن يستبدل بمصباح رقيق ، وأرضية الدهليز المؤدى الى السلم كانت هى الأخرى فى حالة سيئة بسبب انهيار المياه من الصنبور وكانت فى حاجة الى الاصلاح ولذلك وجبت دعوة البناء . وكذلك الاسكافى لم يخل الحجرتين المطلتين على الشارع — ومن الضرورى أن يتفق فى كل ذلك مع صاحب البيت — أما أنه سوف يواجه كل هذه المشكلات بنفسه فقد كاد يودى به الى الجنون .

وتوقف على منبسط الدرج ليستعيد رباطة جأشه ، وحاول أن يطرد جنون ولهه ببنوديني ؛ وتذكر أن هذا هو يوم فرحه الأعظم وأنه قد حقق



الأمنية التى تحدى العالم كله من أجلها ، وأن بنودينى أصبحت الآن له ، لا يقف حائل بينه وبينها . غير أن عدم وجود هذا الحائل نفسه تحول الآن الى حائل ، وأصبحت نفسه أسوأ عقبة تعترض طريقه .

وكانت بنودينى قد لاحظت وصول ماهندرا من نافذتها ، فنهضت بعد أن طردت عنها ما كانت مستغرقة فى التفكير فيه وأضاءت مصباحا وجلست بجانبه وأحنت رأسها فوق قطعة قماش تحيطها فى حجرها — كما لو كانت تحمى نفسها بستار ، ودخل ماهندرا الحجرة وقال : « أخشى يا بنود — ألا تكونى مستريحة هنا » .

فأجابته بنودينى وهى مشغولة بما تحيك : « أبدا » .

— « سوف أحصل على الأثاث الضرورى والأدوات المنزلية فى مدى يومين ، وعليك أن تتحملى بعض المضايقة حتى أحصل عليها » .

— « هراء ، لن تقوم بشىء من هذا ، بل هناك ما يزيد على الحاجة » .

— « وهل هذا الانسان اليائس الماثل أمامك جزء مما هو زائد على الحاجة ؟ » .

— « لا شك أنك تستطيع أن تستغنى عن بعض غرورك ، فشىء من التواضع لن يضرك » .

أحيا منظر بنودينى الرصينة وهى منحنية على عملها فى الحجرة المضاءة الموحشة حرارة رغبته ، ولو كانا فى البيت القديم لكان قد ألقى بنفسه عند قدميها ، ولكن منعه من ذلك الآن شعوره بالموقف الجديد وبأن بنودينى تحت رحمته الآن ، ومن الجبن أن ينتهز فرصة عجزها .

وسألته بنودينى : « لمَ أحضرت ملابسك وكتبك ؟ » .

— « لأنى أريدها — انها ليست جزءا مما هو زائد على الحاجة » .

— « انى أعرف ذلك ، ولكن لماذا أحضرتها هنا ؟ » .

فقال ماهندرا : « انك على حق ، فهذه الضروريات المألوفة لا مكان لها هنا ، ارميها من النافذة يا بنود ، ها هى ذى ، ولن أعترض — على شريطة ألا تلقى بى أنا كذلك من النافذة » .

ثم اقترب منها وهو ينتهز هذه الفرصة ووضع الحقيبة التى تحتوى على الكتب عند قدميها .

وقالت بنودينى بجدية دون أن ترفع وجهها من الحياكة : « لا يمكنك الاقامة هنا يا أخا زوجى » .

وانفجر ماهندرا بطريقة تدعو الى الرثاء وقد حيره هذا الصد الفجائى عما كان يتوقعه بحرارة : « لم تطعنيننى يا بنود ؟ هل هذا جزائى على تضحيتى بكل شيء من أجلك ؟ » .

فقالت بنودينى : « لن أدعك تضحى بكل شيء من أجلى » .

فصاح ماهندرا : « لم يعد هذا فى يديك ، لقد تحطم عالمى كله قطعا صغيرة حولك ، بنود ! بنود ! » .

ثم ألقى بنفسه على الأرض واحتضن قدميها بشدة وبدأ يقلبهما مرارا وتكرارا .

واستطاعت بنودينى أن تخلص نفسها منه ووقفت وهى تقول محتدة : « ماهندرا هل نسيت ما تعهدت به ؟ » .

فاسترد ماهندرا قواه بمجهود جبار وقال : « لا .. انى أذكره ، لقد أقسمت على أن أى شيء تتمنينه مجاب ، واننى لن أقف فى طريقك ، ولسوف أحترم وعدى . خبرينى . ما هى رغبتك ؟ » .

— « أن تذهب وتقيم فى بيتك » .

فصاح ماهندرا : وهل أنا موضوع نفورك الوحيد يا بنود ؟ ان كان الأمر كذلك فلم جذبتينى نحوك ؟ وفيم كنت ترمين شباكك حول

ما لا يصلح لمتعتك ؟ قولى لى بحق : هل كنت أنا الذى رميت نفسى عليك أم أنت التى أغويتينى عمدا ؟ هل قدر على أن أكون لعبة لتسليتك ؟ ومع ذلك فسوف أحافظ على كلمتى وسوف أعود وأقيم فى البيت الذى دست فيه بقدمى على مكانى الشرعى فيه فهشمته تهشيما » .

واستأنفت بنودينى جلستها على أرض الحجرة وحياكتها فى صمت ، وحدق فيها ماهندرا فترة ثم انفجر صائحا مرة ثانية :

« انك قاسية يا بنود — لا قلب لك ! ومن سوء حظى الشديد أننى أحبـك » .

وأخطأت بنودينى فى حياكتها وأمسكت بقطعة القماش تحت الضوء وبدأت بطريقة دقيقة تفك الخيط ، وتمنى ماهندرا لو استطاع أن يمسك بقلبها المتحجر بقبضته الحديدية ويحطمه تحطيما ، واشتاق الى أن يستخدم قوته ليحطم فظاظتها الصامتة وخيلاءها القاسى ويعفره فى التراب .

ثم ترك الحجرة ولكنه سرعان ما عاد يسألها : « واذا لم أقم هنـا فمن سيهتم بك ؟ » .

فأجابت بنودينى : « لا عليك من ذلك ، فلقد استغنت عمتى عن خيمى وجاءت لترانى هنا فأقمتها بالعمل عندى من اليوم ، وسوف نغلق نحن المرأتين على نفسينا البيت ، ونحن قادرتان على أن نهتم بنفسينا جيدا »

وكان كلما ازداد ماهندرا غضبا بدت بنودينى له مشتهاة لا يمكن مقاومة اغرائها . وكم تمنى ساعتها أن يحطم هذه المرأة الباردة المنيعة وهو يضمها الى صدره فى عناق شديد ! فلما أزعجه عنف رغبته خرج مسرعا من الحجرة .

وأقسم ماهندرا وهو يتجول فى الطرق على غير هدى أنه ليقابلن عدم مبالاة بنودينى بمثلها ، فلقد كان تجاسرها على أن تزدرى به بمثل هـذا

الترفع الصامت وهذا الاستعلاء الفظ فى وقت كان هو فيه ملجأها الوحيد تحقيرا لم يقاسه انسان من قبل على يدى امرأة ! لقد أبت كبرياؤه بالرغم من أنها قد تكسرت وتحطمت أن تموت ، واستمرت تتلوى فى التراب . وسأل نفسه : أأنا حقا لا قيمة لى هكذا ؟ كيف تجرؤ على أن تعاملنى كشخص حقير فى حين ليس لها سواى ! » .

وفيما كان الغيظ يأكله تذكر بيهارى فجأة ، فوقف الدم فى عروقه كما لو كان قد تجمد . اذن فهو بيهارى الذى تعتمد عليه — وما أنا الا مجرد أداة ، مجرد سلم تضع قدميها عليه ثم تركلنى ! لا عجب اذن انها تحتقرنى . وشك فى أنها على اتصال ببيهارى وأنها قد تسلمت وعدا منـــه .

وهكذا أدار عقبيه صوب بيت بيهارى ، وكان الليل قد امتد شوطا كبيرا عندما وصل الى البيت وطرق الباب ، وبعد طرق طويل فتح الخادم الباب وقال : « سيدى ليس بالبيت » .

وجفل ماهندرا وقال لنفسه : « اننى أتجول فى الطريق كالأحمق ، ولابد أن بيهارى مع بنودينى الآن منتهزا فرصة غيابى ، ولهذا لفظتنى وطردتنى من البيت فى غلظة فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وأنا أيضا كجحش ركل جئت هنا أركض » .

وسأل الخادم الذى كان يعرفه منذ وقت طويل : « بهاجو ، متى خرج السيد ؟ » .

— « منذ أربعـة أيام أو خمسة يا سيدى ، لقد ذهب فى رحـلة الى الغرب » (*) .

وتنفس ماهندرا الصعداء ، فلم يكن هناك اذن أى خوف وفى مكنته

(*) يشير البنغاليون الى شمال الهند كله غرب بنغال على انه الغرب .

أن ينام قليلا ، وكان من الاعياء بحيث لم يستطع أن يسير أكثر من ذلك فصعد الى حجرة بيهارى ورقد على أريكة وسرعان ما نام .

كان بيهارى قد غادر «كلكتا» فى اليوم التالى مباشرة على غزو ماهندرا لبيته فجأة وتسبب فى ذلك الموقف المؤلم ، واتجه الى الغرب لا يعرف الى أين يذهب ، اذ كان يخشى أن يستثير بقاؤه المستمر فى كلكتا صديقه القديم ويدفعه الى مواقف أكثر ايلاما تترك فى أعقابها أسى يبقى مدى الحياة .

كانت الساعة الحادية عشرة عندما استيقظ ماهنـــدرا من نومه فى الصباح التالى . وما أن نهض حتى وقعت عينه على مظروف معنون باسم بيهارى وقد كتب العنوان بخط يد بنودينى ، وكان الخطاب تحت حجر ثقيل على مائدة الشاى أمامه ، فاختطف المظروف وحدق فيه فوجد أن الخطاب لم يفتح بعد وأنه كان ينتظر رجوع بيهارى . وفض الخطـــاب بأصابع مرتجفة وقرأه . كان الخطاب الذى أرسلته بنودينى من قريتها ولم تحصل على رد عليه .

كانت كل كلمة فى الخطاب وخزة فى لحمه ، ولقد اعتاد ماهندرا منذ طفولته أن يحجب بيهارى وأن يحتكر نصيب الأسد من حب الآخرين واشتياقهم ، فلا يترك لبيهارى الا البقايا الآسنة ، ومع ذلك فان بنودينى اليوم تفتتن بهذا البيهارى الفظ بالرغم من عدم اكتراثه وتعرض عن ماهندرا الذى كان يسترضيها ويتضرع اليها ، لقد تسلم هو أيضا خطابات من بنودينى ، ولكنها اذا قورنت بهذه الخطابات ليست الا زيفا ؛ مجرد طعم تخدع به أحمق ، وتذكر رغبة بنودينى الشديدة فى أن تسجل عنـــوانها الجديد فى مكتب بريد القرية قبل الرحيل عنها وفهم السبب فى ذلك ، فقد كانت لا تزال تنتظر رد بيهارى بشغف عاطفى .

وكان الخادم مدربا تدريبا حسنا فأحضر لماهندرا — حتى فى غياب

سيده — الشاى وبعض المرطبات من حانوت حلوى قريب ، ونسى ماهندرا أن يستحم واستمر يتصفح خطاب بنودينى وهو يتلوى ألما من كلماته النارية المثيرة للعاطفة كقدمى رحـالة تثبت على رمال حارة ، وأقسم ألا يرى بنودينى بعد ذلك اطلاقا ، ولكنه سرعان ما أدرك أن بنودينى سوف تنتظر يوما أو يومين ثم تأتى بلا شك الى بيت بيهارى لتتبين بنفسها السبب فى عدم الرد على خطابها ، حتى اذا تبينت الحقيقة انزاح عنها عبء ثقيل ، الأمر الذى يحز فى نفس ماهندرا ويملأ قلبه حقدا وأسى .

ومن ثم فقد وضع الخطاب فى جيبه وتوجه الى مسكنه فى باتالدانجا قبيل الغروب ، وشعرت بنودينى بوخز الشفقة عندما رأت مظهره الشاحب وظنت أنه ربما قد أمضى الليلة يجوب الشوارع دون أن ينام .

فسألته : « ألم تذهب الى بيتك ليلة أمس ؟ » .

فأجاب ماهندرا : « لا » .

فصاحت بنودينى وقد ذعرت ذعرا شديدا : « اذن فأنت لم تتناول طعاما طول اليوم » . ونهضت مشفقة جزعة كعادتها لتعد وجبة لماهندرا الذى قال : « أرجوك ألا تهتمى ، فلقد تناولت طعامى » .

— « أين ؟ » .

— « فى بيت بيهارى » .

وشحب لون بنودينى ووقفت بكماء للحظة ثم استعادت رباطة جأشها وقالت : « أرجو أن يكون بيهارى أخو زوجى بخير » .

فأجاب ماهندرا فى نغمة تتضمن أن بيهارى قد سافر فى نفس اليوم .

— « نعم ، انه بخير وقد رحل الى الغرب » .

وشحب وجهها مرة أخرى ولكنها استطاعت أن تستعيد رباطة جأشها

وقالت : « لم أرى فى حياتى شخصا غير مستقر مثله ، أظنه يعرف كل شىء عنا . أهو غاضب من ذلك ؟ » .

— « ولم اذن يذهب انسان الى الغرب فى مثل هذه الحرارة الشديدة ؟ لا أظنه يذهب للمتعة » .

— « وهل قال شيئا عنى ؟ » .

— « وماذا هناك ليقوله ، ها هو ذا الخطاب ! » .

ثم ناولها الخطاب وعيناه مثبتتان على وجهها ، وأخـذت بنودينى الخطاب بشغف ولكنها وجدت أن المظروف قد فتح وأنه معنون لبيهارى بخط يدها ، فأخرجت الخطاب من المظروف فوجدت نفس الخطاب الذى أرسلته ، وأخذت تقلبه ولكنها لم تكشف أية رسالة من بيهارى تدل على تسلمه الخطاب . واستمرت صامتة فترة ثم سألته « وهل قرأت الخطاب » فكذب ماهندرا وقد أرعبه التعبير على وجهها وقال : « لا » .

فمزقت بنودينى الخطاب اربا ورمت قطعه الصغيرة من النافذة وقال ماهندرا : « سأذهب الى البيت » .

فلم تحر بنودينى جوابا .

واستمر ماهندرا يقول : « سأعمل كما تودين ؛ سأبقى فى البيت السبعة الأيام المقبلة وأحضر اليك هنا مرة كل يوم فى طريقى الى الكلية كى أطمئن الى أن خيمى لا تواجه صعوبة فى ادارة أعمال البيت ؛ ولن أقحم نفسى عليك ، بل سوف أعفيك من مشقة رؤيتى » .

ولم تجب بنودينى واستمرت تحدق خلال النافذة الى السماء القاتمة ، بل كان هناك شك حتى فى أنها سمعت ما قاله ماهندرا ؛ وجمع ماهندرا حاجاته وغادر المسكن ، وجلست بنودينى وقد تسمرت فى مقعدها فترة طويلة لا تتحرك ، ثم مزقت قميصها كما لو كانت تستعيد حساسيتها وبدأت

تضرب صدرها . واندفعت خيمى الى الحجرة عند سماعها الأصوات وهى تصرخ « ماذا تفعلين يا سيدتى ؟ » .

فصرخت بنودينى فى صوت كالرعد وهى تقفز ناهضة « اخرجى من هنا ! » ثم دفعتها من الحجرة وصفقت الباب ودربسته ثم ألقت بنفسها على أرض الحجرة وبدأت تتقلب على الأرض ويداها مقبضتان وهى تئن أنينا يثير الشفقة والرثاء كحيوان جرح جرحا مميتا ، ثم رقدت على أرض الحجرة بعد أن أنهكها الاعياء كما لو كانت فى اغماءة الليل بأكمله تحت النافذة المفتوحة .

وفى الصباح الباكر عندما تسللت أشعة الشمس الأولى الى الحجرة راودها الشك فجأة فى أن بيهارى ربما لم يكن قد غادر كلكتا اطلاقا وأن ماهندرا قد كذب عليها ليبعدها عنه ، وفى الحال نادت خيمى وقالت لها : « أرجـوك يا خيمى أن تذهبى فى الحال الى بيت بيهارى أخى زوجى وتتأكدى من أن كل شىء على ما يرام » .

ورجعت خيمى بعد حوالى نصف الساعة لتقول : « ان البيت كله مغلق والنوافذ كلها موصدة . وعندما طرقت الباب صاح خادم من الداخل يقول ان السيد غير موجود وانه قد ذهب فى رحلة الى الغرب » .

لم يكن هناك اذن مجال للشك فى عقل بنودينى .

٤٠

شعرت راجلاكشمى بالضيق من آشا عندما سمعت أن ماهندرا غادر المنزل فى نفس الليلة التى عاد فيها ، وشكت فى أن تأنيب آشا له هو الذى دفعه الى مغـادرة البيت فسألتها : « لم خرج ماهنـــدرا الليلة الماضية ؟ » .

فأجابت آشا ورأسها مدلاة : « لا أعرف يا أماه » . ورأت راچلاكشمى في هذا الكلام تبرما فزاد غضبها وسألتها حانقة : « من يعرف اذن اذا كنت لا تعرفين ؟ هل قلت له شيئا ؟ » .

— « لا » .

ولم يكن من السهل على راچلاكشمى أن تصدق ذلك فعادت تسألها : « وفى أى وقت رحل ماهن الليلة الماضية ؟ » .

فأجابت آشا وهى تنكمش من الخوف : « لا أعرف » .

فاستشاطت راچلاكشمى غضبا وقالت : « لا تعرفين شيئا ، أليس كذلك ؟ طفلة بريئة حقا ! تفاهة وهذر ! » .

ثم أخذت تقول لآشا فى غير مداراة ان ماهندرا غادر البيت بسبب أساليبها الحمقاء وطبيعتها الخاطئة ، وأصغت آشا الى هذا الخطاب المقذع ورأسها منكس ثم خرجت وبكت فى حجرتها . قالت لنفسها وهى تنتحب « لا ، لست أعرف لم أحبنى زوجى ذات مرة ، ولست أعرف الآن كيف أستعيد حبه » . فان من السهل أن ترضى العاشق لأن القلب يدل على الطريق ، أما استرجاع قلب عاشق قد هجر فهو من لا تعرف آشا عنه شيئا . ثم أنى لها أن تقوم بهذه المحاولة المخجلة الممقوتة ، فتستجدى محبة من كان يحب امرأة أخرى ؟

وجاء منجم الأسرة وأخته فى المساء بدعوة من راچلاكشمى ليمنعا التأثيرات الشريرة التى كانت تعمل معا ضد حياة الابن العائلية ، وطلبت راچلاكشمى من المنجم أن يرى طالع زوجة ابنها وكفها ، وأرسلت فى طلب آشا التى جاءت وهى تستشعر الألم والارتباك من بحث مأساتها الخاصة مع الغرباء ، وعندما مدت كفها مضطرة الى المنجم ليراه ، سمع وقع أقدام متلصصة فى الشرفة المظلمة خارج حجرة راچلاكشمى ، كما لو كان هناك

من يريد أن يمر دون أن يلاحظه أحـــد . وصاحت راچلاكشمى : « من هناك ؟ » ولم تأتها اجابة فى أول الأمر ولكن بعد أن كررت راچلاكشمى سؤالها ، دخل ماهندرا الحجرة دون أن يتفوه بكلمة .

ولكن كيف تستطيع آشا أن تفرح لعودة ماهندرا وقد ملأها عـــار خساسته ومنظره وهو يدخل متلصصا الى بيته بالرثاء ! وتضاعف خجلها من ذلك بسبب وجود المنجم وأخته فقد كان الألم من وجودهما أشـــد من ألم أسفها وحزنها .

وقالت راچلاكشمى : « أرجوك يا زوجة ابنى العزيزة أن تطلبى من بارفاتى أن يحضر عشاء ماهندرا » .

فأجابت آشا : « سأحضره بنفسى يا أماه » .

فقد كانت مهتمة بأن تعفى ماهندرا من خجل مواجهة نظرات الخدم الفضولية .

ودخل ماهندرا بغضب صامت عند رؤية المنجم وأخته فى حجرة أمه ، فقد كان مما لم يستطع احتماله أن يرى أمه وزوجته تتآمران بلا خجل مع دجالين أميين جاهلين وأن تلجأ الى الشعوذة لتؤثرا فيه ، ولذلك فعندما خاطبته أخت المنجم بصوت يقطر عسلا وقالت له : « كيف حالك يا بنى ؟ » لم يعد يستطيع أن يحتمل أكثر من ذلك فقال لأمه دون أن يهتم حتى بالرد على هذا السؤال المؤدب « اننى صاعد الى الدور العلوى » .

وقد سرت الأم كثيرا ووافقت مسرعة وهى تتخيل أن ابنها يبحث عن فرصة يتحدث فيها مع زوجته حديثا وديا . وجرت الى المطبخ وقالت لآشا : « أرجوك أن تصعدى مباشرة فماهندرا يريد شيئا » .

وأسرعت آشا تصعد وقلبها يدق بقلق عصبى ، فقد فهمت من كلمات حماتها أن ماهندرا قد أرسل فى طلبها ولكنها ما أن وصـــلت الى باب

الحجرة حتى وجدت نفسها غير قادرة على الدخول مفاجأة ، فتوقفت فى ظل الباب وبدأت تراقب ماهندرا .

كان مستلقيا على الأريكة ورأسه مسندة الى وسادة وهو يحدق فى شرود الى عارضات السقف الخشبية — نفس ماهندرا ، فى نفس الوضع ، ومع ذلك فكم كان مختلفا ! لقد حول هذه الحجرة الصغيرة مرة الى جنة عاشق — أما اليوم فقد بدا وجوده انتهاكا لنفس هذه الحجرة المقدسة بالذكريات السعيدة فليس من حقه أن يستلقى فوق هذه الأريكة وقلبه مفعم بالكآبة والغضب ، فاذا لم تكن همسات الحب التى لا تكاد تصل الى حد الكلمات والتى لا نهاية لها تلازمه فى استلقائه هنا فى الليالى المظلمة المليئة بالعواطف القوية ، وفى أوقات الصهيرة الساكنة المتراخية ، وفى الأيام المطيرة التى تغوى على الرغبات الشاردة ، وفى أمسيات الربيع التى تختلج بمداعبات رياح الجنوب — فبأى حق اذن يهزأ بقداسة حجـرة آشا الصغيرة هذه ؟ فان فى البيت حجرات عديدة أخرى يستطيع أن يستلقى فيهـا .

وكانت كلما ازدادت ملاحظة آشا لماهندرا من المكان الذى وقفت فيه وقد حجبها الظلام ، ازداد شعورها بأنه قد حضر لتوه من عند بنودينى ، وأن لمستها ما زالت عالقة بأطرافه ، وصورتها بعينيه ، وصوتها بأذنه ، والرغبة فيها بقلبه وهى تقلقه فكيف تمنح آشا ولاءها لهذا الماهندرا ، وكيف تقول له : « ادخل فى قلبى الذى لم يعرف أفكارا غير أفكارك ، تعال وضع قدميك على لوتس حبى ذات المائة ورقة ، البيضاء ، النقية ، غير المدنسة ! » أهى شرائع خالتها أم أساطير بوراناس أم تعاليم شاستراس ؟ لا ، فهى لم تعد تؤمن بها ولم تعد تستطيع أن تعبد الزوج الذى حقر من طهارة حياته الزوجية وتجعل له فى نفسها مكانة الاله .

لا ! انها تنبذ الآن هذا الاله الذى عبدته بحرارة ؛ وتدفع بصورته الى المياه الكدرة ، مياه وجه بنودينى المظلم ، كما يدفع نساك الهنود بصورة الالهة ديرجا الى النهر . وهكذا من أعماق بأسها انطلق عويل بوق كفرانها يملأ الليل المظلم المريض بالحب فليصلصل فى أذنيها وفى صدرها وفى رأسها وفى كل عضو وعرق فى جسمها ، وكان صداه ينتشر فى حجرتها الصغيرة على الشرفة الى النجوم فى السموات التى فوقها .

لقد بدا ماهندرا هذا ، ماهندرا بنودينى غريبا على آشا — بل أسوأ من الغريب ، فان منظر أى غريب آخر كان لا يمكن أن يملأها بمثل هذا الخجل والعار ؛ فوجدت من المستحيل عليها أن تدخل الحجرة .

وجعل ماهندرا يحدق وهو شارد الذهن فى السقف ثم شردت عينه الى الحائط المواجه له . وتتبعت آشا نظراته فلاحظت صورتها على الحائط بجانب صورة ماهندرا . وتمنت لو استطاعت أن تغطيها بجزء من ساريها ، أو تختطفها وتمزقها اربا ، واستبد بها الغضب من نفسها لأنها لم تلاحظها من قبل ولم تزلها من الحائط — فلقد أعمتها ألفتا عن قصورها ، وبدا لها كما لو كان ماهندرا يضحك سرا من صورتها ، وكما لو كانت صورة بنودينى الجالسة على منصة قلبه قد رفعت حاجبيها فى ابتسامة ساخرة هى الأخرى .

وأخيرا حول ماهندرا نظرته القلقة عن الصورة . وكانت آشا قد بدأت أخيرا تهتم بالقراءة اهتماما جديا ، وأخذت تدرس لتهذب عقلها ، واعتادت أن تهتم بدراستها وتكرس نفسها لها كل مساء بعد الانتهاء من واجباتها المنزلية والعناية بحماتها ، وكانت تستمر هكذا حتى ساعة متأخرة من الليل ، وكانت كتبها وكراساتها موضوعة بعضها فوق بعض فى أحد أركان الحجرة . وفجأة مد ماهندرا يده القلقة والتقط كراسة وبدأ يقلب

صفحاتها . وشعرت آشا بأنها تريد أن تصرخ وأن تنتزع الكراسة من يده فان عينيه الفظتين القاسيتين وهما تسخران من خطها الطفلى المعوج كان مما لا يمكن احتماله حتى انها لم تستطع أن تقف وتشاهد المنظر دقيقة واحدة أكثر من ذلك ، فعادت مسرعة تنزل السلم غير عابئة حتى بأن تخفى صوت وقع قدميها .

وأعد عشاء ماهندرا منذ وقت طويل ولكن راجلاكشمى كانت قد أجلت احضاره حتى لا تقطع الحديث الدائر بين الزوجين ، فلما رأت آشا تهبط السلم أعدت المائدة وأرسلت تدعو ماهندرا ليتناول عشاءه ، وفى اللحظة التى دخل فيها حجرة المائدة اندفعت آشا الى الحجرة التى فى الطابق العلوى وانتزعت صورتها من الحائط ومزقتها اربا ورمت بأجزائها من فوق حائط الشرفة ثم أزالت كراساتها من الحجرة .

فلما انتهى العشاء عاد ماهندرا وجلس فى حجرته ، وبحثت راجلاكشمى عن آشا ولكنها لم تستطع أن تجدها فى أى مكان ، وأخيرا وجدتها فى المطبخ فى الدور الأرضى تغلى لبنا لحماتها — ولم يكن هذا أمرا ضروريا ، فان الخادمة التى كانت تعد اللبن عادة كانت هى الأخرى جالسة بالقرب من آشا ، بل كانت فى الواقع تحتج على حماسة آشا التى لا مبرر لها والتى سببت تبرمها اذ حرمتها من نصيبها اليومى من اللبن الذى اعتادت أن تختلسه وتضع مكانه كمية مساوية من الماء .

واحتجت راجلاكشمى قائلة : « لماذا أنت هنا يا زوجة ابنى ؟ اصعدى وأرجوك أن تسرعى » .

وصعدت آشا واحتمت فى حجرة راجلاكشمى مما زاد من غيظ حماتها التى تأففت وقالت لنفسها : « بدلا من أن تستفيد الفتاة الحمقاء من الفترات الصافية التى يبتعد فيها ماهندرا عن بنودينى فانها تظهر كبرياءها المجروح

واشمئزازها وتكاد تطرد ماهندرا من البيت مرة ثانية ، والحق لولا حماقتها لما وقع ماهندرا فى قبضة بنودينى . ان الرجال دائما يميلون الى الزلل وانه لواجب الزوجات أن يستبقينهم فى الطريق القويم بوسيلة ما » ثم التفتت الى آشا وأنبتها بشدة قائلة : « ما نوع هذا السلوك يا زوجة ابنى ؟ يجب أن تشكرى حظك ان عاد زوجك الى البيت ، فلم اذن تظهرين بمظهر الحزن المتبلد وتختبئين فى الأركان ؟ » .

وشعرت آشا بالخجل من قصورها وصعدت السلم ، ثم اندفعت دون أن تسمح لنفسها بالتوقف أو التردد الى الحجرة . كانت الساعة بعد العاشرة وكان ماهندرا واقفا بالقرب من السرير ينفض التراب عن الكلة ويهزها وهو يحس بالألم والغضب فى داخله . هل كانت بنودينى تنظر اليه على أنه عبد رفيق فيستطيع أن تعيده الى آشا دون أى خوف ؟ واذا عاد فعلا الى آشا واستأنف واجباته الزوجية فأين تكون بنودينى ؟ أين تجد لها ملجأ ؟ ثم هل هو من الحقارة بحيث لا يستطيع حتى أن يرغب فى افتداء نفسه ؟ هل هذا مبلغ تقديرها النهائى له ؟ لا يستحق وهو المغشوش فى حبه ، المحقر فى تقديرها ، الا احتقارها ! وأقسم جديا وهو واقف أمام كلة السرير ليثأرن من وقاحة بنودينى وليردن لها الاهانة بالاهانة ، وذلك بأن يصالح آشا .

ولذلك فما أن دخلت آشا الحجرة حتى توقف ماهندرا عن العبث بالكلة وضعف أمام المشكلة المباشرة وهى كيف يبدأ الحديث معها ، فتصنع ابتسامة وبدرت منه أول كلمات خطرت بباله : « وهكذا أصبحت أنت كذلك تهتمين بالدراسة مثلى ! أين الكراسات التى رأيتها هنا منذ لحظة ؟ » .

ولم تكن هذه الملاحظة حمقاء وتافهة فحسب بل انها أغضبت آشا وأشعرتها بالخجل ، فقد كانت وهى الفتاة الجاهلة تحاول أن تعلم نفسها

وتعتبر ذلك سرا يعرضها للسخرية اذا افتضح أمره ، نعم لقد كان سرا يجب اخفاؤه عن كل العيون الساخرة وبخاصة عينى ماهندرا . ولذلك فعندما جعل ماهندرا هذا السر موضوع أول ملاحظة ماجنة له ، تلوت من الألم كطفل حساس ضرب بالسوط ، فلم تجب وأشاحت برأسها ووقفت مستندة الى طرف مائدة الشاى .

وأدرك ماهندرا أيضا أنه لم يحسن اختيار كلماته ولم يحسن توقيتها . وأجهد عقله كثيرا ولكنه لم يستطع أن يفكر فى كلمة تتفق وهذه المناسبة ، بل انه ما من شيء بعد هذا الاضطراب كان يمكن أن يبدو بسيطا وطبيعيا بقدر ما كان القلب نفسه شديد الصمت لا يجد تعبيرا جديدا ؛ ولكن لعل الموقف كما كان يؤمل ماهندرا يكون أيسر فى القرب الوثيق فى الفراش ، وبدأ وقد شجعه هذا الأمل ينفض التراب مرة أخرى عن الكلة ويهز طياتها المتدلية متظاهرا بطرد البعوض ولكنه كان فى الواقع يكسب وقتا يستعيد فيه ما سيقوله ويعمله كالممثل الذى يوشك أن يظهر على المسرح لأول مرة وهو يتلكأ بعصبية خلف الستائر ويكرر لنفسه ما سيقول ، وأثار انتباه ماهندرا فى تلك اللحظة صوت خفيف رقيق فلما أدار رأسه ليرى ما الأمر لم يجد آشا فى الحجرة .

٤١

قال ماهندرا لأمه فى اليوم التالى : « انى فى حاجة يا أماه الى حجرة هادئة لدراستى ، وأقترح أن أنقل الى حجرة عمتى القديمة » .

وسرت الأم وقالت فى نفسها : « معنى ذلك أنه سيقيم الآن فى البيت ، لقد صالح زوجة ابنى ، ولا عجب اذ كيف يستطيع أن يظل يتجاهل مثل هذه الجوهرة ويجرى وراء تلك الساحرة الشريرة ؟ » وأجابت على

نفسها فى الحال : « انها فكرة ممتازة يا ماهن » ثم أخرجت حلقة مفاتيحها وفتحت الحجرة وبدأت تعرضها للهواء وتنظفها ؛ ثم صاحت : « يا زوجة ابنى ، أين أنت ؟ » وبعد بحث طويل اكتشفت آشا وقد جلست فى يأس وقنوط فى أحد الأركان فقالت لها : « أرجو أن تحضرى لى غطاء نظيفا للفراش ؛ وانظرى هنا ، لا توجد منضدة فى هذه الحجرة فاحضرى واحدة ، والضوء ليس جيدا فارسلى مصباحا من الدور العلوى » وهكذا أخذت السيدتان تهتمان اهتماما كبيرا حتى حولتا كهف أنا برنا القديم الى حجرة تناسب سيد البيت . وجلس ماهندرا فى الحجرة غير مكترث بأن يظهر أقل تقدير لمحاولتهما استرضاءه على هذا النحو ، متجاهلا السيدتين معا وبدت عليه الجدية والكآبة وأشغل نفسه بكتبه وأوراقه دون أن يضيع وقتـــه .

وفى المساء جلس مرة ثانية الى منضدته بعد العشاء دون أن يعطى أية تعليمات عن المكان الذى سينام فيه ، أفى الحجرة الجديدة أم فى الحجرة القديمة . واهتمت راجلاكشمى اهتماما بالغا بلباس آشا وزينتها ، وبعد أن نجحت فى جعلها تبـــدو كدمية منمقة مجملة قالت لها : « يا زوجة ابنى العزيزة ، اذهبى واسألى ماهندرا اذا كان يريد أن يعد له سريره فى الدور العلوى » .

ورفضت قدما آشا أن تتحركا لمثل هذه المهمة ، ووقفت ساكنة بكماء ورأسها منكس فأخذت راجلاكشمى تؤنبها وتقرعها بحدة ، وأخيرا تقدمت آشا الى حجرة ماهندرا ببطء وبألم ، وتوقفت عند مدخلها لا تستطيع أن تتخطاها . وحنقت راجلاكشمى التى كانت تراقبها من الطرف الآخر للشرفة من ترددها وتحامقها وأخذت تشير اليها اشارات تعبر عن ضيق صدرها وتبرمها وتطلب منها أن تتقدم . وجرت آشا قدميها بيأس الى الحجرة جرا .

وقال ماهندرا حين سمع صوت وقع قدميها دون أن يرفع عينيه عن الكتاب « سوف أتأخر هذه الليلة ، وما دمت سأذاكر حتى الفجر فسأنام هنا » .

وقطرت آشا خجلا . هل تخيل ماهندرا أنها جاءت تلاطفه وتغويه على أن ينام فى الدور العلوى ؟

وما أن خرجت من الحجرة حتى سألتها راچلاكشمى فى نغمة مغيظة « ماذا حدث ؟ » .

فأجابت آشا : « انه مشغول وسينام هنا » ثم هربت الى غرفتها التى فاحت برائحة تحقيرها . وهكذا لم تعد لها راحة فى أى مكان ، وبدا العالم كله كصحراء تحترق وقت الظهيرة .

وفى ساعة متأخرة من الليل سمعت طرقة على الباب وصوتا يقول : « أرجوك أن تفتحى يا زوجة ابنى » .

ففتحت آشا الباب على الفور فوجدت حماتها تتنفس بألم بعد أن صعدت السلم خلال نوبة ربوية ، وما أن فتح الباب حتى دخلت وارتمت على السرير ، ثم استعادت تنفسها وقالت وهى تلهث فى صوت متكسر . « لم تغلقين على نفسك الباب هكذا يا زوجة ابنى ؟ هل هذا وقت الانهماك فى سورات الغضب ؟ هل فشل كل الألم فى أن يجعلك تتعلقين قليلا ؟ تعالى وانزلى » .

فأجابت آشا بلطف : « انه يريد أن يترك وحيدا » .

— « وماذا لو قال هذا ؟ ألأنه قال شيئا وهو غاضب تهربين وتعملين من الحبة قبة ؟ ان النكد لا نتيجة له فتعالى وأسرعى بالنزول » .

ولم تهتم الحماة وقد استبد بها الألم بمعنى الحياء أو اللياقة وكانت مستعدة لأن تستخدم أية وسيلة مهما كانت لتحتفظ بماهندرا فى البيت .

وقد سبب لها كلامها بانفعال نكسة من التنفس المؤلم ولكنها استطاعت

بمجهود عنيف وارادة قوية أن تنهض ، وساعدتها آشا فى النزول الى حجرتها دون أى احتجاج أو امتناع وأرقدتها فى سريرها ونظمت الوسائد كى تجعلها تجلس مستريحة . وقالت راچلاكشمى : يكفى هذا يازوجة ابنى ، ارسلى سود هو لتقوم بالباقى وأرجوك أن تذهبى ولا تتأخرى .

ولم تتردد آشا هذه المرة ، بل ذهبت مباشرة الى حجرة ماهندرا . كان مضطجعا فى كرسية مستغرقا فى التفكير وقد أسند رأسه الى ظهر الكرسى وقدماه على منضدة فوقها كتاب مفتوح . وأزعجه وقع الأقدام فأدار رأسه كما لو كان يتمنى أن يرى من كان يحلم بها ، فلما رأى آشا ثاب الى رشده وأنزل قدميه بسرعة من فوق المنضدة والتقط الكتاب المفتوح ووضعه على حجره .

لقد دهش ماهندرا عندما رأى آشا تدخل الحجرة بجرأة فى حين كان مجرد وجوده فيها من فترة بسيطة يملأها حيرة وارتباكا ولو أنهما تقابلا صدفة لكانت تستدير وتهرب ، ولذلك فان وجودها الآن فى حجرته فى هذه الساعة المتأخرة من الليل شىء لايمكن تصديقه . وشعر دون أن يرفع عينيه عن الكتاب أنها كانت مصممة على جذب انتباهه ولن ترجع دون ذلك . كانت واقفة أمامه ساكنة جادة ، فكان من المستحيل أن يستمر متظاهرا بالقراءة بعد ذلك . واضطر الى أن يرفع رأسه وينظر اليها. فقالت بوضوح وبحزم « لقد تحول ربو والدتك الى أسوأ مما كان ، ومن الخير أن تأتى لتراها » .

— « وأين هى ؟ »

— « فى حجرة نومها . انها لا تستطيع النوم » .

— « تعالى نذهب اليها »

وقد ساعدت هذه المحادثة القصيرة ، بعد أيام من السكون المتوتر ،

مساعدة كبيرة على أن تضيء قلب ماهندرا ، بعد أن كان ظل السكون المظلم قد وقف حائلا بين الزوج وزوجه كسور حصن منيع دون أن يكون لديه السلاح المناسب لاقتحامه ثم فجأة جاءت آشا الآن وفتحت بابا صغيرا .

ودخل ماهندرا حجرة أمه بينما انتظرت آشا خارجها ، وذعرت راچلاكشمى عندما رأت ابنها فى حجرتها فى هذه الساعة غير المناسبة ، وظنت أنه ربما قد تشاجر مع آشا مرة أخرى وجاء يخبرها بأنه سوف يرحل عن البيت . فسألته بعصبية « ألم تنم بعد ياماهن ؟ » .

فسألها ماهندرا متجاهلا سؤالها : « هل ساء ربوك يا أماه ؟ » .

ونجح الاستفسار المتأخر الذى جاء بعد هذه الأيام الطويلة فى أن يحيى كبرياء الأم المجروح ، وفهمت أنه انما جاء ليراها بناء على تقرير مزعج من آشا ، فجعل ارتداد الحب المجروح تنفسها أكثر ايلاما ، واستطاعت بصعوبة شديدة أن تنطق بهذه الكلمات « ان الأمر يسير . اذهب ونم الآن » .

— « لا ، دعينى أفحصك يا أماه ، فالأعراض لا يمكن تجاهلها » .

كان ماهندرا يعلم أن قلب أمه ضعيف ، وأزعجته العلامات المنذرة بالشر على وجهها .

وقالت الأم : « لا فائدة من فحصى ، ان المرض قد تخطى مرحلة العلاج » .

فأصر ماهن قائلا : « دعينى على الأقل أعطيك جرعة منوعة وسوف نرى غدا ما يمكن عمله » .

ولكن راچلاكشمى استطردت تقول : « لقد أخذت من العقاقير ما فيه

الكفاية حتى أصبحت لا تفيدنى ، فأرجوك أن تذهب لتنام يا ماهن ، فان الوقت متأخر جدا » .

فأجاب ماهندرا : « نعم . سوف أذهب عندما تشعرين بالتحسن » .

فنادت الأم المغيظة زوجة ابنها التى كانت تختفى وراء الباب وقالت لها : « لمَ تجرين ماهندرا هنا لتزعجيه يا زوجة ابنى ؟ » وقد أدى المجهود الذى قامت به الى جعل تنفسها أكثر ايلاما .

ودخلت آشا الحجرة وقالت لماهندرا فى صوت رقيق ولكنه حازم : « أرجوك أن تذهب لتنام ، وسوف أمكث مع والدتك » .

وجذب ماهندرا آشا جانبا وهمس « سأرسل فى طلب دواء وسوف تكون هناك جرعتان فى القارورة . أعطها جرعة فاذا لم تنم فكررى الجرعة . واذا أصابها تعب فى الليل فلا ترددى فى أن تناديني » .

وعاد الى حجرته وهو مندهش من هذه الآشا الجديدة وهى فى ميدان العمل ، ففى آشا الجديدة هذه لم يكن ثمة خوف أو عقدة نقص أو عجز ؛ لقد اكتشفت مكانها الشرعى ووقفت على أرضها بحزم دون أن تستند الى ماهندرا . كان يستطيع أن يتجاهلها كزوجته ولكنه لم يكن يستطيع الا أن يحترمها كزوجة ابن أصحاب البيت .

وسرت راچلاكشمى فى سرها لأن آشا بسبب قلقها عليها قد نادت ماهندرا الى جانب فراشها ، ولكنها أخذت تكرر فى العلانية « لقد أرسلتك لتنامى يا زوجة ابنى ، فماذا جعلك تذهبين وتجرين ماهندرا هنا ؟ » .

ولم تجب آشا ولكنها أشغلت نفسها بالترويح لحماتها وهى تجلس الى جوارها .

وقالت راچلاكشمى : « أرجوك أن تذهبى وتنامى يا زوجة ابنى » .

فأجابت آشا برقة : « لقد طلب منى أن أبقى بجوارك » .

كانت تعرف أن راچلاكشمى سوف تسر اذا ما عرفت أن ماهندرا طلب اليها خصيصا أن تمرض أمه .

٤٢

عندما تحققت راچلاكشمى أن آشا لن تستطيع أن تسترجع ماهندرا وحدها ، قالت لنفسها « لو استطاع مرضى أن يبقى ماهندرا فى البيت فمرحبا به » وبدأ فعلا تخشى الشفاء وترمى دواءها عندما لا تكون آشا تنظر اليها .

وبالرغم من أن ماهندرا فشل فى ملاحظة الأعراض كما هى عادته فى ضعف الملاحظة فقد رأت آشا أن حالة راچلاكشمى تزداد سوءا بدلا من أن تتحسن ؛ وشكت فى أن ماهندرا لم يكن يهتم اهتماما كافيا بعلاج أمه بسبب انصرافه الى غرامياته واشمأزت من نذالته التى لم تستطع حتى آلام أمه أن تنفذ منها . فهل كان انحلاله شاملا الى حد أن يؤدى الى انهيار خلقى عام ؟ .

وذات يوم وهى تتألم تألما بالغا فكرت راچلاكشمى فجأة فى بيهارى ؛ وبدا لها أنه قد مر وقت طويل جدا منذ أن زار البيت آخر مرة ؛ وسألت آشا : « أين بيهارى هذه الأيام يا زوجة ابنى ؟ » وفهمت آشا الألم الشديد الذى جعل حماتها تتذكر أن بيهارى هو الذى كان يعنى بها ويهتم بها عندما يصيبها المرض ، وكان من سوء الحظ أن هذا الصديق الوحيد الثابت على صداقته الذى يمكن الاعتماد عليه ولم يخيب ظنهم فيه مرة واحدة قد ابتعد عنهم هو الآخر ، ولو كان قريبا منهم لكان قد أحسن الاهتمام بها فى هذه الأزمة ، فبيهارى لا يمكن أن يكون فى نذالة ماهندرا . وزفرت آشا تنهيدة عميقة .

وسألت راچلاكشمى : « هل تشاجر ماهن مع بيهارى ؟ ان ذلك لخطأ من ماهن يا زوجة ابنى ، فليس له صديق كبيهارى فى اخلاصه وحب الخير له » .

وامتلأت عيناها بالدموع وهى تتكلم .

وبدأت الذكريات تغير على آشا واحـدة اثر واحدة — كم حاول بيهارى بطرق شتى أن يحذرها فى وقت الخطر وكيف أن مجهوداته كلها لم ينجم عنها الا ابتعادها عنه ، وأخذت تعنف نفسها تعنيفا قاسيا عندما تذكرت حماقتها العمياء ، ولماذا لا تعاقب العناية الالهية حمقاء ناكرة للجميل صعدت السلم خلال نوبة ربوية ، وما أن فتح الباب حتى دخلت وارتمت يطلب لها الخير ؟ أليس من العدالة أن تظل الزفرة التى خرجت من بيهارى وهو يغادر البيت مكسور الخاطر عالقة فوق البيت كاللعنة ؟

وبعد فترة سكون من الصمت المؤلم استأنفت راچلاكشمى تقول : « لو كان بيهارى هنا يا زوجة ابنى لكان قد ساعدنا ودفع عنا الشر » .

ظلت آشا صامتة وهى منغمسة فى أفكارها ، واستطردت راچلاكشمى وهى تتنهد « لو أنه سمع بمرضى لما ابتعد عنا اطلاقا » .

وفهمت آشا أن حماتها كانت تتمنى أن يصل خبر مرضها الى بيهارى ، فقد وصلت الى مرحلة شعرت فيها بضرورة وجوده .

* * *

وقف ماهندرا صامتا بجوار النافذة التى أضاءها القمر بعد أن أطفأ الضوء فى حجرته لما تعب من القراءة . وقد أضحى البيت كئيبا لا بهجة فيه الآن ، ذلك أن حبل المحبة مع الأقرباء الأعزاء اذا انفصم أو تراخى فليس من السهل تركهم كما يترك الغرباء ولا استعادتهم مرة ثانية الى صفوف الأقرباء — والود البارد الذى لا ينحل يثقل القلب ليلا ونهارا — ومن ثم فقد كان ماهندرا من زيارة أمه التى ما كانت تقع عيناها عليه وهو يقترب

حتى تحدق فيه بقلق وانزعاج يوهنان من عزيمته وقوته . كذلك كان من العسير عليه اذا تصادف أن اقتربت منه آشـــا أن يتحدث اليها ، بقدر ما كان من المؤلم له أن يظل صامتا . نعم ، لقد أصبحت الحياة على هذا النحو مهمة شاقة عليه ، لقد أقسم ألا يرى بنودينى أسبوعا كاملا وبقى أمامه الآن يومان قبل أن يســتطيع أن يراها — يومـــان كان من العسير انقضاؤهما .

وسمع وقع أقدام خلفه وعرف أن آشا قد دخلت الحجرة ، ولكنه ظل ساكنا يتظاهر بأنه لم يسمع شيئا . وفهمت آشا ذلك منه ولكنها بالرغم من ذلك تقدمت ووقفت خلفه وقالت : « أنا لا أريد الا كلمة واحدة معك وسوف أغادر الحجرة بعدها » .

فقال ماهندرا وقد التفت اليها : « ولم تضطرين الى مغادرة الحجرة ؟ اجلسى ! » .

وظلت آشا واقفة متجاهلة مجاملته وقالت : « يجب أن نخبر بيهارى أخا زوجى بمرض أمك » .

ووخزه اسم بيهارى فى أكثر الأمكنة حساسية وتألما ولكنه استرد قواه وسألها : « ولم كان هذا ضروريا ؟ ألا تثقى بعلاجى ؟ » .

كانت آشا شديدة الاستياء من عدم اكتراث ماهندرا فى علاج أمــه فلم تستطع أن تمنع نفسها من أن تقول له فى وجهه : « الواقع أن حالة والدتك تسوء يوما بعد يوم بدلا من أن تتحسن » .

وشعر ماهندرا بالوخز خلف هذا الكلام الجاف ، ولم تكن آشا قد عاتبته من قبل بمثل هذا العتاب الملىء بالاحتقار ، فدهش وتألم من هذه اللطمة لتقـــديره لذاته وقال بسخرية : « أظن انه يجب أن أتعلم الطب منـــك ! » .

وأثارت هذه السخرية غير المتوقعة استياء آشا المتراكم وشجعها ظلام الحجرة فانفجرت قائلة : « يمكنك أن تتعلم منى الجـــزع على أمــك لا الطب » .

وصعق ماهندرا من هذا التقريع غير المتوقع من آشا وجعله الحقــد متجبرا صارما فرد عليها قائلا : « انك تعلمين جيدا السبب الذى دعا الى تحريم هذا البيت على بيهارى ؛ وأظنك تفتقدينه » .

واستدارت آشا وغادرت الحجرة كما لو كانت عاصفة من الخجل قد اكتسحتها خارجها ، ولم يكن ذلك خجلا من نفسها وانما خجلا من أجل الرجل الذى استطاع أن يتفوه بهذا الافك الوضيع وهو نفسه غارق الى أذنيه فى العار ، أى تكفير يمكن أن يغطى هوة أفكه النتن هذه ؟

وما أن غادرت آشا الحجرة حتى أدرك ماهندرا خزيه كاملا ، فلم يكن قد تخيل اطلاقا أن آشا يمكن أن تعامله فى يوم من الأيام قبل هذا الاحتقار الكامل ؛ لقد تحطمت المنصة التى توج عليها مرة قطعا متناثرة ، وهاجمه فجأة خوف من أن حب آشا المجروح قد تحول كله الى احتقار له .

ومن ناحية أخرى أحيى ذكر اسم بيهارى خوفه على بنودينى وكاد يفقده عقله من القلق ، فمن يدرى ، فلربما قد عــاد بيهارى من رحلته أو اكتشفت بنودينى مكانه ! بل من المحتمل أن يكون الاثنان قد تقابلا فعلا ! ووجد ماهندرا أن وفاءه بوعده بألا يرى بنودينى مدة أسبوع كامل فيه استحالة .

اشتدت حالة راچلاكشمى التنفسية سوءا فى المساء وأرسلت بنفسها تدعو ماهندرا وقالت له وهى تتفوه بالألفاظ ببطء وبصعوبة : « ماهن : كم أود أن أرى بيهارى انه لم يأت الينا من مدة طويلة » .

وبقيت آشا تروح لحماتها ورأسها منحن .

فأجاب ماهندرا : « انه ليس هنا ، فقد رحل الى الغرب » .

فأصرت راجلاكشمى قائلة : « ان قلبى يقول انه هنا ، وانما هو يبتعد عنا بسبب كبريائه المجروح ، فأرجوك أن تذهب وتراه غدا — من أجلى » . فوعد ماهندرا قائلا : « وهو كذلك . سوف أذهب » .

لقد كان كل فرد يسأل عن بيهارى ، وشعر ماهندرا بأن العالم كله قد تخلى عنه .

٤٣

ذهب ماهندرا فى الصباح الباكر الى بيت بيهارى فوجد الخدم يرفعون الأثاث وكل ما فى البيت وينقلونه الى عربات تنتظر خارج المنزل .

فسأل بيهاجو : « ما الخبر ؟ » .

فأجاب بيهاجو : « اننا سننتقل الى فيلا اشتراها سيدى على الجانجز بالقرب من بالى » .

فسأله ماهندرا : « وهل سيدك فى البيت ؟ » .

— « لقد كان هنا مدة يومين ولكنه رحل بعد ذلك الى الفيلا » .

ملأت هذه الأخبار ماهندرا خوفا ، ولم يعد لديه شك فى أن بنودينى وبيهارى قد تمكنا من المقابلة فى غيابه ، بل انه كاد يتخيل أنه يرى عربات النقل خارج مسكن بنودينى ، واقتنع بأن هذا هو ما دعا بنودينى الى طرده من مسكنه . نعم ، كم كان غرا أحمق !

وقفز الى عربته وأمر السائق بأن يسرع ، واستمر يصرخ فيه طول الطريق بأن الحصان لا يتحرك بسرعة كما يجب ؛ فلما بلغ غايته فى الحارة لم ير أية علامة تدل على الاعداد لرحلة ما ، وتملكه خوف من أن بنودينى قد تكون رحلت بالفعل فأخذ يطرق الباب بشدة ، وبمجرد أن فتحت

الخادمة العجوز الباب من الداخل سألها : « أكل شيء على ما يرام فى المنزل ؟ » .

فأجابت الخادمة : « نعم يا سيدى ، كل شيء على ما يرام » .

وصعد السلم وعلم أن بنودينى فى الحمام ، فدخل حجرة النوم الخالية وألقى بنفسه على الفراش الذى تنام فيه بنودينى وضم اللحاف الى قلبه ثم الى شفتيه وبدأ يتمتم : « قاسية ! قاسية ! » .

وبعد أن أشبع اشتياق قلبه بهذا الأسلوب نهض وبدأ ينتظر وصول بنودينى بقلق . أخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا ثم لاحظ جريدة مفتوحة على الايوان فالتقطها وهو شارد الذهن وبدأ يقرأ كل ما تقع عليه عينه لكى يمضى الوقت ، ومن العجيب أن الجزء الذى بدأ يقرأه كان يحمل اسم بيهارى ، وسرعان ما ركز كل اهتمامه عليه فقد كتب أحد المراسلين بين ما كتب من أخبار أن بيهارى قد اقتنى فيلا على النهر تسمح لخمسة من المرضى من الموظفين ذوى الدخل المحدود بأن يقيموا بها فى وقت واحد ، وأن يقدم لهم فيها العلاج الطبى والتمريض دون أجر .

لا شك أن بنودينى قد قرأت هذا الخبر ، وأنها تتلهف على الذهاب هناك ، وعلاوة على الخوف الذى غشيه من جراء ذلك أخذ القلق يستبد به خشية أن تكون هذه الأخبار قد رفعت من قدر بيهارى فى نظرها ، فتمتم لنفسه وهو ينفس عن كراهيته لبيهارى : « يا للمخادع ! مجرد تظاهر وتهريج ! لقد كان دائما هكذا منذ طفولته يدعى حب الخير » وبعد أن أطرى نفسه على صراحته وأمانته قال : « انى أكره هذا التظاهر بالكرم والتضحية بالنفس للتأثير على السوقة وخداعهم » . وان لم يكن هناك لسوء الحظ أى احتمال فى أن يقدر الناس عامة ، وواحدة منهم خاصة ،

مبلغ أمانته التى لا خداع فيها ، وبدأ ماهندرا يحس بأن بيهارى قد أحرز نصرا آخر عليه .

وحين سمع وقع قدمى بنودينى أسرع يطوى الجريدة ويجلس فوقها ، ولما نظر اليها دهش من التغير الذى لا يكاد يصدق الذى ظهر على وجهها بعد أن خرجت من حمامها فورا ، فقد بدت وكأنها قد مرت خلال تكفير النار وصارت نحيفة بشكل محسوس كما أضاء وجهها الشاحب ضوء منبعث من داخلها .

وكانت بنودينى قد هجرت كل أمل فى سماع شيء عن بيهارى ، وخشيت أن يكون سكوته دلالة على احتقاره التام لها ، فكانت هذه الفكرة أشبه بلهيب التف حولها وأخذ يلفح جسدها فى سكون يوما بعد يوم ، ولم تستطع أن تجد مخرجا من هذا الألم وبدا لها أن بيهارى لم يرحل الا تعبيرا عن مقدار لومه لها . وانها قد صارت الآن عاجزة عن الوصول اليه . ولما كانت بطبيعتها ايجابية ونشيطة فقد شعرت بالاختناق لعدم وجود ما تعمله وهى حبيسة فى مسكن صغير وطاقتها المكبوتة تمزقها من الداخل تمزيقا ، وزاد من وحشتها ما كانت تتوقعه من أنها ستمضى حياتها كلها فى هذا الجحر الكريه الذى لا حياة فيه ولا حب فى حارة ضيقة دون دافع يدفعها لأى نشاط مفيد . وقد دفع ذلك طبيعتها الثائرة الى ثورة جامحة فأخذت تضرب رأسها عبثا فوق حائط القدر الصلب .

وامتلأت كذلك اشمئزاز مرا لا حد له من ماهندرا الذى أحاطت بها حماقته الهوجاء من كل جانب مغلقة عليها كل سبل الهرب ، وتحققت من استحالة بقائه بعيدا لا يقترب منها مدة طويلة فى نطاق ذلك المسكن الضيق فهو لابد أن يزحف نحوها كل يوم ويزداد اقترابه منها بوصة بوصة تدفعه رغبة بهيمية الى أن تنشب فى القاع المظلم الموحل لحياتيهما المنحرفة

معركة يومية مريرة بشعة بين الاغراء والصد . فكيف تخرج نفسها اذن من لفافات هذا الحيوان الزاحف المخاطى الكريه المفترس بلسانه المتدلى الذى احتفرته هى بنفســها من تحت سطح قلب ماهندرا ؟ وارتجفت بنودينى وهى تفكير فى بلائها — قلبها الهلع ، ووجودها المحزن المكبوت وحصار ماهندرا القاسى ليلا ونهارا .

أين سينتهى كل هذا ؟ ومتى سنتحرر منه ؟

أشعل منظر وجه بنودينى الشاحب الهزيل غيرة ماهندرا ، هل كان عاجزا عجزا تاما عن انتشالها بالقوة من افتتانها ببيهارى ؟ وكما ينقض النسر على حمل ويرفعه فى مخالبه فى ومضة العين ثم يحمله الى عشه المنيع الحصين فى الجبل ، أليست هناك بقعة تغلفها السحب منعزلة عن العالم انعزالا تاما يستطيع هو الآخر أن يحمل فريسته الجميلة الرقيقة اليهـا ويحتفظ بها فى أمان وقد احتضنها بذراعيه واحتواها الى قلبه ؟ وأخذت نيران رغبته وقد زادتها الغيرة اشتعالا تفح وتندلع بوحشية — لا ، انه لا يستطيع أن يترك بنودينى تغيب عن نظره بعد ذلك ، ولن يجرؤ على أن يسمح لها بلحظة تمهل ، بل يجب أن يكون متيقظا ليلا ونهارا ليبعد عنها طيف بيهارى .

لقد قرأ فى الشعر السانسكريتى أن المرأة الجميلة تبدو أكثر جمالا عندما يهجرها حبيبها ، وقد رأى ذلك اليوم بعينيه وهو ينظر الى بنودينى ، وكان كلما تبين ذلك ازداد قلبه اضطرابا وانفعل بالألم واللذة معا .

فظلت بنودينى صامتة فترة ثم سألته : « هل تناولت شايك ؟ » .

فصاح ماهندرا : « وماذا لو كنت قد تناولته ! يمكنك أن تعدى لى قدحا من الشاى بيديك ولا تكونى شحيحة ! » ثم اقتبس مداعبا « تعالى واملئى القدح » .

وسألته بنوديني وهي تصد بغلظة ربما كانت مقصودة : « أتعرف أين أخو زوجي بيهاري الآن ؟ » .

فقال ماهندرا وقد شحب لونه في الحال : « انه ليس في كلكتا » .

— « وما عنوانه ؟ » .

— « انه لا يريد أن يعرفه أي انسان » .

— « أليس من الممكن أن نعرفه ؟ » .

— « لست أجد حاجة ملحة الى ذلك » .

— « ألا تساوي صداقة العمر شيئا ؟ » .

— « صحيح أن بيهاري صديق العمر ، ولكنك لم تعرفيه الا من وقت قريب ، ومع ذلك فان الحاجة الملحة تبدو من جانبك » .

— « ان من شأن هذا في حد ذاته أن يخجلك فأنت لم تستطع أن تتعلم قيمة الصداقة حتى من مثل هذا الصديق ! » .

— « لست آسفا على ذلك كثيرا ، ولكني أتمنى أن أكون قد تعلمت فن سرقة قلب المرأة ، اذن لوجدت ذلك مفيدا » .

— « ان هذا الفن لا يمكن اكتسابه بمجرد الرغبة في تعلمه ، وانما يجب أن يكون لك القلب المناسب له » .

— « أرجوك اذا عرفت عنوان المعلم العظيم أن تدعيني أعرفه حتى يمكنني أن أتدرب عليه — حتى في هذه السن ، والقلب يمكن أن يختبر عندئذ » .

— « لا تحدثني عن قلبك . فاذا كنت لا تستطيع حتى أن تتعقب عنوان صديقك ، فمن سيثق بك بعد الطريقة التي سلكتها مع بيهاري أخي زوجي ؟ » .

— « لو لم تثقي بي ثقة تامة ما كنت تجرؤين على الاستخفاف بي هكذا ،

ولو كنت أقل تأكدا من حبى لك ما تحملت هذا الألم الذى لا يحتمل ، ان بيهارى يعرف فن المقاومة ، ولو أنه علم هذا الفن لهذا الشخص اليائس الماثل أمامك لأثبت حقا أنه صديق مخلص » .

فانقضت بنودينى وهى واقفة بجوار النافذة وشعرها غير المصفف يتدلى على ظهرها قائلة : « ان بيهارى رجل ، وهذا هو السبب فى أنه لا يمكن استئناسه » .

وقفز ماهندرا من مقعده وقد جمع قبضتيه وصاح بغضب : « كيف تجرؤين على الاستمرار فى اهانتى ، هل سبب ذلك قوتك العظيمة أم حلمى ؟ انك اذا أصررت على معاملتى معاملة الحيوان فتذكرى انه حيوان مفترس ذلك الذى تواجيهينه ، اننى لست من الجبن بحيث لا أعرف كيف أضرب » .

ووقف يحدق فيها ، وبعد فترة توسل اليها فجأة وقال : « بنود ، دعينا نرحل من هنا ، الى أى مكان ، الى الغرب أو الى التلال ، كما تشائين . اننا لا نستطيع أن نعيش هنا طويلا فكل منا يحطم الآخر » .

فقالت بنودينى : « دعنا نذهب الآن — هذه اللحظة — الى الغرب » .

— « أى مكان فى الغرب ؟ » .

— « لا مكان بالذات . فلن نمكث فى أى مكان مدة طويلة وانما نتنقل باستمرار » .

— « هذا جميل ، دعينا نرحل الليلة » .

وأمأت بنودينى موافقة على ذلك وأسرعت الى المطبخ لتعد طعام ماهندرا .

وهكذا استطاع ماهندرا أن يتبين أن بنودينى لم تلاحظ الخبر المنشور فى الجريدة والواقع انها لم تكن فى حالة تسمح لها بقراءة الجرائد ، وبالرغم

من ذلك فقد استمر ماهندرا حريصا طول اليوم على ألا يصل هذا الخبر اليهـا .

وفى الوقت نفسه كان الطعام معدا لماهندرا فى بيته على أمـل أنه سيعود بأخبار عن بيهـارى ، فلما تقدم الوقت ولم يحضر اضـطربت راچلاكشمى فى فراش مرضها وزاد قلقها ، ولما كانت لم تنم الليل بأكمله فقد أنهكها التعب وأخذ منها الاعياء كل مأخذ حتى اضطرت آشا ، وقد رأت حماتها مضطربة من أجل ماهندرا ، الى أن ترسل من يستفسر عن زوجها ؛ وجاءها الخبر بأن عربة ماهندرا قد رجعت خالية . وان الحوذى يقـول : ان ماهندرا قد ذهب الى مسكن فى باتالدانجا بعد أن زار بيت بيهارى . وأدارت راچلاكشمى وجهها الى الحائط عندما سمعت ذلك ورقدت دون حراك ، وجلست آشا بالقرب من رأسها تروح لها وجسمها متصلب كالتمثال .

وكانت راچلاكشمى فى الأيام الأخرى تصر على أن تتناول آشـا وجباتها فى مواعيدها المحددة ، أما اليوم فلم تقل شيئا ؛ فاذا كان ماهندرا حتى بعد أن رآها مريضة هكذا فى الليلة الماضية — يستطيع أن يستمر فى الجرى وراء بنودينى ، فماذا قد ترك لراچلاكشمى لتتمناه أو تحاوله أو تعيش من أجله فى هذه الحياة ؟ كانت تدرك أن ماهندرا لم يأخذ مرضها مأخذ الجد وانما ظنه توعكا عاديا مما يحدث لها من حين الى آخر ويأخذ مجراه ويعالج ، ولكن عدم اهتمامه هذا هو الذى ألهب ضغينتها — حرصه على غرام ملأ عليه قلبه فلم يترك فيه فراغا للاهتمام بأى شخص آخـر أو بأى واجب من واجباته ، واستخفافه الشديد بمرض أمه وألمها ، ثم هروعه الى بنودينى دون خجل فى أول فرصة تواتيه خشية أن يقيم بالقرب من فراش مرض أمه . فقدت راچلاكشمى كل رغبة فى شفائها ، وودت



من شدة استيائها واشمئزازها من ماهندرا لو استمرت مريضة لتبرهن له على أنه كان مخطئا فى أخذ حالتها بهذه الخفة .

وفى الساعة الثانية مساء قالت آشا : « أماه ، لقد حان وقت دوائك » ولم تجب راچلاكشمى ، وعندما نهضت آشا لتحضر الدواء قالت : « لا أريد أى دواء يا زوجة ابنى . يمكنك أن تذهبى » .

وفهمت آشا من كلماتها ما فى قلبها من أسى الحب المجروح واشتد ألمها وحزنها كما لو كانت العدوى قد انتقلت اليها وحاولت أن تمنع دموعها

ولكنها سرعان ما انفجرت فى نوبات من النشيج ، واستدارت راچلاكشمى ببطء على جانبها الآخر نحو آشا وربتت على يدها برقة تنسم بالود والمحبة وقالت : « يا زوجة ابنى ، انك ما زلت صغيرة وأمامك وقت طويل وفرص عديدة للسعادة ، لا تقلقى علىّ بعد ذلك يا بنيتى ، فلقد عشت ما فيه الكفاية ولم يعد لدى الآن ما أتطلع اليه » .

وازداد نشيج آشا وأخفت وجهها فى ثنية من ثنايا ساريها .

وهكذا انتهى اليوم البائس فى حجرة المرأة المريضة ، ولكن المرأتين ، حتى فى يأسهما ، أخذتا مع ذلك تتعلقان بالأمل الضئيل بأن ماهندرا قد يعود فى أية لحظة ، فكانتا تمسكان عن التنفس عند أى صوت وعرفت كل منهما قلق الأخرى . وأخذ ضوء المساء يذبل تدريجا والغسق داخل بيوت كلكتا ليس له بريق الضوء أو ستار الظلام الدامس ، مما يجعل الألم أكثر ايلاما واليأس أكثر حدة ، انه يهلك النشاط ويطرد العزاء والسلوان ، بل ويسلب السكينة والعزلة من سلامهما . ونهضت آشا وخرجت متسللة وأحضرت شمعة مضاءة الى الحجرة المظلمة الكئيبة التى تنام فيها المريضة . وقالت راچلاكشمى « أنا لا أحب الضوء يا زوجة ابنى ، أرجو أن تتركى الشمعة خارج الحجرة » .

وأخذت آشا الشمعة ثم عادت وجلست ، وعندما اشتد الظلام قالت لحماتها برقة : « أماه ، هل أرسل اليه ؟ » .

فأجابت راچلاكشمى بشدة « لا يا زوجة ابنى ، لا ترسلى أية رسالة الى ماهندرا . هذا هو أمرى اليك الذى لا عصيان له » .

واستمرت آشا صامتة ساكنة لا تتحرك فى مقعدها ، حتى لقد أعوزتها القدرة على البكاء .

وسمع صوت الخادم بعد ذلك وهو يعلن خارج الحجرة « لقد أرسل سيدى خطابا » .

وتخيلت راچلاكشمى أن ماهندرا ربما أصابه المرض فجأة وأنه أرسل خطابا لعجزه عن العودة الى البيت ، فتغلب عليها الندم وقالت بقلق : « أرجو أن تقرئى ما كتبه ماهن يا زوجة ابنى » .

وخرجت آشا الى الدهليز وفتحت الخطاب بأصابع مرتجفة وقرأته تحت ضوء الشمعة . لقد كتب ماهندرا يقول : انه لا يشعر بأنه فى صحة جيدة ولذا فقد قرر أن يذهب فى رحلة الى الغرب ؛ وأنه قد طلب من الدكتور نابين أن يزور أمه بانتظام ولو أنه ليس هناك ما يدعو الى القلق عليها ، وقد أوصى فى الخطاب كذلك بما يعمل أو يعطى لأمه اذا أصابها صداع أو أرق ، كما أرسل بعض الأدوية مع الخطاب ثم أضاف فى حاشية فى أسفل الخطاب رجاءه بأن ترسل اليه الأخبار عن صحة أمه باستمرار ومن غير انقطاع الى عنوان فى جيريدية مؤقتا » .

صعقت آشا ونسيت حزنها فى غثيان شديد من التقزز والاشمئزاز ؛ كيف تستطيع أن تقرأ مثل هذا الخطاب الذى لا رحمة فيه ولا مروءة على حماتها ؟

واشتد قلق راچلاكشمى عنـــدما تأخرت آشا عنها كثيرا وصاحت قائلة : « تعالى يا زوجة ابنى وقولى لى فى الحال ما كتبه ماهن » ورفعت نفسها وجلست فى فراشها وهى قلقة مضطربة . ودخلت آشا الحجرة وقرأت الخطاب كله ببطء . وطلبت اليها راچلاكشمى : « أرجوك أن تعيـــدى قراءة ما قاله عن صحته » .

فقرأت آشا للمرة الثانية : « لا أشعر بصحة جيدة .. » .

فصاحت راچلاكشمى : « كفى ! لا داعى للقراءة بعد ذلك ، كيف

يستطيع أن يشعر بصحة جيدة — ما دامت الأم العجوز تأبى أن تموت وتنكبه بمرضها ؟ لم أخبرت ماهن بمرضى ؟ لقد استقر فى البيت وكان مشغولا بكتبه فى حجرته دون أن يضايق أحد — أى سرور حصلت عليه من مطاردته من البيت واخافته ببعبع مرض أمه ؟ ما الضرر الذى كان يصيب أى فرد من بقائى فى فراشى أسيرة لليأس لا يهتم بى أحد ؟ حتى هذا العذاب الشديد لم يستطع أن يدخل قليلا من حسن التصرف فى رأسك ! » .

ثم هوت فى سريرها مرة أخرى .

وسمعت جلجلة أقدام خارج الحجرة وأعلن الخادم ان الطبيب قد حضر ، وما أن دخل الحجرة حتى أسرعت آشا فغطت وجهها ورأسها وذهبت فوقفت عند الجانب الآخر من السرير ، وسأل الطبيب : « أرجوك أن تخبرينى بالضبط عما تشعرين به من تعب » .

فصاحت راجلاكشمى فى غضب « تعب ! أى تعب ؟ ألا تدع الانسان يموت ؟ هل سيخلدنى دواؤك ؟ » .

فأجاب الطبيب بهدوء : « قد لا أخلدك ، ولكن ربما استطعت أن أفيد فى تخفيف ألمك » .

فقاطعته راجلاكشمى قائلة : « ألم ! لقد كان أفضل علاج للألم حين كانت الأرملة تحرق نفسها على محرقة زوجها ، أما الآن فموتها يأتى بطيئا . أرجوك أن تخرج يا دكتور وألا تقلق نفسك بشأنها بعد الآن ، فأنا أريد أن أخلو بنفسى » .

فقال الطبيب فى شىء من الخجل : « دعينى على الأقل أجس بصك .. » .

فصاحت راجلاكشمى وقد أثارتها كلماته : « انى أقول لك دعنى

وحدى ، اذ نبضى على ما يرام ، وليس هناك أمل فى أن يتوقف القلب المسكين عن النبض الآن » .

واضطر الطبيب أخيرا الى مغادرة الحجرة وأرسل فى طلب آشا وسألها عن حالة المريضة بالتفصيل ، وبعد أن استمع الى كل شيء عـاد فدخل الحجرة وقال لراچلاكشمى برصانة : « لقد رجانى ماهندرا بصفة خاصة أن أعنى بك ، فاذا لم تدعينى أقوم بواجبى فسوف يتألم لذلك » .

وكان لفكرة ان ماهندرا سوف يتألم لهذا السبب وقع السخرية فى أذنى راچلاكشمى فقالت : « لا تقلق على ماهن . فلن يستطيع أحد أن يفلت من الألم فى هذا العالم ، ولكنى أستطيع أن أؤكد لك ان ماهندرا لن يكون انزعاجه مفرطا من جراء ذلك ، فأرجو أن تذهب الآن يا دكتور وأن تدعنى أنام قليلا » .

وتحقق الطبيب من أن استشارة المريضة لن يفيد ، فاسترد خطواته ببطء وأعطى التعليمات الضرورية لآشا ثم غادر المنزل .

فلما عادت آشـا الى الحجـرة قالت لها راچلاكشمى : « اذهبى واستريحى قليلا يا بنيتى ، لقد أمضيت اليوم كله وأنت جالسة بجانب فراش المرض هذا ، اذهبى وارسلى أم هارو (*) ، واطلبى اليها أن تمكث فى الحجرة المجاورة » .

كانت آشا تعرف حماتها وفهمت أن هذا لم يكن مجرد توسل مبعثه الحنان وانما كان أمرا لا يجوز تجاهله ، فخرجت من الحجرة وأرسلت الخادم وذهبت الى غرفتها ورقدت فى الظلام فوق أرض الحجرة الرطبة . ولم تكن قد أكلت طول اليوم وكانت متعبة من الألم والاعياء .

(*) طريقة شائعة عند نداء امرأة متزوجة ذات أطفال أو الاشارة اليها والمقصود هنا الخادم بالطبع .

كان البيت المجاور يحتفل بزفاف ، وكانت تنطلق منه بعض نغمات الموسيقى من حين الى آخر فتسبح فى الحجرة ، وقد سمعت فى هذه اللحظة السانائى ، وأخذت نغمات مزامير الزفاف المألوفة تتكسر فى الظلام فتبعث موجات من الألم الشديد تحطم قلب آشا ، واتخذت كل صغيرة وكبيرة من حفل زفافها شكلا حيا أمام عينيها الآن فملأت ظلام السماء بصور كأنها فى حلم أو خيال — مصابيح الزفاف والضجة وحشود الناس وأكليل الزهور الميمون وطلاء الصندل وفستان العرس وشذى البخور المحترق ثم خجلها وترددها ومخاوفها الممتزجة بالفرح .

وتضاعف الألم فى قلبها مرة ثانية عندما هاجمتها الذكريات المؤلمة من كل جانب حتى لم يعد محتملا . وكما يظل الطفل الجائع الذى أصابته المجاعة يضرب أمه ويصيح طالبا الطعام ، كذلك أخذت الذكريات التى بعثت من مرقدها ، ذكريات السعادة الماضية تصرخ طالبة طعامها وهى تدق على قلب آشا حتى لم تعد تستطيع أن تبقى ساكنة . فطوت راحتيها لتصلى لله ، وبينما هى تفعل ذلك اذا بصورة خالتها الرقيقة الهادئة تطفو فى قلبها الذى غمرته الدموع — الصورة الوحيدة التى أمكنها أن تراها للكائن القدسى الذى عرفته فى حياتها . كانت قد أقسمت ألا تدعو هذه الناسكة المتعبدة أو تجر بها الى متاعب حياتها المؤلمة ، أما اليوم فلم يعد فى نظرها حل آخر ، لم يعد لها مهرب آخر من كتل الآلام التى كانت تزداد عمقا وتحيط بها من كل جانب تكاد تخنقها . وأضاءت مصباحا وجلست وقد وضعت ورقة على كراسة فى حجرها وبدأت تكتب بعد أن مسحت دموعها الفياضة :

« عند قدميك اللوتسيتين :

خالتى — ليس لى سواك ، فأرجو أن تأتى ، أستحلفك وأن تأخذى

هذه الطفلة التعسة مرة أخرى فى حجرك . فلن أعيش اذا لم تفعلى ذلك .
لا أعرف ماذا أقول بعد ذلك . انى أنحنى عند قدميك مليون مرة .

المحبة

تشونى

٤٥

عادت أنا برنا من كاشى ودخلت الحجرة فى خطوات رقيقة ولمست قدمى راجلاكشمى ثم رفعت يديها الى جبهتها بالتحية المألوفة ، وبالرغم من الشعور الممتزج بالسرور والمرارة معا فقد شعرت راجلاكشمى عند رؤية أنا برنا كما لو كانت قد استعادت كنزا مفقودا ، وأدركت فى ومضة كم كانت تفتقد أخت زوجها فى أعماق قلبها دون أن تدرى ذلك ؛ وان كثيرا من اعياء روحها وألمها النكد كان مرجعه غياب أنا برنا ، وفتح قلبها الهلع بابه على الفور ليرحب بصداقة مفقودة ويعمل على استرجاعها .

كانت المرأتان قد عاشتا معا فى نفس البيت فى ود صادق مدة طويلة قبل أن يولد ماهندرا ، تشارك كل منهما الأخرى أفراحها وأتراحها ؛ وتشتركان معا فى نفس الأعياد والاحتفالات ، دينية ودنيوية ، وتواجهان متعاونتين مسئولياتهما ومصائبهما المشتركة ، وها قد عاد الآن الود القديم فى الحال الى قلب راجلاكشمى . وها هى تقف الى جانبها فى ساعة حزنها المظلمة مرة أخرى صديقة أيام طفولتها القديمة ورفيقتها المخلصة فى بداية مغامرات رحلة حياتها — بالرغم من كل ما حدث بينهما من سوء تفاهم وتباعد فيما بين ذلك من سنوات . أما من كانت تعامل راجلاكشمى أخت زوجها هذه المعاملة السيئة الفظة بسببه فأين هو اليوم ؟

جلست آنا برنا بجوار الفراش وأخذت يد راچلاكشمى اليمنى فى يدها وقالت : « أختى ! » .

فأجابت راچلاكشمى : « يا أخت زوجى » ، ولم تستطع أن تتفوه بلفظ أكثر من ذلك وانهمرت الدموع فى عينيها وعلى خديها . كان المنظر مؤلما بالنسبة لآشا فتراجعت الى حجرتها ورقدت على الأرض تذرف دموعا غزيرة .

ولم تجرؤ آنا برنا على أن تناقش موضوع ماهندرا مع راچلاكشمى أو مع آشا ، ولذا فقد أرسلت الى سادهوشاران وسألته : « أين ماهن يا عمى ؟ » فقص سادهوشاران عليها قصة ماهندرا وبنودينى .

وسألته آنا برنا : « وما أخبار بيهارى ؟ » .

فأجاب سادهورشاران : « لا أعرف ، انه لم يأت الى هذا البيت منذ مدة طويلة » .

— « أرجوك . اذهب الى بيته وآتنى بنبئه » .

وذهب سادهوشاران وعاد ليقول : « أنه ليس فى البيت ، انه يقيم فى فيلا على الجانجز » .

وأرسلت آنا برنا فى طلب دكتور نابين وسألته عن حالة المريضة ، فقال الطبيب « انها تقاسى من الاستسقاء كما أن قلبها ضعيف ، وهى معرضة لأى شىء فى أية لحظة ومن العسير أن أحدد أكثر من ذلك » .

وعندما اشتد تعب راچلاكشمى فى المساء اقترحت آنا برنا عليها قائلة : « أختاه دعينى أستدعى دكتور نابين » .

فأجابت راچلاكشمى : « لا يا أخت زوجى ، ان الدكتور نابين لا يستطيع أن يفعل شيئا » .

فسألتها آنا برنا : « من اذن تحبين أن تستدعيه ؟ » .

فأجابت راچلاكشمى : « لو استطعت أن تنبئى بيهارى فانى أكون سعيدة » .

وطعنت بذلك قلب أنا برنا كخنجر مسنون ، فهى لم تنس ذلك المساء عندما كان بيهارى يقف خارج حجرتها فى الظلام بعيدا عن موطنه فلفظته وطردته . انه لن يعود اطلاقا الى بابها بل فقدت أملها حتى فى مجرد مصالحته فى هذه الحياة للخطأ الذى ارتكبته فى حقه ضعيفا .

وصعدت الى الشرفة ودخلت حجرة ماهندرا التى كانت فى وقت من الأوقات تفيض سعادة وفرحا ، كان الفراش والأثاث وكل شىء فيها رثا مهملا وفى وضع كئيب حزين وكانت النباتات قد جفت وذبلت فى أحواضها فى الشرفة لافتقاد من يرويها .

وعندما رأت آشا خالتها تصعد الى شرفة السطح تبعتها متباطئة وأخذتها أنا برنا فى ذراعيها وقبلت رأسها ، فانحنت آشا واحتضنت قدمى خالتها ولمستها برأسها مرات متكررة ثم صاحت « خالتى ، صبى بركاتك على لعلى أستمد القوة منها ، فلم يدر بخلدى من قبل أن من الممكن أن يحتمل بشر كل هذا الألم ، يا الهى ، الى متى كتب على أن أظل أتألم هكذا ! » .

وجلست أنا برنا على الأرض حيث رقدت آشا منبطحة عند قدميها ، فرفعت رأسها الى حجرها وظلت جالسة لا تتكلم وهى تصلى فى داخلها وراحتاها ملتصقتان .

وبدا كأن صلاتها الصامتة المشحونة بالحب تنساب كالبركة فى أعماق قلب آشا فتملؤها سلاما كانت تبحث عنه من أمد طويل — وأحست آشا بأن صلاة خالتها على وشك أن تقبل — فقد ترفض الآلهة ابتهالات فتاة حمقاء ولكن كيف تخيب رجاء خالتها ! وبعد فترة طويلة جلست وتنهدت

تنهيدة طويلة فقد استعادت راحتها وقوتها ، ثم التفتت الى آنا برنا وقالت :
« خالتى ، هلا أرسلت خطابا الى بيهارى أخى زوجى ؟ » .

فأجابتها أنا برنا : « لا ، لن أرسل له خطابا » .

— « وكيف تدعينه يعرف اذن ؟ » .

— « سوف أذهب وأراه بنفسى غدا » .

٤٦

أدرك بيهارى خلال تجواله فى الغرب انه لن يجد سلاما الا اذا شغل نفسه بعمل ما ، فلما عاد الى كلكتا كرس نفسه لتأسيس بيت لتمريض الفقراء من الموظفين ، فقد كان هؤلاء الموظفون يعيشون مع أسراتهم كثيرة العدد فى مساكن كئيبة مزدحمة فى حارات ضيقة وكانوا يقضون حياتهم المبتسرة كالسمك يلهث وهو يريد أن يتنفس فى القاع الطينى لبركة امتصها قيظ الصيف حتى كادت أن تجف . وكان بيهارى قد شعر من مدة طويلة بالأسف على هذه الجماعة الشاحبة الهزيلة وقرر انه لا أقل من أن يستفيدوا من ظل غابة صغيرة وهواء نقى بالقرب من الجانجز حين يمرضون .

وبعد أن اقتنى حديقة استأجر بعض النجارين الصينيين ليقيموا أكواخا صغيرة فوقها ، ولكنه فشل فى الحصول على السلام الذى كان ينشده ، فعندما اقترب اليوم الذى كان مقررا ليبدأ فيه تحمل المسئولية الكاملة عن ادارة بيت التمريض انكمش قلبه من الفكرة وتمتم فى احتجاج :
« ليست هناك متعة أو جمال أو انجاز فى هذا العمل — انه مجرد عبء جاف من الواجب » ولم يزعجه ما تصوره عن الجهد الذى يقتضيه هذا العمل بمثل ما أزعجه الآن .

لقد كان هناك وقت لم يكن يقلق فيه عقل بيهارى آى ترقب معين ،

وكان يستطيع بسهولة أن يشغل نفسه فى أى نشاط أو مشكلة تعرض له ، أما الآن فقد كان هناك جوع مجهول يستنفذ قواه ، جوع لا يسمح له بالتركيز على عمل من الأعمال الا اذا أشبعه ، فكان يحاول هذا العمل أو ذاك بحكم العادة ولكنه ما يكاد يبدأ فيه حتى تتملكه رغبة قوية فى أن يهرب منه .

لقد استيقظت فيه قوة الحياة التى كانت ترقد منطوية فى هدوء فى دخيلة نفسه عندما لمستها عصا بنودينى السحرية الذهبية ، وأصبحت الآن تنقب فى العالم عن الطعام كجاوردا حديث الولادة ، ذلك الطائر الخرافى الذى يمتطيه الاله العظيم فيشنو . ولما لم يكن بيهارى قد عرف هذا الطائر الخرافى من قبل فقد كان فى حيرة لا يدرى ما يفعله بنفسه . وما فائدة أن يزعج نفسه بأمر موظفى كلكتا المرضى قصار العمر !

كان الجانجز ينساب أمامه وقد ملأته الأمطار ، ومن حين لآخر كانت تتجمع سحب كثيفة فتقف لتحتضن أوراق النبات على الشاطىء الآخر ، وكان سطح الماء يلمع كسيف من الصلب يومض داكنا حينا وساطعا كاللهيب حينا آخر ، وكانت كلما شردت عينا بيهارى على جلال فصل المطر ، انفجر باب قلبه مفتوحا وبدا محفورا على صفحة السماء الزرقاء الداكنة صورة واحدة ، شعرها الأسود الفاحم الذى انتهت لتوها من غسله وهو يتدلى فى موجات سميكة تنساب على كتفيها ، وعيناها مثبتتان فى حزم ، ونظرتها الحزينة الى بيهارى — نظرة حزينة ولكنها مضيئة كما لو كانت ومضات البرق المبعثرة فى السحب كلها قد تجمعت وتركزت فيها .

وبدا لبيهارى الآن أن كل حياته الماضية التى قضاها فى يسر وراحة انما هى وقت ضاع هباء ، فكم أمسيات أسكرتها الغيوم ، وكم من ليال ظهر فيها القمر بدرا جاءت الى باب قلبه الخاوى محملة بقوارير الرحيق ،

وعادت بقواريرها دون أن تفرغ ما فيها — لا يدرى عنها شيئا ! لقد جاءت ورحلت مثل هذه اللحظات السحرية مرارا — دون أن تعزف موسيقاها أو يقام مهرجانها . وهكذا بدت له كل ذكريات السنين الماضية شاحبة عديمة الجدوى بعد أن سلبها توهج شفتى بنودينى المرتفعتين الى شفتيه كل لذة .

وبدا له أمر لا يصدقه أحد أن يمضى أحسن فترة فى حياته ظلا لماهندرا — لقد كان أصم لا يسمع اللحن الجميل الذى كان يبعثه من قلب الأرض ومن كبد السماء ألم الحب المتيقظ ، بل انه لم يكن يتخيل أن مثل هذه الموسيقى كانت ممكنة وان مثل هذا الجمال والسحر موجود الى أن وضعت بنودينى ذراعيها حول عنقه ورفعته الى عالم آخر . كيف يستطيع أن ينسى بنودينى التى قامت بهذه المعجزة ! لقد كانت نظرتها الحانية والرغبة المنبعثة من عينيها تنفذان الى الكون كله ، وتنفسها الثقيل الملىء بالعاطفة يبعث موجات من الرغبة تجرى فى عروقه ليلا ونهارا ، والاحساس بدفء بدنها اللدن يغلفه فيمتلىء قلبه نشوة تنفتح معها تلافيفه .

لم اذن كان يبتعد عن بنودينى ؟ أكان مرد ذلك انه لا يستطيع أن يفكر فى أية علاقة دنيوية يمكن أن تحفظ خبرة الجمال اللذيذة التى خلقتها فيه بنودينى سليمة ؟ ان زهرة اللوتس حين تقطف تتحرك فيها المادة الغروية وترتفع ، فكيف وأين يضعها حتى لا يتحول جمالها قبحا ؟ يضاف الى ذلك ان فكرة أن تصبح علاقته ببنودينى موضوع النزاع بينه وبين ماهندرا كانت فكرة كريهة ممقوتة لديه جعلت الأمر كله حقيرا لا يمكن وصفه . وهكذا عزل نفسه عند شاطىء الجانجز ، وكان قانعا بأن يعبد صورة حبيبته من خلال جمال الطبيعة وروعتها حارقا قلبه كالبخور على مذبح

الحب ، بل انه حتى لم يكتب لبنودينى خشية أن تصله أخبار منها قد تمزق غشاء الأحلام الجميلة التى نسجها لنفسه .

وذات صباح كان بيهارى مستلقيا تحت شجرة فى زاوية جنوبية فى الحديقة يراقب فى استرخاء القوارب وهى منهمكة فى العمل جيئة وذهابا بالقرب من مصنع قريب ، وأخذ اليوم يتقدم ببطء ، وجاء الخادم يستفسر عما اذا كان يقدم له وجبة الافطار الآن [1] ، فأجاب بيهارى « لا ليس الآن » .

وجاء رئيس البنائين كى يأخذه ليرى بناء كان فى حاجة الى أن يستشيره بشأنه فأجاب بيهارى « فيما بعد » .

وفجأة أبصر أنا برنا واقفة أمامه فقفز الى قدميه مرتبكا ، وحياها باحترام بالأسلوب الهندى الصحيح بأن ركع الى الأرض ولمس قدميها بجبهته ، فوضعت أنا برنا يدها اليمنى فى ود ومحبة على رأسه وقالت فى صوت جعلته الدموع أجشّ :

« بيهارى ، لماذا يبدو عليك الوهن ؟ » .

فأجاب بيهارى : حتى أستطيع أن أكتسب محبتك مرة ثانية يا عمتى .

وبدأت الدموع تسيل على خدى أنا برنا .

فاستفسر بيهارى فى قلق : « انك لم تتناولى طعامك يا عمتى ، أليس كذلك ؟ » .

— « لا ، فلم يحن الوقت بعد » .

— « اذن دعينى أعد لك ما تطهينه هنا [2] ، فتتاح لى على الأقل الفرصة مرة أخرى لأستمتع بما تطهوينه ، وأشاركك طعامك » .

---

(1) تقدم وجبة الافطار فى البيت الهندى المتوسط لطعام الافطار والغذاء .

(2) تطهو أرامل الهنود الذين يسيرون حسب التقاليد الصحيحة طعامهن بأنفسهن .

وامتنع بيهارى عامدا عن السؤال عن أخبار آشا أو ماهندرا ؛ فقد منعته كبرياؤه المجروحة من أن تدعه يناقش موضوعا أغلق عليه منذ اليوم الذى أوصدت فيه أنا برنا الباب بفظاظة فى وجهه .

فلما انتهت الوجبة قالت أنا برنا : « ان القارب ينتظر عند المرسى يا بيهارى ، تعال معى الى المدينة » .

فسألها بيهارى : « وما حاجتى الى الذهاب الى كلكتا ؟ » .

— « أختى مريضة جدا وتريد أن تراك » فذعر بيهارى وسألها :

— « وأين ماهندرا ؟ » .

— « انه ليس فى المدينة ، فلقد ذهب الى الغرب » .

وشحب لون بيهارى ولم يقل شيئا .

فسألته أنا برنا : « ألا تعرف القصة كلها ؟ » .

— « بعضها ، ولكن ليس الجزء الأخير منها » .

فذكرت له أنا برنا قصة هروب ماهندرا مع بنودينى ، فتلاشى جمال الأرض والسماء وروعتهما كلها أمام ناظريه . وتحول العسل الذى جمعه خياله وخزنه الى مرارة . اذن فقد كانت الساحرة تلعب به ذلك المساء وهى تخدعه باستسلامها الساخر ! لقد تركت بيتها فى القرية وهربت مع ماهندرا الى الغرب !

يا للمخلوقة عديمة الحياء ! بل انه ليستحق العار أكثر منها ، فهو الأحمق الذى سمح لنفسه بأن تخدعه .

لم يعد يبدو له أى شىء جميلا — حتى السماء الملبدة بغيوم شهر يولية أو الليالى الصافية التى يبزغ فيها البدر . فلقد انفجرت فقاعة السحر وتلاشت .

سأل بيهارى نفسه : « كيف أستطيع أن أواجه آشا البائسة ؟ » وشعر بالضيق وهو يمر بالرواق وقد أحس بالعزلة والكآبة التى كانت تخيم على المنزل الذى هجره سيده ، وتغلب عليه شعور الخجل من سلوك صديقه حتى وجد من العسير أن ينظر فى وجوه الخدم ، ونكس رأسه وهو لا يجرؤ على أن يحيى الخدم بالأسلوب اللطيف الذى اعتاده وسار يجر قدميه كما لو كان عازفا عن دخول الجناح الداخلى ، اذ كيف يستطيع أن يحتمل رؤية آشا وقد غمرها الأسى وانكمشت من الخجل وتعرضت لخزى التحقير العام وحرمت من أعز كبرياء لدى المرأة ، بعد أن هجرها ماهندرا وألقى بها على مزبلة فضول الآخرين وشفقتهم !

ومع ذلك فلم يكن أمامه وقت للانهماك فى هذه الشكوك والمخاوف ففى اللحظة التى دخل فيها الجناح الداخلى أسرعت آشا اليه وقالت : « ادخل بسرعة يا أخا زوجى فان أماه فى ألم شديد » .

كانت هذه أول مرة تتحدث فيها آشا الى بيهارى مباشرة ، فعندما تهب رياح المصائب تكفى لفحة من الهواء لكى تمزق حجاب التحفظ ، كما ان الفيضان يجمع على نفس شريط الشاطىء الضيق أولئك الذين فرقهم التيار .

وصدم انعدام التحفظ الفجائى عند آشا بيهارى وآلمه ، ربما كان فى حد ذاته أمرا بسيطا ولكنه بدا لبيهارى دليلا على ما سببه ماهندرا من خراب شديد ؛ وكما كان منظر مدخل البيت المهمل شاهدا على كارثة حلت بالأسرة ، فكذلك سيدته خلت عن نفسها وداعة السلوك ورقته بل لم يكن لديها من الوقت حتى لتأسف على تلك الخسارة .

ودخل بيهارى حجرة راچلاكشمى ، وكانت قد أفاقت لتوها من نوبة اختناق ربوية ، وبالرغم من أنها كانت لا تزال شديدة الشحوب فقد كانت تشعر بشيء من التحسن ، وعندما انحنى بيهارى ولمس قدميها أشـارت اليه بأن يجلس بالقرب منها وقالت له ببطء : « كيف حالك يا بيهارى ؟ لقد مر وقت طويل منذ أن رأيتك آخر مرة » .

فسألها بيهارى : « لمَ لم تخبرينى بمرضك قبل الآن ؟ اننى ما كنت أتأخر عن أن أكون الى جانبك » .

فقالت راچلاكشمى فى صوت ضعيف : « كما لو كنت لا أعرف ذلك يا بنى ؟ اننى لم أحملك فى رحمى ، ومع ذلك فليس هناك فى هذا العالم من هو أقرب الى منك » .

وسقطت الدموع من عينيها وهى تتكلم . وتأثر بيهارى كثيرا فنهض مسرعا وأدار وجهه نحو الكوة التى فى الحائط وهو يتظاهر بفحص قوارير الدواء وأوانيه حتى يعود الى حالته الأولى ؛ وبعد أن استرد قواه التفت الى راچلاكشمى وحاول أن يجس نبضها .

قالت راچلاكشمى : « لا تهتم بنبضى يا بيهارى ، وانما قل لى : لماذا أصابك الهزال هكذا ؟ » .

ورفعت يدها الهزيلة ومرت بها فوق عنقه ملاطفة .

فأجاب بيهارى : « لن تكسى عظامى لحما حتى أطعم مرة ثانية بكارى السمك الذى تصنعينه بيديك ، ولهذا أرجوك أن تشفى سريعا ، ولسوف أحتفظ بالنار معدة فى الوقت نفسه » .

فأجابت راچلاكشمى وهى تبتسم شاحبة : احتفظ بالنار معدة يا بنى ، ولكن ليس للطهو .

ثم استطردت تقول وقد أخذت يد بيهارى فى يدها وهى تضغطها

« تزوج يا بيهارى — فليس هناك من يهتم بك فى البيت » ثم التفتت الى أنا برنا وقالت : « يا أخت زوجى ، يجب أن تبحثى عن عروس لبيهارى ، ألا ترين كيف أصبح هيكلا عظميا ! » .

فأجابت أنا برنا : « اشفى سريعا يا أختى ، فتزويجه هو امتيازك وحده ، أما نحن فنشترك كلنا فى الاحتفال » .

— « لقد انتهيت يا أخت زوجى ، وأنا آتمنكم جميعا على هذه المسئولية ، عليك أن تجعلى بيهارى سعيدا ، فانى لم أستطع أن أرد له دينى — فليباركه الله ! » .

ثم وضعت يدها اليمنى على رأس بيهارى . ولم تستطع آشا أن تحتمل المنظر أكثر من ذلك فخرجت من الحجرة وهى تبكى ونظرت أنا برنا بعطف الى بيهارى من خلال عينين معتمتين من الدموع .

ثم نادت راجلاكشمى كما لو كانت قد تذكرت شيئا :

« يا زوجة ابنى ! يا زوجة ابنى ! » وعندما أسرعت آشا الى الحجرة قالت لها : « أرجو أن تكونى قد أعددت كل شىء لعشاء بيهارى ؟ » .

فتدخل بيهارى قائلا : « لا تقلقى يا أماه ، انهم جميعا يعرفون كل شىء عن ابنك الشره ، فما أن دخلت البيت حتى رأيت بامى [1] تسرع بسلة محملة بالكوى [2] ببطروخها الضخم وكل هذا دليل لا يخطىء على أن شهرتى فى البيت ما زالت كما هى » .

ثم ضحك ونظر الى آشا التى لم تعد تنكمش خجلا ، بل قابلت مزاحه بابتسامة ودية . فلم تكن قد أدركت حتى هذا اليوم قدر بيهارى عند سكان هذا البيت ، بل كانت غالبا ما تستاء من وجوده كزائر غير مرغوب

---

(١) احدى الخدم .

(٢) اسم سمكة يحبها البنغاليون كثيرا .

فيه ، ولم تهتم حتى باخفاء عدم سرورها من وجوده ، وملأها الخجل وتأنيب الضمير عندما تذكرت ذلك وحاولت التعويض بتعبيرها عن تقديرها ومحبتها بصورة لا تحفظ فيها .

وقالت راچلاكشمى : « يا أخت زوجى ، أرجو أن تشرفى على الطهو بنفسك ، فلن يعرف الطاهى كيف يعد الصحاف ويجعلها حارة ومتبلة بالقدر الذى يعجب ابننا هذا المنحدر من اقليم البنغال الشرقى » [1] .

فاحتج بيهارى قائلا : « ماذا ؟ تأتى أمك من فكرامبور وتجرؤين أنت على أن تسمى ولدا من نادية ولدا من اقليم البنغال الشرقى ! » .

وتبودلت دعابات كثيرة فى هذا المجال وانزاح بعد وقت كابوس الكآبة الوحشية التى كانت تطل على البيت . ولم يتكلم أحد عن ماهندرا مع انه كان قبل ذلك يكاد يكون موضوع الحديث الوحيد عندما كانت راچلاكشمى تناقش أى شىء مع بيهارى ، بل كثيرا ما كان ماهندرا يعاكس أمه على تعلقه هذا به ، أما اليوم فان راچلاكشمى نفسها لم تنطق مرة واحدة باسم ماهندرا ، ودهش بيهارى فى سره .

وعندما رأى بيهارى ان النوم قد أخذ يغالب راچلاكشمى من أثر التعب خرج من الحجرة وقال لأنا برنا « ان مرض أماه مرض خطير » .

فأجابته أنا برنا وهى تجلس بالقرب من النافذة : « هذا واضح » واستمرت صامتة وقتا طويلا ثم قالت فجأة : « ألست تعتزم أن تذهب لاحضار ماهندرا يا بيهارى ؟ فليس هناك وقت نضيعه » .

وسكت بيهارى ثم أجاب : « سوف أنفذ ما تأمرين به . هل يعرف أحد عنوانه ؟ » .

---

(١) يسخر سكان البنغال الغربية من سكان البنغال الشرقية كما يحدث بين الانجليز وسكان سكتلندا ففيكرامبور Vikrampur تقع فى وسط البنغال الشرقية بينما تقع نادية على الحدود بين الجزءين .

— لا أظن ؛ وعليك أن تكتشفه — شيء آخر يا بيهارى . انظر الى وجه آشا — انها تبدو كمن جرح جرحا مميتا ، وأظن أنها لن تعيش ان لم تنقذ ماهندرا من قبضة بنودينى » .

وفكر بيهارى فى نفسه وهو يضحك ضحكة مرة : « انقذه حقا ! ومن سوف ينقذنى يا الهى ؟ » .

ثم أجاب بصوت مسموع : « أى سحر يمكن أن أستخدمه يا عمتى لكى أحمى ماهندرا من فتنة بنودينى الى الأبد ؟ ان مرض أمه قد يوقفه أياما معدودات ، ولكن كيف يضمن الانسان انه لن يهرب بعد ذلك ؟ ».

وفى تلك اللحظة دخلت آشا وقد حجبت نصف وجهها ، وجاءت ببطء وجلست بالقرب من قدمى خالتها ، فقد كانت تظن انهما يتحدثان عن مرض راجلاكشمى وكانت حريصة على أن تصغى الى كل ما يقولانه . كان وجهها الصغير وقد اغتسل فى مياه التوبة المقدسة يشرق بعظمة بطلات الزمن القديم الخالدات ، انها لم تعد طفلة صغيرة فقد جعلها تعميد الحزن كمن لا يظهر عليها الكبر كطراز النساء الطاهرات اللائى تتحدث عنهن الأساطير

وتحدث بيهارى مع آشا بشأن العلاج الذى وصف لراجلاكشمى ، وعندما غادرت آشا الحجرة تنهد بيهارى تنهيدة عميقة وقال لأنا برنا : « سوف أنقذ ماهندرا » .

واتجه الى بنك ماهندرا واكتشف انه كان يسحب فى الآونة الأخيرة أموالا من فرع البنك فى الله آباد .

٤٨

عندما وصلت بنودينى وماهندرا الى المحطة ، اتجهت بنودينى مباشرة الى عربة فى الدرجة الثالثة المتوسطة محجوزة للسيدات واتخذت مقعدها فيهـــا .

واحتج ماهندرا قائلا : « ما هذا ؟ سوف أحصل لك على تذكرة فى الدرجة الثانية » .

فأجابت بنودينى : « ليس ذلك ضروريا فسأكون مستريحة هنا » .

ودهش ماهندرا فقد كان يعلم أن بنودينى لا تحب حياة الزهد ، وكانت تتراجع عادة أمام الفقر والتعب ، كما كان يدرك انها تخجل من ظروفها العسيرة ، وان مما يجذبها اليه ما لأسرته من ثروة ومعيشة طيبة ، وكان يستثيرها دائما ترقب ما كانت ستجده لو انها كانت سيدة هذه الثروة والبذخ ، فلماذا كانت اذن تلفظ هذه الثروة وهذا البذخ الذى صار لها الآن وتتعلق فى ترفع بمتاعب الحرمان ومخازيه ؟ .

لقد كان واضحا انها تجهد نفسها لتقلل من اعتمادها على ماهندرا الى أقل حد ممكن ، كانت لا تريد أن تأخذ منه شيئا — ذلك الذى جرها الى الأبد من مكانها الشرعى فى المجتمع بسبب افتنانه بها — كان يمكن أن يبدو ثمنا لاسقاطها — ولم تكن حين كانت تقيم عند راچلاكشمى تتجنب كل المحرمات المحظورة على المرأة الهندية ، أما الآن وبعد كل هذا الوقت ، فقد أخذت تنكر على نفسها كل راحة ونعيم ، فكانت لا تتناول الا وجبة واحدة فى اليوم ، ولا ترتدى الا ساريا خشنا من القطن ، ولم تعد تنهمك فى موهبتها الخصبة — موهبة الفطنة وسرعة البديهة والرد المفحم ، فصارت شديدة التحفظ ، شديدة الانزواء منطوية صارمة حتى أصبح ماهندرا يخشى أن يوجه اليها أى كلمات حتى الكلمات العادية ، وقد دهش وقلق وغضب من هذا التغير ، وأخذ يقول لنفسه : لقد بذلت كل جهدها لتنزلنى كفاكهة نادرة من أعلى فرع فى الشجرة ، فماذا تقصد الآن برمى الفاكهة فى التراب حتى دون أن تشمها ؟ » .

وسألها ماهندرا : « الى أن تريدين أن أشترى تذاكر السفر ؟ » .

— « أى مكان فى الغرب ، فحيثما يقف القطار غدا صباحا سننزل منه » .

ولم يكن ماهندرا يستسيغ مثل هذا التجول الذى لا هدف له ؛ وكان افتقاد الراحة بالنسبة له كفيلا بافساد كل شىء ، وكان لا يشعر بالراحة الا فى بلدة كبيرة يمكن الحصول فيها على مساكن مريحة ، ولم يكن فوق ذلك ذكيا أو واسع الحيلة بحيث يستطيع أن يساعد نفسه بنفسه ، ولذلك فقد كان متأذيا وعصبيا عندما ركب القطار ، وكان كأنه على خطاف المشد خشية أن تهرب منه بنودينى وتنزل من العربة عند أية محطة فرعية .

وهكذا أخذت بنودينى تتجول من مكان الى آخر وماهندرا يتعلق بها على مسافة محددة كتابع لكوكب منحوس .

وكانت لبنودينى القدرة على اكتساب المحبة وتكوين الأصدقاء ، فاستطاعت بأسرع ما يمكن أن تتحدث الى النساء الأخريات فى عربتها حديثا وديا ، واكتشفت ما كانت تريد معرفته عن الأماكن التى أرادت أن تزورها ، فلما نزلت فى استراحة المسافرين لم تكن فى حاجة الى رفيقاتها ليرينها الأماكن والمناظر المختلفة ، بل لم تكن فى حاجة كبيرة الى ماهندرا الذى سرعان ما اكتشف انه لا عمل له فى الواقع الا شراء تذكرة سفر لها كلما اقتضى الأمر ، وقد تألم من احساسه بأنه لا لزوم له وأخذ يشعر بأن ذلك يزيد من عدم أهميته فى عينى بنودينى ، وقد جلس اليوم بأكمله عابسا يصارع أمانيه التى لا جدوى منها ، وقد حاول فى أول الأمر أن يسعى خلف بنودينى عندما خرجت لمشاهدة المناظر مع رفيقاتها ، ولكنه سرعان ما شعر بالتعب ، وفضل أن يمضى اليوم فى ضجعة طويلة بعد وجبات الطعام بينما راحت بنودينى تتجول فى المدينة . من كان يظن ان هذا العزيز المدلل لأم حانية مغرمة يمكن أن يهبط الى مثل هذه الحالة !

وذات يوم بينما كانا فى محطة سكة حديد الله آباد ينتظران قطارا

تأخر صدفة ذهبت بنوديني لتراقب القطارات الأخرى وهى تذهب وتجىء تسلية لها وتمضية للوقت ، وكانت وهى تتجول هنا وهناك تسلك سلوك من كان يبحث باستمرار عن شخص ما ؛ وكانت على أى حال تجد من السلام والراحة فى هذا البحث المستمر أكثر مما كانت تجده فى وجودها المتعطل فى مسكنها القذر المنعزل فى كلكتا حيث كان عليها أن تكبت نفسها دائما وتقتلها قتلا .

وفجأة وقع بصرها على لوحة اعلانات بريدية فى صندوق زجاجى على الحائط تعلق عليها الخطابات التى لم توزع حتى يراها أصحابها ، وقد لاحظت بنوديني مظروفا بينها معنونا باسم « بيهاريلال » ، وبالرغم من أن الاسم لم يكن اسما غير عادى ولم يكن هناك ما يدعوها الى أن تفترض انه كان بيهارى الذى كانت تبحث عنه ، فقد افترضت ذلك بالفعل ، وبعد أن عهدت الى ذاكرتها بالعنوان المكتوب على المظروف ، عادت الى حيث كان يجلس ماهندرا وقد بدا عليه اليأس والقنوط وقالت : « سوف أقيم بضعة أيام أخرى قليلة فى الله آباد » .

وكان شعوره المهين بأنه كان مقيدا بحبـــل وأن مقوده كان فى يد بنوديني تسحبه أينما ذهبت — حتى دون ترضية تلقى اليه لتلطف من الجوع القارص فى أمعاء رغبته — كان هذا الشعور يلهب عقله منبها كبرياء رجولته دافعا اياها الى الثورة ، وهكذا — بالرغم من أنه لم يكن يفضل شيئا على اطالة وجوده فى الله آباد حيث يستطيع أن يقيم فى راحة — فقد ثار على خضوعه لكل نزوة تمر بخيال بنوديني واستشاط غضبا وقال : « لا يمكننا أن نرجع على أعقابنا الآن ، لقد بدأنا ويجب أن نستمر » .

فأجابت بنوديني بحزم : « أنا لن أذهب » .

— « حسنا ، يمكنك اذن أن تبقى وحدك ، أما أنا فسأستمر قدما » .

فقالت بنودينى : « بل ان ذلك يلائمنى تماما » ثم أشارت دون أن تضيع كلمة أخرى الى أحد الحمالين فحمل متاعها وخرجت من المحطة .

واستمسك ماهندرا بكبرياء رجولته وظل جالسا على المقعد وهو شديد العبوس . وقد بقى جامدا متوترا لا يتحرك وهو يرى بنودينى ، ولكنه عندما اختفت دون أن تنظر خلفها قفز واقفا وأسرع فوضع متاعه على رأس حمال وجرى وراءها . وعندما خرج من المحطة وجدها جالسة بالفعل فى عربة فأمر الحمال بوضع متاعه فى أعلى العربة ودون أن يتفوه بكلمة قفز الى مقعد السائق ، وقد فضل أن يجلس بجوار السائق على أن يواجه بنودينى بعد أن كان قد ازدرد خزى الهزيمة .

وسارت العربة فى طريقها . وبعد ساعة كانت قد تركت المدينة ومبانيها خلفها ومع ذلك فقد استمرت فى سيرها وعلى جانبيها الحقول المزروعة . وخجل ماهندرا من أن يستفسر من السائق الى أين هم متجهون خشية أن يظن أن المرأة التى بداخل العربة هى السيدة صاحبة الأمر وانه ما هو الا مجرد تابع لم تهتم حتى بأن تخبره أين هما متجهان ؛ ولذلك فقد احتفظ بفمه مغلقا وجلس على مقعد السائق عابسا متجهما .

وأخيرا وقفت العربة عند فيلا منعزلة على شاطىء نهر الجامونا ؛ فصعق ماهندرا . فيلا من كانت هذه وكيف عرفتها بنودينى ؟

كان البيت مغلقا ، وبعد نداء وصياح كثير ظهر حارسه العجوز يتمتم : « ان المالك لا يقيم بعيدا — فاذا أذن لكم فتحت لكم البيت » .

ونظرت بنودينى الى ماهندرا ، فقال على الفور وقد فرح كثيرا من أمل المكوث فى هذه الفيلا الجميلة ذات الطابع الشاعرى : « تعالى ، دعينا نذهب الى صاحب البيت ، بل يمكنك أن تنتظرى فى العربة عند الباب بينما أذهب اليه واتفق معه على كل شىء » .

فأجابت بنودينى : « لا أستطيع أن أجول أكثر من ذلك ، فسوف أستريح هنا بينما تذهب أنت وتتفق على كل شىء ، والمكان يبدو آمنا وليس هناك ما يخشى منه » .

فذهب ماهندرا فى العربة ، وشغلت بنودينى الرجل العجوز بالحديث وهى تستفسر عن أولاده وأحفاده ، وعن عددهم وما يقومون به من عمل ، وكيف يعيش الأولاد وأين تزوجت البنات . وعندما علمت أن زوجته متوفاة أمطرت عليه عطفها وعبرت عن قلقها الكبير من ألا يكون هناك من يعنى بأمره ، ثم سألته عرضا فى خلال حديثها عن هذا وذاك « ألم يكن السيد بيهارى يقيم هنا ؟ » .

فأجاب الرجل العجوز : « نعم ، لقد كان هنا بضعة أيام . وهل تعرفه السيدة ؟ » .

فقالت بنودينى : « انه قريب من أقربائنا » .

ولم يدع وصف الرجل العجوز لبيهارى ولأساليبه شكا فى عقل بنودينى . فجعلته يفتح كل الغرف وعرفت منه الحجرة التى كان بيهارى ينام فيها ، والحجرة التى كان يتخذها للجلوس . ولما كان البيت قد ظل مغلقا منذ رحيله فقد بدا لها أن وجوده غير المرئى ما زال يتردد فى الحجرات وان الرياح المارة لم تقصه عنها ، فأخذت تتنفس وتملأ قلبها بالهواء الساكن الذى أثقله نفس بيهارى وشعرت به وهو يحيط بأطرافها .

ولم يستطع الرجل العجوز أن ينبئها بأى خبر عن مكان بيهارى الحالى ، وقد يعود الى الفيلا ، وطمأن بنودينى مؤكدا لها بأنه سوف يسأل صاحب الفيلا اذا كان يعرف شيئا عن مكانه وسوف ينقل اليها ما يقوله .

ظلت الهيملايا سنوات لا حصر لها وما زالت تمد الجومانا بالمياه من ثلوجها الدائمة ، وكذلك الأساطير الشاعرية التى نسجتها أجيال لا نهاية لها من الشعراء حول شاطئيه دائمة لا تنقطع ، كما يطن خريره بآلاف الايقاعات والنقيرات وتنعكس فى تلاعب تثنيه وأمواجه خفقات ملايين القلوب .

وعندما جاء ماهندرا فى المساء وجلس على شاطىء النهر ، حرك الجو الخيالى المشحون أمواج الرغبة فى دمه وتحركت أعصابه واشتعلت عيناه وثقل تنفسه من الانفعال وبدا كأن فينا (*) الشمس الغاربة الذهبية تهتز أوتارها بلحن الألم الحاد .

وبدأت الرمال على امتداد الشاطىء المهجور تكف تدريجا عن التلألؤ بألوان الشفق المتعددة حتى حجبها الظلام . وجلس ماهندرا وعيناه شبه مغمضتين ، وأحس كأنه فى برندابان يستطيع أن يرى البقر وهو يعود من مرعاه فى المساء ووراءه سحب الغبار المرتفعة ، ويسمع خوارها وهى تدخل حظائرها ، كان الفصل فصل الأمطار وسرعان ما تلبدت السماء بالغيوم ، وظلام الليل فى بقعة غير مألوفة يبدو أكثر من مجرد ستار أسود ، فهو يبدو كما لو كان يخفى تحته أسرارا غامضة كثيرة ، وتبدو الأشكال غير الواضحة والظلال المميزة كأنها تهمس بلغة غريبة مدغمة ، وبدأ ضوء الرمال الخافت الشاحب يتقهقر على الشاطىء المقابل فبدا السكون يشمل صفحة الماء وأوراق الأشجار الكثيفة المنتشرة فى الحديقة كجماعات غامضة تحيط بماهندرا فى هذا المساء المظلم المغيم من شهر يولية .

(*) اداة موسيقية هندية .

وتذكر أناشيد شعراء فايشناف العديدة التى يحدث فيها — كما فى مثل هذه الليلة المظلمة الكثيفة بغيومها — أن تهرب الفتاة العذراء التى هجرها الحبيب من البيت لتحافظ على ملتقاها مع العاشق على شاطىء الجامونا بالذات ، وهناك تتلكأ على الشاطىء وهى تتساءل كيف تعبر النهر الممتلىء وتنادى « أرجوك أيها النوتى أن تحملنى عبره ! » وقد بعثت هذه الصرخة التى ظل صداها يتردد عبر الأجيال رنينا فى قلب ماهندرا « أرجوك أيها النوتى أن تحملنى عبره ! » .

فها هى ذى على الشاطىء الآخر ، بعيدة جدا — ومع ذلك فقد استطاع ماهندرا أن يتبينها جيدا — انها عذراء قطيع البقر الخالدة التى لا يظهر عليها الكبر أو الزمن — لقد تعرف عليها ماهندرا فى الحال . انها بنودينى . الأنثى الخالدة تكدح ساعية خلال العصور تبحث عن عشيقها ، وقد أنهكها الألم وأذهلها الشوق ، وتهتز نبضات الرغبة ، تسعى خلال الشعر وخلال الغناء حتى تقف هناك على الشاطىء الآخر وتصيح : « احملنى عبره أيها النوتى ! » ولكن الام تستمر هناك فى الظلام تنتظر القارب !

ومن خلال شق فى السحب ابتسم القمر الذى كان قد مضت على ولادته ثلاثة أيام وهو يلقى بسحره السماوى على النهر والسماء مذيبا حواجز الزمن والمكان فتلاشى الماضى بحمولته من الذكريات والمستقبل بحمله من النتائج ولم يبق الا الحاضر . الجامونا ينساب بمياهه الفضية وماهندرا ينتظر على هذا الشاطىء وبنودينى على ذاك ، وانمحى كل ما عدا ذلك .

وتملكت ماهندرا نشوة الرغبة ، ففى ليلة مثل هذه لا تستطيع بنودينى أن تصده ولا تستطيع الا أن تدخل مثل هذه الجنة التى هى لها وحدها ، ولم يلبث أن قفز الى قدميه واتجه مباشرة الى حجرة بنودينى .

كانت الحجرة تملؤها رائحة الزهور الذكية ، وكان ضـوء القمر يسطع من خلال النافذة المفتوحة على الفراش الأبيض الذى رقدت عليه بنودينى وقد تزينت بالزهور ، زهرة فى شعرها ، وزهرة على عنقها ، ونطاق من الزهور حول وسطها — كنبات متسلق فى ينبوع أثقله ما يحمل من زهرات فاتنى . ورأى ماهندرا ذلك يهذى مما به من حمى الاثارة .

وصاح فى صوت يخنقه الانفعال : « بنود ، لقد كنت أنتظرك على شاطىء الجامونا ، وبرز القمر وهمس فى أذنى انك تنتظريننى هنـا ، وها أنذا ! » .

ثم تقدم ليجلس على السرير فجفلت بنودينى وأسرعت بالجلوس ومدت ذراعها الأيمن لتدفعه عنها وصاحت : « اذهب عنى ، اخرج من هنا — اياك أن تجرؤ على الجلوس فوق السرير ! » .

وصعق ماهندرا فقد استوقفته هذه كقارب حمل بأكثر مما يستطيع حمله فالتصق بشاطىء رملى . وحدق صامتا ، لا يستطيع أن ينطق بصوت ، وقفزت بنودينى واقفة وقد خشيت أن يعتدى على سريرها ووقفت أمامه .

وانفجر ماهندرا آخر الأمر وقال : لماذا تزينت هكذا اذن ؟ من تنتظرين ؟

فأجابت بنودينى ممسكة بقلبها : « أنتظره . أنتظر من يسكن هنا ، هنا فى داخلى » .

— « ومن هو ؟ بيهارى ؟ » .

— « اياك وأن تتجاسر على النطق باسمه بلسانك » .

— « أمن أجله تتجولين فى الغرب ؟ » .

— « نعم ، من أجله » .

— « وهل تعرفين أين هو ؟ » .

— « لا ، ولكنى سوف أعرف » .

— « لن أدعك تعرفين » .

— « وحتى لو فعلت فلن تستطيع أن تنزعه من قلبى » .

ثم أغمضت عينيها كما لو كانت تؤكد لنفسها مرة ثانية أنه هناك فى داخلها .

واستشاط ماهندرا من الغضب اذ لقى هذا الصد العنيف فى افتنانه بهذه السيدة المريضة بالحب المكللة بالزهور ، فضم قبضتيه وصاح : « سوف أقطعه من قلبك بمديتى » .

فأجابت بنودينى بهدوء : « انى لأفضل أن يكون نصل مديتك فى صدرى عن أن يكون فيه حبك » .

فصاح ماهندرا : لم لاتخافيننى على الأقل ؟ ومن ذا الذى يحميك منى هنـــا ؟

فأجابت بنودينى : « أنت ! انك أنت الذى سوف تحمينى من نفسك» .

— « اذن فلا زلت تؤمنين بى ايمانا شديدا وتثقين فى ثقة كبيرة » .

— « لو لم تكن عندى مثل هذه الثقة لكنت وضعت حدا لحياتى منذ أمد طويل ولما كنت جئت معك » .

فصاح ماهندرا : « ولمَ لم تضعى حدا لحياتك ؟ لم وضعت أنشوطة الثقة هذه حول عنقى وجررتنى من بيتى ؟ يا للخير الكثير الذى كان سيسببه موتك — فكرى فيه ! أرجوك » .

— « أعرف ذلك — ولكن طالما كان يعيش فى الأمل فى أن أرى بيهارى فلن أستطيع حتى أن أموت » .

— « ولن يموت كذلك أملى فى أن أستحوذ عليك — حتى تموتى ، فليس هناك عتق لى من هذا الرق . ولسوف أصلى من الآن من كل قلبى من أجل موتك — فلا تكونين لى ولا لبيهارى ! ألا فلتختفى من

الوجود فتعطينني بذلك حريتي ! ان أمي تنــوح وزوجتي تبكي ، ودموعهما كالحديد الأحمر الساخن على روحي . وانني لا أستطيع حتى أن أمسح دموعهما الى أن تختفي من الوجود ؛ الى أن تكوني بعيدة عن متناول يدي ، بل عن متناول يد أي انسان آخر على هــذه الأرض ! » .

واندفع من الحجرة وهو يمزق نسيج الحلم الذي نسجته بنوديني حولها ، ووقفت هي صامتة تحدق في الخارج ، صوب السماء حيث بدا ضوء القمر خاليا من كل سحره وبدت الحديقة بأحواض زهورها ووراءها امتداد الرمال والمياه المظلمة ووراء ذلك ظلام الشاطىء الآخر ، بدا كل هذا كمجرد رسم بالقلم الرصاص على ورقة بيضاء دون حياة ودون معنى .

وعندما تبينت أثر السحر المميت الذي ألقته على ماهندرا ، تملكتها حمى من الاضطراب ، فاذا كانت من القوة بحيث استطاعت أن تعصره وتمزقه وتقتلعه من تربته بجذوره وفروعه كالعاصفة ، فلم لم تستطع أن تجر بيهاري الى بابها كما فعلت مع ماهندرا المجنون ؟ فلم هذا العويل ، عويل الشوق الذي لا طائل تحته ، الذي يدق بابها ليلا ونهارا ؟ لمَ يتطفل صرير الألم على قلبها من الخارج فلا يعطيه وقتا يبكي فيه أحزانه ؟ كيف تستطيع أن تحتمله طوال حياتها ؟ وأين هو السحر الذي تهدىء به هذا الألم ؟ .

وانطلقت تمزق أكاليل الزهور التي كانت قد كللت بها نفسها ، فقد سقطت عليها نظرات ماهندرا المتدلهة فدنستها .. كل قوتها وكل كدحها ، وهكذا صارت حياتها نفسها هباء ، وهذه الحديقة وضوء القمر هذا وهذا الجامونا ؛ بل وكل جمال هذه الأرض ! كل هذا هباء لا معنى له ! .

ومع ذلك ، فعلى الرغم من هول هذه التفاهة فقد ظل كل شيء على

ما هو عليه يجرى فى مجراه العادى دون انحراف عنه فى أى مكان — فغدا سوف تشرق الشمس وتغرب كما فعلت ذلك أمس ، ولن تنسى الطبيعة أن تؤدى أتفه عملية لها ، وسوف يستمر بيهارى جامدا وبعيدا كما هو ، ما زال يعلم الغلام البراهمى درسه الجديد فى كتاب المطالعة !

وسالت الدموع على خدى بنودينى . لم تضيع قوتها وألمها فى محاولة تحريك كتلة من الجرانيت ؟ قد يذوب قلبها فى بركة من الدم ولكن الحجر لن يتحرك قيد أنملة .

٥٠

لم يستطع ماهندرا أن ينام الليل كله ، وأخيرا نعس عند الفجر من شدة الاعياء والتعب ، واستيقظ حوالى التاسعة والنصفه فأسرع بالجلوس فى الفراش وقد أحس على الفور بطعنة الألم فى قلبه التى لابد انها أقلقته حتى فى نومه بصورة غامضة . وأخذت حوادث المساء السابق تمر تدريجا أمام ذهنه واضحة صخابة وهى تلقى بظلها الحزين على روحه التى كانت قد أنهكها التعب من عدم النوم الكافى ، وبدت له الشمس والأرض بل وحياته كلها كئيبة شاحبة . لم أحنى ظهره تحت كل هذا الحمل — العار الذى لحقه من هجر بيته والتقريع المرير نتيجة تجاوزه الحدود الأخلاقية والقلق الذى يتأتى من الحياة الملتوية ؟ لماذا ؟ وأخذ فى ضوء شمس الصباح الذى أشرق عليه فى غير عطف أو حنان يحدق فى قلبه فوجد انه لا يحب بنودينى فعلا .

ونظر الى الشارع فى الخارج ورأى جلبة الخلية البشرية وهى تعمل بعد راحة الليل وسكوته ، وبدا له أن من الحماقة التى ليست بعدها حماقة أن يتلوى وحده فى ذلة ومسكنة من أجل حب تافه عند قدمى امرأة لا تعيره

التفاتا ، وأن يدع احترامه لذاته يتمرغ فى الطين . نعم ، لقد كان لجنون الاستثارة رد فعله الذى لا مفر منه فأرادت الروح المنهكة الحائرة أن تهرب من الهدف الذى كانت تشتهيه منذ فترة وجيزة فان المد يترك خلفه مادته الطينية عند شاطىء العقل وما كان محببا الى النفس ليصبح فجأة شيئا ملفوظا . وقد وجد من العسير الآن أن يفهم ما جعله يعفر وجهه فى التراب ويحقر نفسه هذا التحقير ، وقال لنفسه : « اننى أفضـــل من بنودينى فى كل ناحية . فلم أجرى وراءها كسائل وضيع يسعى ليلا ونهارا فى ذلة ومسكنة ؟ أى شيطان زرع هذه الغباوة فى عقلى ؟ » .

وفجأة بدت له بنودينى مجرد امرأة ، كأية امرأة أخرى — فتلاشى تفردها وروعة جمالها الذى اجتمع فيه سحر الشعر كله ، بل وجمال هذه الأرض وعظمة الخيال ، كل ذلك تلاشى كسراب ، وتحطمت التعويذة وتملكت ماهندرا الآن الرغبة فى العودة فى أن يعود الى سلام البيت وراحته وما فيه من محبة بدت له الآن حلوة حلاوة لا نهاية لها . وقال لنفسه : « كم تبلغ بنا الحماقة عندما نخطىء فنظن السلام خمولا والعمق ركودا ، ونجرى ونحن نلهث نطارد المتعة الزائفة التى لا تسبب لنا سرورا مقيما ! سوف أعود واليوم بالذات وسوف أنظم الأمور بحيث تستطيع بنودينى أن تقيم حيث تحب ، وسوف أكون حرا » .

« سوف أكون حرا » — فما أن تحول هذا التصميم الى كلمات تلفظ بها حتى سرت فى اطاره أثارة من المتعة ، وخف ثقل التردد الجائر الذى أثقل عليه طويلا . لقد كان طوال هذه الأيام مفلسا لا يستطيع أن يصل الى قرار ، ولا يستطيع أن يقـــول نعم ، أولا ، مترددا لحظة ومندفعا لحظـــة أخرى ، مكمما ضميره ، متجها الى ما كان يعرف انه ضلال وانحراف —

أما الآن ، ففى اللحظة التى قال فيها « سوف أكون حرا » وجد قلبه الذى كانت العاصفة تتقاذفه فى كل اتجاه وتنفس الصعداء شاكرا .

فقفز من فراشه وأسرع الى الحمام ثم ذهب مباشرة الى بنودينى . كان بابها مغلقا فطرقه .

— « هل أنت نائمة ؟ » .

وجاءت الاجابة من الداخل : « لا . وأرجوك أن تذهب عنى » .

— « هناك شىء هام أريد أن أقوله لك ولن يستغرق الأمر منى وقتا طويلا » .

— « ان الغثيان يصيبنى من الاصغاء اليك ، فأرجوك أن تذهب ولا تضايقنى بعد ذلك ، فانى أريد أن أكون بمفردى » .

لقد كان مثل هذا الرد يلهب عاطفة ماهندرا من قبل ، أما اليوم فقد ملأه اشمئزازا بالغا وقال لنفسه « لقد حقرت نفسى الى الحد الذى تعتبر فيه هذه المرأة ان لها الحق فى أن تهيننى وتلفظنى بارادتها . انها ليس لها حق طبيعى على ، بل أنا الذى سمحت لها بهذا الحق وجعلتها وقحة على هذا النحو » ثم حاول أن يعوض الرفض والصد بتخيله انه أفضل من بنودينى كثيرا فى كل ناحية ، وقال لنفسه : « سوف أحطم هذه القيود وأذهب ولسوف أنتصر فى النهاية » .

وبعد الغداء ذهب الى المصرف فصرف مبلغا من المال ثم زار محلات الله آباد ليشترى هدايا لأمه ولآشا .

ومرة أخرى كانت هناك طرقة على باب بنودينى ؛ ولم ترد فى أول الأمر بسبب غضبها الشديد ، فلما تكررت الطرقات فى اصرار استشاطت غضبا وفتحت الباب بخشونة وصاحت : « لماذا تضايقنى باستمرار ؟ » وقبل أن تنتهى من كلامها أدركت أن من كان واقفا أمامها انما هو بيهارى .

ونظر بيهارى داخل الحجرة ليرى ان كان ماهندرا بداخلها ، ووقع بصره على السرير حيث كانت هناك أكوام من آكاليل الزهور المتكسرة وأوراق النبات الجافة فاكتسحته عاصفة من الغضب والاشمئزاز ، ولم يكن مرد ذلك أنه كان لا يتشكك فى وجود علاقة بين بنودينى وماهندرا طوال هذه الأيام ، فالتشكك كان يكمن فى عقله من أول الأمر ولكن حجبته صورة جمال بنودينى التى كان خياله يداعبها دائما ، لقد كان قلبه وهو يدق على باب الحجرة يخفق من الخوف خشية أن تتلقى الصورة التى صنعها خياله هزة عنيفة فتسقط من مكانها وهذا هو ما حدث بالفعل بمجرد أن فتحت بنودينى الباب .

لقد تخيل بيهارى مرة ، برعونة وخفة ، ان فيض حبه سوف يزيل بمائه النقى المقدس كل الشوائب من حياة بنودينى ، ولكنه عندما وقف أمامها الآن وجها لوجه وجد أن قلبه قد انكمش وأن سورة غضبه الحق قد اعتصرت كل الشفقة منه وبدت له بنودينى الآن شديدة القذارة فأدار وجهه عنها بجفاء وأخذ ينادى « ماهندا ! ماهندا ! » .

وابتلعت بنودينى كبرياءها وقالت فى رقة : « ماهندرا ليس هنا ، فلقد ذهب الى المدينة » وعندما رأت بيهارى يهم بمغادرة المنزل أضافت « يا بيهارى يا أخا زوجى أرجوك أن تنتظر برهة . انى أستحلفك وأتوسل اليك » .

كان بيهارى مصمما على ألا يصغى الى أى توسل وأن يبتعد مباشرة عن هذا المنظر المخجل ، ولكن صوت بنودينى كانت فيه مسحة من الحزن جعلت قدميه تتسمران ووجد نفسه لا يستطيع أن يتحرك ، فالتفت اليها وقال : « لم تحاولين أن تجذبينى الى نطاق حياتك يا بنودينى ؟ ماذا

صنعت لك ؟ انى لم أقف فى طريقك يومـا ما ولم أحاول أن أتدخل فى حياتك » .

فأجابت بنودينى : « لقد اعترفت لك مرة قبل الآن بقدرك فى نفسى وما تعنيه بالنسبة الى ، ولم تصدقنى عندئذ — ومع ذلك فسوف أقولها مرة ثانية رغم عدم اكتراثك ورغم أنك تنكر على حق المرأة فى أن تقولها دون أن تنطق بكلمة ، وأن أكشف عن نفسى من خلال ستار الحياء . لقد نبذتنى — ومع ذلك فانى أتعلق بقدميك وأقول اننى أحب » .

فقاطعها بيهارى : « اياك أن تجرئى على النطق بهذه الكلمات التى يستحيل أن يصدقها أحد » .

— « قد لا يصدقها العالم — ولكنك أنت ستصدقها ؛ وهذا ما يدعونى الى أن أطلب منك أن تصغى الى » .

— « وما قيمة تصديقى أو عدمه — ما دامت حياتك ستظل كما هى » .

— « انى أعرف أن قيمة ذلك بالنسبة اليك قليلة . فان من سوء حظى ألا يكون لى الحق ولا الوسيلة ؛ فى أن أقف بجانبك مرفوعة الرأس ؛ ويجب أن أبتعد عنك الى الأبد ، ولكنى أرجو منك فضلا بسيطا — هو أن تفكر فى بشىء قليل من الاحسان وبشىء بسيط من اللطف والرقة حيثما كنت — انى أعـرف أنك فى يوم ما كنت تحمل لى بعض الاحترام — فدعه يستمر فهو كنزى الوحيد فى هذه الحياة ، وهذا ما يقتضيك أن تصغى على الأقل الى ما سأقوله ، فأرجـوك يا أخا زوجى أن تجلس برهة » .

فقال بيهارى وهو يتحرك باحثا عن حجرة أخرى : « وهو كذلك ، دعينا نذهب » .

فقالت بنودينى : « يا أخا زوجى ، ان ما تشك فيه ليس كذلك ، فان

هذه الحجرة لم تدنس . لقد أقمت مرة هنا — ومن ثم فقد نذرت هـذه الحجرة لهذه الذكرى وما هذه الزهور الميتة التى تراها الا بقايا صلواتى لهذه الذكرى ، فيجب أن تجلس هنا فى هذه الحجرة » .

وفاض قلب بيهارى سرورا عند سماع هذه الكلمات ودخل الحجرة وجلس على السرير الذى أشارت اليه بنودينى بكلتا يديها ، وجلست هى على أرض الغرفة عند قدميه . فلما رأته على وشك النهوض محتجا قالت : « أرجوك أن تجلس يا أخا زوجى . لا تقم ؛ أرجوك ، فأنا لست جديرة حتى بالجلوس عند قدميك — بل هو عطف منك أن تسمح لى بذلك وسوف أتعلق بهذا الحق البسيط حتى عندما تكون بعيدا » .

ثم ظلت صامتة فترة جفلت بعدها فجأة وسألته : « هل تناولت طعامك يا أخا زوجى ؟ » .

— « نعم ؛ فى المحطة » .

فقالت بنودينى : « لقد أرسلت اليك خطابا من قريتى فلماذا رددته لى مع ماهندرا مفتوحا ودون كلمة واحدة ؟ » .

فأجاب بيهارى : « اننى لم أر الخطاب قط » .

— « ألم تر ماهندرا فى كلكتا هذه المرة ؟ » .

فأجابها : « المرة الوحيدة التى رأيته فيها كانت فى اليوم التالى لسفرك الى القرية ، ولقد غادرت كلكتا بعد ذلك مباشرة وأخذت أتجول فى هذه الناحية ، ولم أر ماهندرا منذ ذلك اليوم » .

فسألته بنودينى : « وما رأيك فى الخطاب الذى أرسلته قبـل ذلك ورددته لى دون أن تقرأه ؟ » .

فأجاب بيهارى : « لم يصدر منى مثل هذا العمل اطلاقا » .

وصعقت بنودينى وبقيت صامتة ، وبعد برهة تنهدت بعمق وقالت :

« لقد فهمت الآن فدعنى أقول لك أيضا كل شىء ، فاذا صدقتنى فسوف أعتبر نفسى سعيدة الحظ ، وان لم تصدقنى فلن ألومك ، فليس من السهل أن تصدقنى » .

ورق قلب بيهارى وذاب حنانا ووجد من المستحيل عليه أن يمتهن هذا الاخلاص الذى يصدر ذليلا من أعماق القلب ، فقال « ليس عليك أن تخبرينى بكل شىء يا زوجة أخى ، فانى أصدقك تماما دون أن أسمع كلمة أخرى ، ولن أحتقرك أبدا فأرجوك ألا تقولى شيئا بعد ذلك » .

وسالت الدموع على وجنتى بنودينى وانحنت ولمست قدمى بيهارى بيدها ثم مرت بيدها على جبينها وقالت « ولكنى سوف أموت من الاختناق اذا لم أتكلم وأبح بكل شىء فأرجو أن تصبر قليلا وأن تصغى الى ، لقد قبلت حكم النفى الذى حكمت به على راضية ومع أنك لم تكتب الى حتى ولو سطرا واحدا ، فقد كنت أعتزم أن أظل أتحمل حظى فى المنفى ، وأن أحتمل الافتراء والتهكم والسخرية التى كان يكيلها سكان القرية فوق رأسى — لو أنك سمحت لى كما قلت بعقابك ان لم يكن بحبك — ولكن القضاء أنكر على حتى ذلك . لقد تبعتنى الخطيئة التى أثرتها حتى فى منفاى ، فقد جاء ماهندرا الى القرية بل الى باب كوخى وغطانى بالعار فى أعين جميع سكان القرية ، حتى صار من المستحيل أن أمكث هناك بعد ذلك . فأخذت أبحث عنك فى كل مكان لأطلب الارشاد والتوجيه مرة أخرى ولكنى لم أهتد اليك فى أى مكان — لقد خدعنى ماهندرا عندما أرجع لى خطابى من بيتك مفتوحا وألقى به فى وجهى ، وهكذا جعلنى أفهم أنك قد هجرتنى ولفظتنى تحقيرا ، وكان يمكننى بعد ذلك أن أزل وأن أضل سواء السبيل ولكن ما أدهش تأثيرك ، انه ينفذ حتى من بعيد ! فلم أفسد ولم أضل ، لقد بقيت طاهرة عفيفة لأن التفكير فيك كان فى أعماق

قلبى ، فلقد حملت صورتك ، صورتك الشديدة القاسية وأنت تأمرنى بالنفى ؛ حملتها فى قلبى شديدة قاسية كالذهب اللامع ، كحجر كريم يجعل حياتى التى كانت لا تستحق شيئا من قبل عزيزة قيمة . انى أقسم لك ؛ يا ملاكى ؛ ألمس قدميك وأقسم لك أنه لم يحدث ما يضيع هذه القيمة » .

وظل بيهارى صامتا وبقيت بنودينى كذلك ساكتة لا تقول شيئا بعد ذلك ، وأخذ ضوء الأصيل يتحول تدريجا الى شفق . وفجأة وصل ماهندرا فرآهما على هذا الحال وأدهشه وجود بيهارى فى الحجرة ؛ وسرعان ما جافاه شعوره بعدم الاكتراث الذى اكتسبه حديثا وتأرجح تحت أثر الغيرة التى أيقظها من نومها ما رآه الآن ، فقد كان منظر بنودينى وهى جالسة كتمثال عند قدمى بيهارى تحديا وضربة لكبرياء رجولته ، ولم يعد لديه شك فى أن هذين الاثنين كانا يتراسلان سرا وأنهما قد رتبا هذه المقابلة ، لقد كانت بنودينى صعبة المراس بما فيه الكفاية حين هجرها بيهارى ، فمن ذا الذى يستطيع كبحها الآن بعد أن عاد اليها ؟ لا ، ان ماهندرا لا يستطيع أن يهجر بنودينى ، انه قد يستطيع ذلك على شريطة ألا يحصل عليها شخص غيره — ولكن ليس كذلك ! فالتفت الى بنودينى والخيبة توجعه وقال فى لهجة كلها مرارة وسخرية « اذن فقد أعد المسرح لمنظر جديد — يخرج ماهندرا — ويدخل بيهارى ! يا له من منظر ساحر ! ان الانسان ليحس بالرغبة فى التصفيق ؛ فلنأمل أن يكون هذا هو الفصل الأخير — آخر القصة » .

وصار لون بنودينى قرمزيا من الخجل ، ولم تستطع أن ترد هـذه الاهانة اذ كانت قد اضطرت يوما الى قبول حماية ماهندرا . ونظرت الى بيهاري وهي عاجزة من الألم والخجل ، فنهض بيهارى من مقعده وتقدم

وقال : « لا تهن بنوديني كما يفعل الجبان يا ماهندرا ! واذا كانت حسن تربيتك لا تستطيع أن تكبح جماحك فمن حقى أن أقوم بذلك » .

فضحك ماهندرا وقال : « حقا ! ان الحق لشديد الوضوح ، دعنا نطلق عليك اسما جديدا من الآن بنود بيهارى »[1] .

وعندما رأى بيهارى أن ماهندرا يريد أن يتراشق بالكلام أمسك بيده وقال : « دعنى أخبرك أننى أنوى الزواج من بنودينى ، ولهذا أرجوك أن تمسك لسانك » .

ووقف ماهندرا مشدوها وجفلت بنودينى وسبب اندفاع الدم اضطرابا فى صدرها .

واستطرد بيهارى يقول : « هناك خبر آخر لك . ان أمك مريضة مرضا خطيرا والأمل فى أن تبقى حية ضئيل . وسوف أعود الى كلكتا بقطار الليل وستأتى بنودينى معى » .

فصاحت بنودينى : « عمتى مريضة ! » .

فأجاب بيهارى : « مرضا خطيرا ، والأمل فى شفائها ضعيف » .

وغادر ماهندرا الحجرة دون أن يتفوه بكلمة .

والتفتت بنودينى الى بيهارى وسألته : « كيف استطعت أن تقول ما قلته الآن ؟ يا للسخرية ! » .

فأجاب بيهارى : « ليست هناك سخرية . صدقينى ، انى أرغب فى الزواج منك » .

— « حتى تكفر عن هذه المذنبة ؟ » .

— « لا ، ولكن لأنى أحبك ولأنى أحترمك » .

---

(1) لعب بالكلمات فان هذه الكلمة المركبة تعنى أيضا الشخص الذى يستمتع ببنود .

— « اذن فلتكن هذه آخر مكافأة لى فانى أريد أكثر مما أكدته الآن ، واذا أخذت أكثر من ذلك فلن يدوم فالدين والمجتمع لا يجيزاه » .

فسألها بيهارى : « ولماذا ؟ » .

فقالت بنودينى : « ان مجرد التفكير فيه مخجل . اننى أرملة ، كما أن الخزى يكسونى ، ولن أستطيع أن أسمح لك بأن تفقد اعتبارك بين طائفتك بسببى ، فأرجوك ألا تنطق بمثل هذه الكلمات مرة أخرى » .

فسألها بيهارى : « هل تعنين اذن أنك ستقاطعيننى ؟ » .

— « ذلك ما لا أستطيع أن أفعل بل وليس لى الحق فى أن أفعله . ان لك عدة رسالات خيرية سرية فائتمننى على بعضها حتى أتمكن من أن أجعل حياتى مفيدة فى خدمة الناس . أما أن تتزوج أرملة ! يا له من أمر مخجل تفعله ! قد تكون كريما الى الحد الذى ترحب فيه بمثل هذه الكارثة ، ولكنى اذا تركتك تعمل ذلك وعرضتك للغيبة بين الناس فلن أستطيع أن أرفع رأسى مرة أخرى » .

فصاح بيهارى : « ولكنى أحبك يا بنودينى » .

فقالت بنودينى وهى تنبطح فى ذلة على الأرض وتقبل أصابع قدميه :

— « دعنى اليوم وأنا أنعم فى اعتزازى بهذا الحب أرتكب حماقة صغيرة » .

ثم جلست بالقرب من قدميه مرة أخرى واستطردت تقول : « سوف أصلى وأكفر لتكون لى فى الحياة الأخرى — أما فى هذه الحياة فانى لا أجرؤ على أن أتمنى أكثر من ذلك لأنى لا أستحقه . لقد سببت آلاما كثيرة وتحملت آلاما كثيرة وتعلمت درسا كبيرا — فهل أجرؤ على أن أنسى هذا الدرس وأجرك فى الوحل ، وأنا أغوص فى أعماقه ! انى اذا كنت لم أفعل ذلك ، واذا كنت قد استطعت أن أرفع رأسى مرة أخرى فما ذلك الا أنك

وقفت الى جانبى وساعدتنى على أن أنهض . ولذلك فأنا لن أحطم هذا السند وهذا الملاذ » .

وظل بيهارى صامتا تبدو عليه الجدية ، واستطردت بنودينى تقول فى توسل وراحتاها ممسكتان احداهما بالأخرى : « لا تخدع نفسك ، لن تكون سعيدا اذا تزوجتنى ، سوف تفقد كبرياءك واحترامك لنفسك ، وسوف أفقد كبريائى واحترامى لنفسى . عش حياتك كما عشتها دائما منعزلا رزينا ، ودعنى أظل بعيدة مشغولة فى عملك وليمنحك الله السعادة والسلام ! » .

٥١

عندما كان ماهندرا على وشك أن يدخل حجرة أمه خرجت آشا مسرعة وقالت : « لا تدخل الآن من فضلك » .

فسأل ماهندرا : « ولماذا ؟ » .

— « لقد حذرنا الطبيب وقال : ان أية صدمة سارة كانت أو غير سارة قد تكون قاتلة لها » .

فقال ماهندرا : « دعينى أتسلل على أطراف أصابع قدمى خلفها وأنظر اليها انها لن تحس بى » .

فأصرت آشا قائلة : « انها تجفل عند أى صوت مهما كان ضئيلا ، وسوف تستيقظ بلا شك بمجرد أن تدخل الحجرة » .

فسألها ماهندرا : « وماذا تقترحين اذن ؟ » .

— « دع أخا زوجى بيهارى يدخل ويراها أولا وسوف ننفذ ما ينصح به » .

وفى هذه اللحظة وصل بيهارى فأرسلت اليه آشا .

وسألها بيهارى : « أرسلت فى طلبى يا زوجى أخى : أرجو أن تكون الوالدة أحسن حالا » .

وبدا كأن حملا ثقيلا قد أزيح عن آشا عندما رأت بيهارى وأجابت : « لقد زاد قلقها منذ أن غادرتنا ، وقد سألت عنك فى نفس اليوم حين لم ترك وقالت : « أين ذهب بيهارى ؟ » فأجبتها « لقد ذهب فى مهمة عاجلة وسوف يعود يوم الثلاثاء » . ومنذ ذلك الحين وهى تستيقظ جافلة من حين الى آخر — كما لو كانت تتوقع شخصا ما ولو أنها لا تقول شيئا . فلما وصلت برقيتك أمس قلت لها : انك ستحضر اليوم ، فطلبت أن تعد أطباق خاصة من أجلك ، كل ما تحبه ، وأمرت بأن تطهى فى الشرفة المواجهة لحجرتها حتى يمكنها أن تشرف عليها بنفسها ، وهى لا تصغى الى أوامر الطبيب وقد نادتنى من برهة وجيزة وقالت يا زوجة ابنى ، يجب أن تطهى كل طبق بيديك ؛ وسوف أجلس بيهارى أمامى وأطمئن الى أنه يأكل » .

وملأت الدموع عينى بيهارى وسألها : « وكيف حالها ؟ » .

فأجابت آشا : « يحسن بك أن تراها بنفسك فانى أخشى أن تكون حالتها قد زادت سوءا » .

ودخل بيهارى الحجرة وبقى ماهندرا محيرا واقفا خارج الباب وقد أدهشته وأذهلته السهولة التى كانت تمسك بها آشا زمام الأمـــور فى البيت ؛ لقد طلبت من ماهندرا ألا يدخل الحجرة فى أسلوب بسيط طبيعى دون خجل أو استياء — وهو — كيف أصبح ولا نفوذ له فى بيته ؛ يقف صامتا كالمجرم الأثيم خارج حجرة آمه تعوزه الشجاعة على الدخول !

ولم يكن منظر آشـــا وهى تتكلم مع بيهارى بحرية ودون ارتبـــاك وتستشيره كما لو كان ولى أمر البيت الوحيد الذى يحبه الجميع ويثقون فيه بأقل ادهاشا واذهالا . لقد أصبحت له وليست لماهندرا حرية الدخول

الى كل حجرة ، وصارت كلمته هى التى يصغى اليها الجميع ، واكتشف ماهندرا عند عودته أن مكانته فى بيته لم تعد كما كانت .

وما أن دخل بيهارى الحجرة حتى نظرت اليه راجلاكشمى برقة وقالت : « هل عدت يا بيهارى ؟ » .

— « نعم يا أماه . لقد عدت »

فسألته وهى تحدق فيه : « وهل قمت بعملك ؟ » .

فأجابها بيهارى مبتسما : « نعم يا أماه ، لقد أكملت رسالتى ولم يعد ثمة ما يدعو الى قلق بعد ذلك » .

« سوف تطهو زوجة ابنى وجبتك بيديها اليوم ، وسوف أشير عليها بما تعلمه من هنا . ان الطبيب يقول لى لا تفعلى هذا ! لا تفعلى ذاك — ولكن ما هى الفائدة يابنى ؟ ألا أستطيع حتى أن أرى الناس وهم يأكلون قبل أن أرحل ؟ » .

فأجاب بيهارى : « ليس هناك معنى لما يقوله الطبيب يا أماه ، فكيف نستطيع أن نحيا بدونك ؟ لقد تعودنا منذ الطفولة أن نستمتع بالأطباق التى تعدينها بيديك — وماهندرا — يا للمسكين — لقد سئم من أكل الدال روطى (*) ، وهو يتطلع الى كارى السمك ، وسوف نجلس اليوم نحن الأخين معا مرة ثانية ونأكل سويا كما اعتدنا ونحن طفلان ينافس أحدنا الآخر ونلتهم أفضل ما نختاره من المشهيات ، فدعينا نرى اذا كان طهو زوجة ابنك سيكفينا » .

ومع أن راجلاكشمى كانت قد خمنت أن بيهارى قد أحضر ماهندرا معه ، فقد ارتجف قلبها عند سماع اسمه وأخذ تنفسها يؤلمها ، فلما عادت

(*) خبز وعدس ، اشارة الى عادات سكان بنغال الغربية فى الأكل حيث يأكلون كثيرا من القمح بينما يحب البنغاليون الأرز والسمك .

الى سابق حالتها قال بيهارى : « لقد تحسنت صحة ماهندرا كثيرا من رحلته الى الغرب ولو أن التعب بعد الرحلة يبدو عليه ، ولكنه سوف يكون على ما يرام بعد الحمام والغداء » .

ولما وجد أن راچلاكشمى لم ترد استمر يقول : « ان ماهندرا ينتظر عند الباب يا أماه ، وهو لا يستطيع أن يأتى الا اذا ناديتيه » .

ونظرت راچلاكشمى الى الباب دون أن تقول شيئا ، فنادى بيهارى عندما رأى نظرتها « تعال يا ماهندرا » .

ودخل ماهندرا ببطء ، وامتنعت راچلاكشمى عن النظر اليه خوفا من صدمة عنيفة وأغمضت عينيها قليلا . ونظر ماهندرا الى الفراش وجفل كما لو كان شخص ما قد ضربه وانحنى ورأسه على قدمى أمه ويداه تمسكان بهما ، وهزت رجفة قلب راچلاكشمى وأطرافها .

وبعد فترة قالت أنا برنا برقة : « أختاه ، أرجوك أن تطلبى من ماهن أن ينهض والا فانه لن ينهض » .

فتمتمت راچلاكشمى وهى تلفظ كل كلمة بألم : « انهض يا ماهن » .

وبعد فترة طويلة جفت فيها عيناها أخذت الدموع تنهمر على خديها بغزارة بمجرد أن نطقت باسم ابنها ، وزال الضيق من قلبها ، ونهض ماهندرا وجاء الى جانبها وركع على أرض الحجرة وهو ينحنى فوقها ، واستدارت بمجهود مؤلم وأمسكت برأس ماهندرا فى يديها وقربتها من وجهها وقبلت جبهته .

وتوسل ماهندرا فى صوت متقطع : « أماه .. لقد سببت لك آلاما كثيرة فأرجو أن تغفرى لى » .

فاستردت قواها وقالت : « لا تقل أكثر من ذلك يا ماهن ، فكيف

أستطيع أن أعيش اذا كنت لا أعفو عنك ! يا زوجة ابنى ! يا زوجة ابنى ! أين أنت ؟ » .

وكانت آشا فى الحجرة المجاورة تعد غـداء المريضة فأرسلت اليها أنا برنا ، فلما جاءت أشارت راچلاكشمى الى ماهندرا لينهض ويجلس الى جوارها فوق الفراش ، ثم خاطبت آشا تقول : « يا زوجة ابنى — اجلسى هنا — أريد أن أراكما أنتما الاثنين جالسين اليوم جنبا الى جنب — عندئذ فقط يزول ألمى — لا تخجلى يا زوجة ابنى ، اجلسى هنا وامحى من عقلك كل استياء من ماهن .. يا أمى الصغيرة : املأى عينى سلاما » .





الثمن ٤٠ قرشا

مارس سنة ١٩٦٦
مطابع الدار القومية